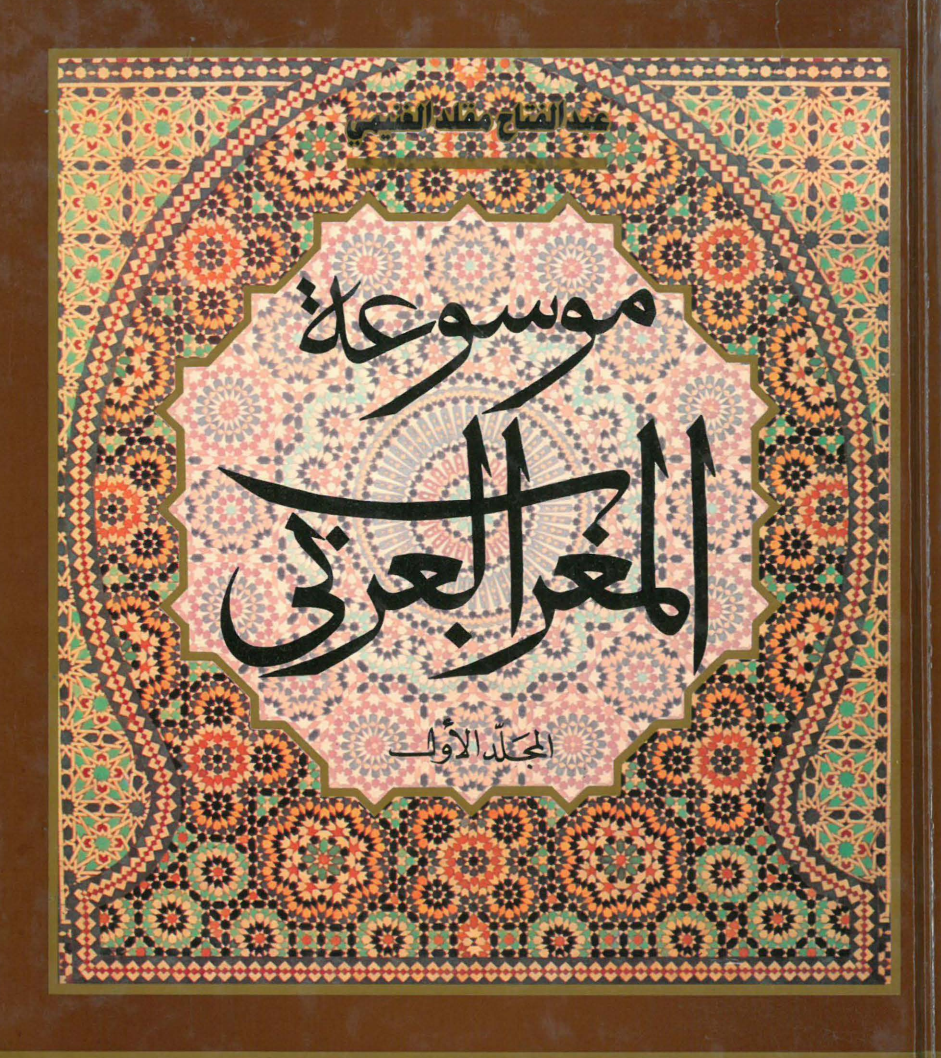
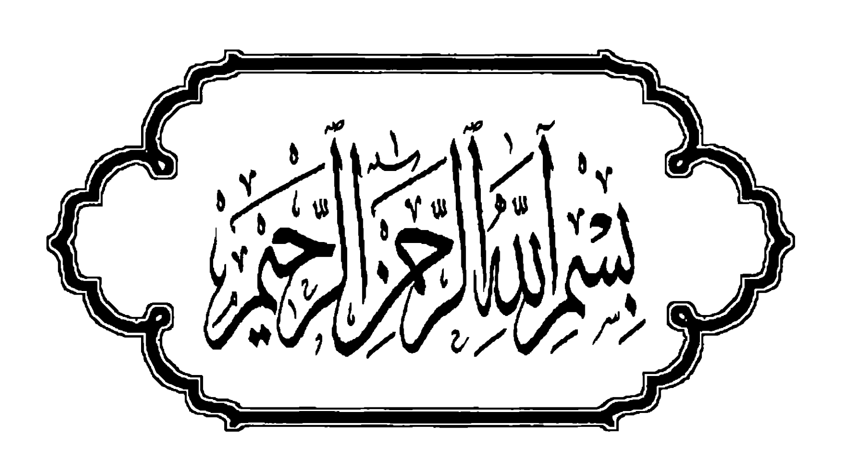
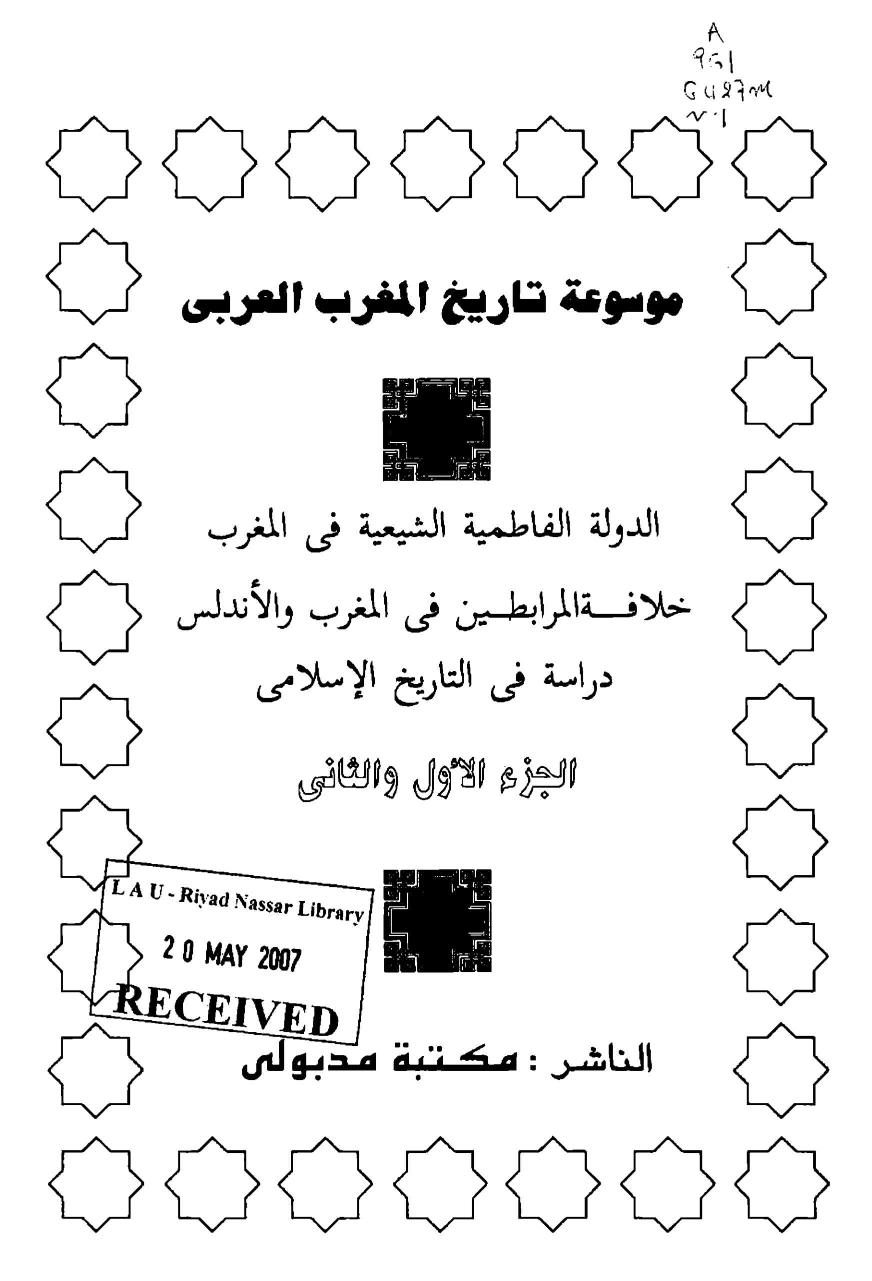


مكتبة مدبولي
القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم



موسوعة تاريخ المغرب العربى

الدولة الفاطمية الشيعية فى المغرب

خلافة المرابطين فى المغرب والأندلس

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الأول والثانى

الناشر : مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى

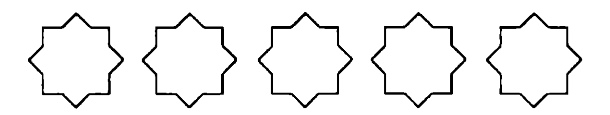
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشر

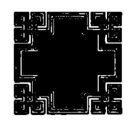
مكتبة مدبولي

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١

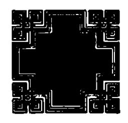


موسوعة تاريخ المغرب العربى

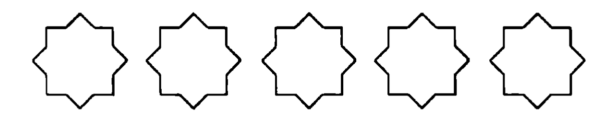


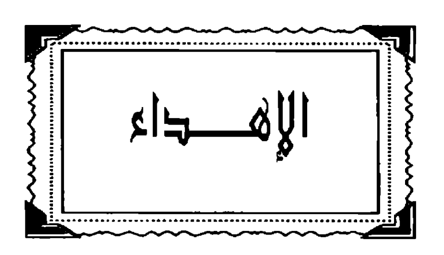
الدولة الفاطمية
الشيعية فى المغرب

دراسة فى التاريخ الإسلامى



الجزء الأول





إلى روح شقيقى الأصغر الشهيد جمال حسنين مقلد الذى صعدت إلى بارئها فى بيت الله الحرام ليلة الإثنينى الخامس عشر من شهر رمضان ١٤١١هـ (التاسع من ابريل ١٩٩٠م) وصلى على جثمانه الطاهر بمقام إبراهيم بجوار الكعبة المشرفة. قبلة الإسلام والمسلمين ووورى الجسد ثرى مكة المكرمة حيث أطهر بقاع الأرض وأقدسها وحيث أو بيت وضع للناس وهدى للعالمين .. والذى نقيم له مجمعاً إسلامياً ببلدته الغنايم بصعيد مصر ويشلم : (مسجد، حضانة إسلامية، دار تحفيظ قرآن كريم، عيادة طبية، مشغل للفتيات) كصدقة جارية على روحه حيث لم يتزوج لوم يترك عقباً له، يغفر الله له ويرحمه رحمة واسعة ويدخله فسيح جناته مع رفقائه الشهداء والأبرار والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أقدم هذه الدراسة ..

د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى

المحتويات

صفحة

التمـــهـــيد

كانت تلك الدراسة تحمل عنوان « دور مصر فى نشر الإسلام فى بلاد المغرب خلال القرن الأول الهجرى »، لكن آثرت أن يكون هذا الموضوع بتلك الصورة وهى «المغرب العربى عبر القرن الأول الهجرى» وذلك أن الذى أغنانى عن هذا أن هناك دراسة سابقة لى عن «دور مصر الحضارى فى أفريقية» بها فصل مغاير عن تلك الدراسة وهو عن «دور مصر السياسى والإقتصادى والثقافى فى بلاد المغرب».

وللحقيقة التاريخية الثابتة أن مصر كانت دائما وأبد الدهر مع كل الأخوة العرب والمسلمين، فمن خلال تلك الدراسة يتضح دور مصر فى كل مراحل الغزو الإسلامى ٢٢هـ/٦٤٣م – ١٢٥هـ/٧٤٣م.

ألم تكن مصر هى التى أعطت رجالها وإقتصادها ومؤنها وزادها وعتادها وأبناءها فى سبيل بدء الغزو للمغرب، لقد كانت مصر فى كل صورة من صور التحرك العربى الإسلامى على أرض المغرب، أعطت أموالاً ورجالاً وأسطولا ومهرة وفنيين وشاركت برسم سياسة الغزو عن طريق الخبراء والأدلاء المصريين الذين كانوا قد خبروا الدروب والصحارى، كما أن إسطولها ظل يشارك فى حماية الغزو بحراً من عام ٢٢هـ إلى ٨٩هـ .ثم كانت هناك ألف أسرة مصرية من خيرة الفنيين فى الملاجة وبناء السفن هم نواة القوة البحرية المغربية حيث كان قد طلب والى الخليفة عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغسانى بإرسال هؤلاء الخبراء المصريين لبناء قاعدة بحرية مغربية، كما أن مصر هى التى نشرت الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب، ومدرسة الفسطاط المصرية هى التى غذت المغرب بكل العلوم الإسلامية العربية، كما أن أبناء المغرب وفدوا الى مدرسة الفسطاط ومدارس مصر المختلفة للتزود بالزاد العلمى الإسلامى المصرى، لقد وفد عالما المغرب وقمة المذهب المالكى (أسد بن الفرات،الأسدية) وسحنون بن سعيد (المدونة) إلى عالم المالكية المصرى (على بن قاسم) لدراسة المذهب المالكى.

لقد أعطت مصر وأجادت فى العطاء حتى صار المغرب عربياً إسلامياً وتكونت الكتلة العربية الإسلامية الثانية على أرض المغرب لتشارك الأم الكبرى مصر فى حركة المد الإسلامى والدور العربى فى أرجاء القارة الأفريقية.

هكذا مصر عبر التاريخ والأزمان عطاء بلا حدود وبذلا بسخاء وأموالا ورجالا وخبراء وعلما وفناً وهكذا قدر لها أن تكون مصر فهى التى صانت وحفظت للإسلام قوته وللعروبة أصالتها، إن كل حرف من حروف تلك الدراسة ينطق بعطاء مصر لبلاد المغرب.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

مقـــدمـة

الحمد لله رب العالمين الهادى لصراطه المستقيم، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله النبى الخاتم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين.

أما بعد .. .. ..

فتلك دراسة عن المغرب العربى خلال الفترة (٢٢-١٢٥هـ / ٦٤٣-٧٤٣م)، وهى الفترة التى بدأت فيها أنوار الإسلام تأخذ طريقها إلى ذلك البلد الإسلامى بعد أن تم انتشار الإسلام أو فتح مصر مباشرة، وتلك الدراسة التى نقدمها للقارئ العربى والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامى عن القرن الأول الهجرى والنصف الأول من القرن الثانى، تلك الحقبة التاريخية التى وصل فيها المد الإسلامى أبعاداً واسعة فى فترة زمنية قصيرة حتى أنه يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوربا. وعلى هذا تكون تلك الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربى والإسلامى والذى لعب دوراً فى إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير فى نشر الإسلام والعروبة فى أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التى تقع إلى الجنوب من المغرب العربى وكذلك فى أوربا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم.

وقد قسمت تلك الدراسة إلى ستة أبواب تناولت فى كل باب منها دراسة متصلة الحلقات بحيث يكون كل باب مترابطاً مع الأبواب الأخرى وذلك لتكامل بناء تلك الدراسة فتناولت بالدراسة والبحث فى الباب الأول : المغرب العربى قبل الغزو الإسلامى، فتحدثت فيه عن موقع المغرب جغرافياً والمكونات الطبيعية لذلك الإقليم والعوامل المناخية والجغرافية فى تكوين تلك البيئة ثم الفصل الثانى عن التركيب السكانى للمغرب وما هى الشعوب التى تسكن تلك الديار وما هو الحال السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى كان عليه المغرب قبل الغزو الإسلامى.

ثم تحدثت فى **الباب الثانى** عن محاولات الغزو الإسلامى الأول بدءاً من حملات عمرو بن العاص عام ٢٣هـ، ٢٥هـ، ثم غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح، معاوية بن جديج، ودور معاوية بن أبى سفيان فى فتح المغرب، ودور عقبة بن نافع والحملات المنتظمة للمغرب وتأسيس القيروان وولاية أبى المهاجر بن دينار الأنصارى، وولاية عقبة الثانية.

ثم كان **الباب الثالث** عن : الغزو الإسلامى والاستقرار النهائى بالمغرب فكانت بدايتها بغزوة قيس بن زهير البلوى، ثم غزوة حسان بن النعمان الغسانى والاستقرار النهائى فى أفريقيا، ثم دور حسان بن النعمان الغسانى فى إنشاء الأسطول العربى المغربى وعن أعماله الإدارية وإنشاء ميناء تونس، ثم عن غزوات موسى بن نصير والغزو الأخير والاستقرار والتوسع فى كل أنحاء المغرب، ثم نهاية موسى بن نصير.

وكان الباب الرابع : عن ولاة المغرب حتى ظهور الدول المستقلة، ودور عرب المغرب والاندماج بين العرب والبربر ثم ولاة المغرب بعد عزل موسى **بن نصير** ودور الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز فى نشر الإسلام بين البربر وكيف كانت نهاية هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ بداية ظهور الفتن والقلاقل والثورات فى المغرب، وبوادر ظهور الإمارات المستقلة ودور عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (١٢٧ – ١٣٢هـ) فى إنشاء ولاية عربية فى أفريقيا ثم ثورة الخوارج الأباضية والسيطرة على القيروان والفتنة الكبرى فى المغرب ثم مواجهة الثورة من قبل الدولة الأموية، ثم المغرب فى ظل الخلافة العباسية. ودور الخليفة أبو جعفر المنصور فى إنهاء ثورة الخوارج والمحافظة على السنة والجماعة ودور أسرة المهلبى فى حكم المغرب. ثم انتهى ذلك الباب عند هذا الحد التاريخى حيث تجاوزنا فترة ١٢٥ هـ لبعد تاريخى آخر تكملة للبحث حيث أنه كان لابد من الإشارة إلى ذلك.

ثم كان **الباب الخامس** : عن الإسلام والعروبة فى المغرب. وكيف انتشر

الإسلام وما هى العوامل التى ساعدت على انتشاره وكيف انتشر الإسلام وما هى العوامل التى ساعدت على انتشاره وكيف أدت كل هذه العوامل إلى صبغ البلاد بالصبغة الإسلامية ومدى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع وكيف أن المغرب العربى كان أكثر البلاد العربية الإسلامية استجابة للإسلام واعتزازاً بالعروبة والإسلام دون غيره من الأقطار التى فتحت رغم صعوبات الغزو العربى، وما هو دور القبائل العربية المهاجرة والفرق الإسلامية المختلفة (الخوارج - الشيعة - المعتزلة) فى نشر الإسلام والعروبة فى أنحاء المغرب - ودور ولاة البلاد فى نشر الإسلام ودور أبناء المغرب أنفسهم فى طبع بلادهم بالطابع العربى الإسلامى.

ثم كان **الباب السادس** والأخير فى تلك الدراسة عن دور القيروان فى إثراء الحركة الإسلامية، وكيف كان إنشاء تلك المدينة التى تعتبر رابعة الثلاث مكة المكرمة، المدينة المنورة، بيت المقدس كما قال عنها الدباغ فى إثراء الحركة الإسلامية العربية وفى الحفاظ على الوجود العربى الإسلامى فى المغرب وكيف ساعدت فى اتساع دائرة المد الإسلامى إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والأندلس وغرب أفريقيا، ثم كيف لعب مسجد عقبة بن نافع الفهرى ودار الحكمة باعتبارها جامعة يؤمها الطلاب من أنحاء عديدة للدراسة والبحث ثم العودة إلى بلادهم حاملين راية الإسلام وعلوم الشريعة والفقه واللغة العربية لنشرها فى بلادهم ثم كيف حافظت على طابع الثقافة العربية الإسلامية المغربية وكيف ساعدت على ظهور خصاص مغربية معينة وكيف ساعدت على انتشار المذهب المالكى ودعمته وصانته وكيف أصبح بفضل القيروان هو المذهب السائد فى كل أنحاء المغرب.

ثم كانت خاتمة ذلك البحث وهى خلاصة ما توصلت إليه من نتائج خلال تلك الدراسة وفى النهاية كانت قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى عولت عليها اعتماداً حتى كانت تلك الدراسة على هذه الصورة التى نضعها بين يدى

الأخوة القراء والطلاب والأخوة الأكاديميين الذين يهتمون بدراسة التاريخ الإسلامى والمغرب العربى والتاريخ الإفريقى بصفة خاصة.

وحقيقة الأمر فإنى أرجو أن أكون قد وقفت بعون من الله وتأييده فى إضافة دراسة جديدة عن المغرب العربى فى حقبة تاريخية قصيرة (٢٢هـ/٦٤٣هـ – ١٢٥هـ/٧٤٣م) ولا أقول سدت فراغاً ذلك لأن هناك العديد من الدراسات فى المغرب الغربى، لكن كل دراسة تتناول الموضوع من جانب مغاير عن الجانب الآخر. وهذا ما قصدت إليه فى تلك الدراسة، التى أرجو من الله العلى القدير أن تتبعها دراسات أخرى عن المغرب العربى ذلك لأن دراسة تاريخ المغرب خلال الخمسة قرون الهجرية الأولى، تحتاج إلى العديد من المؤلفات، ومن هنا كانت تلك الدراسة مقدمة بإذن الله فى تاريخ المغرب، والتى هى عبارة عن الجزء الأول من موسوعة المغرب العربى، وتليها خمسة أجزاء أخرى باعتبار أن هذه الموسوعة تضم أجزاءاً ستة.

ونرجو الله العلى القدير أن يلهمنا التوفيق وأن يلهمنا الهدى والسداد وأن يكون ذلك العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول
المغرب قبل الغزو الإسلامى

الفصل الأول
المغرب جغرافياً

يدل اسم المغرب على مكان ما بإضافته إلى جهة الشرق، وعلى هذا .. فإنه تظهر صعوبة فى تحديد المغرب جغرافياً وأى الأقاليم يضمها المغرب، لكن اسم المغرب كلفظ ومفهوم جغرافى وسياسى قد اكتسب مفهوماً سياسياً خلال فترة التاريخ الإسلامى ومنذ الفتح الإسلامى ، والمصادر تعطى هذا المفهوم الجغرافى والسياسى تعريفات مختلفة ومتناقضة، فقد أرجع ابن خلدون هذا الاختلاف إلى عرفين مختلفين هما عرف أهل الجغرافية، والعرف الجارى فى فترة زمنية ما [1]. ومن هنا فإذا نظر الدارس والباحث فى المعلومات التى تضمها المصادر وكتب الجغرافيا الإسلامية والعربية القديمة يستطيع أن يدرك أن العديد من هؤلاء الجغرافيين قد ارتكزوا على عدة أبعاد فى محاولاتهم لتحديد وتعريف لفظ المغرب وهى تلك البلاد المترامية الأطراف.

فمن ذلك نجد الجغرافى الإسلامى ابن حوقل قد اختار الحواجز الطبيعية أساساً لتعريفه لبلاد المغرب فقد ذهب إلى أن النيل «نهر النيل» هو الحد بين بلاد الشرق والمغرب [2] فى حين نجد أن ابن فضل الله العمرى يذكر فى مخطوطة مسالك الأبصار أن الأرض التى توجد فى شرق بحر الاسكندرية وخليج القسطنطينية .. فإن تلك الأراضى تدخل فى حساب بلاد الشرق وعليه .. فمصر هى أول بلاد المغرب والشام أول بلاد الشرق وبذلك فقد أدخل ابن فضل الله العمرى مصر فى حوزة بلاد

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٦، ص٩٨.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٤.

المغرب[٣]. كما أن ابن خلون قد جعل الحد الذى تقف عنده بلاد المشرق هو بحر القلزم. ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الجغرافيين والعلماء المسلمين قد اختاروا البعد الطبيعى ليكون هو الحد الفاصل فى تحديد بلاد المشرق والمغرب، إلا أن هناك بعد الجغرافين الآخرين قد اختاروا التركيب البشرى هو البعد الذى يعتمد عليه الإطلاق اللفظى على بلاد المغرب، ومن هنا فإن المغرب عند هذا النوع من الجغرافيين أن المغرب ما كان فى القديم موطناً لديار البربر ومقرا لهم ووفق هذه النظرة فبلاد المغرب تمتد من طرابلس ليبيا شرقاً إلى البحر المحيط غرباً وتخرج من هذه الدائرة بلاد الأندلس.

وهناك فريق ثالث قد استطاع أن يجعل من الأوضاع الإدارية والظروف السياسية بعداً آخر بل محوراً من محاور تعريفه لبلاد المغرب. فنجد الاصطخرى والذى كتب فى وقت مبكر قد بلور فى كتاباته استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية وأصبح (المغرب العربى) الشمال الإفريقى موطن نزاع بين أمراء الأمويين الأندلسيين والفاطميين فى أفريقيا، فنجده يقسم المغرب إلى مغربين، مغرب أفريقى ومغرب أندلسى [٤].

ومن ثم .. فإننا نرى أيضاً أنه خلال القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى أن بلاد المغرب ظلت تمثل منطقة نزاع بين قوتين أساسيتين هما الدولة العباسية والأموية. لذا .. فإننا نجد صدى ذلك الصراع أو النزاع يذكره البكرى فى كتابه «المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب» حيث يسمى بلاد المغرب باسم أفريقية وأنها امتدت شرقاً من طرابلس لكى تضم برقه لكى تكون الحد الشرقى لهذه البلاد والتى تمتد إلى طنجة غرباً وكذلك تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى الرمال المتصلة بأرض السودان جنوباً [٥].

ومن هنا فإنه مهما يكن من أثر الظروف السياسية فى تعريف لفظ المغرب بهذه

(٣) العمرى (ابن فضل الله) : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ورقة ١٠٣.
(٤) الاصطخرى : المسالك والممالك، ص ٢٣.
(٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ٢١.

التعريفات السابقة التى ارتكزت إلى مرتكزات طبيعية أو جغرافية أو نظرة عرقية سلالية جنسية .. فإن كل هذه التعريفات لم تكن بعيدة كل البعد عن الأوضاع السياسية التى سادت فى عصر أصحاب التعريفات من المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين. ومن ذلك .. فإن الوضع السياسى قد حدد هذه الكتابات فمن ذلك نجد ابن حوقل قد كتب فى وقت لم تعد فيه للخلافة العباسية فى بغداد أدنى سلطة على مصر وما جاورها من بلاد تقع إلى الغرب منها حيث كان العالم الإسلامى فى وقت تأليف كتابه «صورة الأرض» قد انقسم إلى عالمين اسلاميين، عالم مشرقى وعالم مغربى، وكانت مصر تمثل الحد الفاصل بينهما، كما أن ابن سعيد المغربى قد صنف كتابه «بلاد المشرق» فى وقت بلغت فيه المنافرة بين المشارقة والمغاربة ذروتها فكأنه أراد أن يقوى بلاد المغرب فما كان عليه إلا أن يضيف مصر إلى بلاد المغرب وما تمثله من ثقل سياسى وحضارى.

وهذه الحلفية السياسية فى تعريف المغرب ربما عللت بعدم إخراج بعضهم الأندلس عن تعريفه للمغرب، ومن هنا فلم يظهر تقسيم المغرب إلى أقاليم ثلاثة إلا ابتداء من القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى مع الاختلاف فى الحدود الفاصلة بينهما [٦].

وعلى هذا فإن لفظ بلاد المغرب مصطلح يطلق على كل البلاد الإسلامية الممتدة من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسى وكما ذكرنا فإن المؤرخين يختلفون فى وضع مصر بين شرق العالم الإسلامى أو غربه فبعضهم يضعها فى بلاد المشرق وهناك عدد قليل منهم (ابن سعيد المغربى) يعتبر مصر من بلاد المغرب، ذلك لأن هناك خلافًا حول حدود مصر الغربية. وإن كان اصطلاح المغرب يطلق عادة على كل الأراضى الواسعة والبعيدة التى تقع إلى الغرب من مصر حتى المحيط الأطلسى بحيث تنتشر بمحاذاة البحر المتوسط فى الشمال وتتوغل حتى عمق الصحراء الكبرى إلى

(٦) ياقوت الحموى : معج البلدان، ص٥٨٣.

الجنوب، ومن الواضح أن هذه الكلمة كان لها مدلول جغرافى محض يقصد به تلك البلاد الواقعة إلى الغرب من الدولة الإسلامية الأولى، غير أن تحديدها فى إطار هذا المفهوم كان عرضة للاختلاف فمرة يتناول اسم «المغرب» كل الأقاليم الغربية من الشمال الأفريقى بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأسماء الحالية [٧]، ونجد عند بعض المؤرخين والجغرافيين أحياناً أخرى يستثنى من هذا التقسيم ليبيا أو برقة (الاسم القديم) ويقتصر على الأقاليم الثلاثة تونس والجزائر والمغرب (مراكش) هذا إذا لم تتوزع ليبيا سياسياً فى بعض الأحيان بين مصر حيث تكون برقة مضافة لها وتونس حيث تكون طرابلس مضافة لها. وعلى هذا كانت برقة تتجه إدارياً إلى مصر بينما تتجه طرابلس إدارياً إلى تونس [٨].

ولقد كانت برقة وهى المعروفة حالياً باسم بنغازى تدخل داخل حدود مصر السياسية والإدارية وكذلك الحال فى العصور القديمة وخاصة فى العصر البيزنطى الذى سبق العصر الإسلامى وفى أحيان كثيرة نجد أن أقليم برقة يختفى ذكره أحقاباً متطاولة بعد الفتح الإسلامى لأن أحداً لم يؤرخ له فى حين أن تاريخ إقليم طرابلس معروف فى جملته لأنه يدخل ضمن أقليم أفريقية (تونس).

وإذا كانت هذه الكلمة قد أصبحت أكثر تحديداً الآن باشتمالها على تونس والجزائر والمغرب أو ما يعرف باسم المغرب العربى الكبير؛ فإن مدلولها التاريخى منذ القرن السابع الميلادى كان يتناول حسب ما روته مصادر المؤرخين والجغرافيين القدامى كل الأقاليم الواقعة بين مصر فى الشرق والمحيط الأطلسى فى الغرب [٩].

وعلى هذا فإنه يمكن القول أن مفهوم المغرب سياسياً يختلف من عصر إلى آخر .. فمغرب القرن الأول الهجرى يختلف عن مغرب القرن السادس الهجرى مثلاً حيث بسط الموحدون عليه سلطتهم السياسية وعلى الأندلس

(٧) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربى، ص ٣.
(٨) عبد الحميد العبادى المجمل فى تاريخ الأندلس، ص ٢٠.
(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٦٤.

وما اصطلح على تسميته بالمغرب الأقصى والمغربين الأوسط والأدنى، نعم أن المرابطين لم يسيطروا على بلاد بنى حماد أو بنى باديس الذين كانت مناطقهم امتدادا طبيعيا لمناطق المرابطين على اعتبار أن قبيلة صنهاجة عصبة واحدة تجمعهم كلهم ولكن رابطة الصنهاجية دفعتهم جميعا للتعاون أحيانا ولكن كانت تتوتر العلاقات فيما بينهم [١٠].

وعلى هذا فانه انطلاقا من التعريف للبلاد المتفق على تسميتها بالمغرب نهج فريق من المؤرخين على تقسيمها إلى أربعة أقسام وربما كان هذا التقسيم له بعد ادارى اقتضته الظروف السياسية والعسكرية فى ذلك الوقت وهى أقليم طرابلس. ثم الأدنى أو أفريقية (تونس حاليا وبعض المناطق الشرقية من الجزائر) وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الأقليم أيام الأمويين. ثم التغيرات فى النفوذ السياسى فأصبحت المهدية فى أيام الفاطميين هى العاصمة السياسية. ثم أصبحت تونس فى أيام الحفصيين، ثم ثالثا المغرب الأوسط وكانت تاهرت أشهر مدنه حيث اتخذها الخوارج الاباضيون عاصمة لدولتهم الرسمية، ثم كانت تلمسان عاصمة بنى زيان، وأخيرا الجزائر عاصمة بنى مزغنة والمغرب الأوسط يعنى حاليا الجزائر. ثم القسم الرابع وهو المغرب الأقصى ويعنى حاليا المملكة المغربية وهو الأقليم الثانى فى أقصى الولاية الأفريقية الذى يطل فى موقعه الفريد على البحر الأبيض المتوسط شمالا والمحيط الأطلسى غربا، وقد كانت بلاد المغرب الأقصى أرضا خصبة أكثر من اى أقليم آخر للأحداث السياسية المهمة اثناء وبعد حركة التوسع العربية فى هذه المنطقة ومن أشهر مدنه فاس عاصمة الأدارسة ومراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين، وأخيرا الرباط العاصمة الحالية [١١].

وإذا كانت المصادر والمعلومات العامة تعطى وصفا مضطربا عن الحدود السياسية

(١٠) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان فى محاسن الأعيان، ص١١٩.
(١١) إبراهيم بيضون: الدول العربية فى أسبانيا، ص١٤.

لهذه الأقسام ولدول المغرب هذه، وتقول أنه إذا كان الحد الغربى واضحا لأن المحيط الاطلنطى يشكل حاجزا طبيعيا لهذه التقسيمات، إلا أن الحدود الشرقية والشمالية والجنوبية تحتاج إلى توضيح أكثر، وأن كان الحد الشمالى والغربى هما الأكثر تحديدا من الحدود الشرقية والجنوبية، وأن كانت العديد من المصادر قد جعلت أقليم طرابلس وجبل نفوسة يمثلان الحدود الشرقية لبلاد المغرب فى بعض الفترات التاريخية كذلك فإننا نجد ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار يقول أن الصحراء هى الحدود الفاصلة بين أفريقيا وبلاد جنوب الصحراء وأن كانت مدينة ودان قد وردت ضمن سلطنة دولة كانم[١٢] ثم نجد العمرى يعود ويرسم الحدود بدقة حين يقول أن حد أفريقية الجنوبى هو آخر بلاد الجزيرة والأرض السواحة[١٣]. وهو بذلك يعنى منطقة الشطوط الصحراوية وهذا القول الأخرين يتفق وأقصى ما بلغه توسع صنهاجى فى أفريقية والموحدين لم يرد أنهم تجاوزوا جبل نفوسة جنوبا ولا يعرف أنهم دخلوا وركلان «ورجلان» المركز التجارى العام للتجارة مع السودان ويبدو أن قفصة كانت النهاية الجنوبية القصوى فى المنطقة الشرقية وتضطرب المصادر عن الحدود الجنوبية فى المنطقة الغربية أضطراباً شديداً لأن الصحراء كانت مهد المرابطين ومنها انطلقوا فاتحين للمغرب الأقصى[١٤] ولا يضعف القول باستقلال الصحراء عن مرابطى مراكش ما يرويه ابن عذارى عن تنظيم الجيش المرابطى لانقاذ بلنسية فى عام ٥٤٨٧ هـ/١٠٩٤م وأنه كان يتكون من العساكر المغربية والصحراوية والأندلسية فقد يعنى تعبير العساكر الصحراوية المرابطين الذين فتحوا المغرب وتعبير العساكر المغربية قد يعنى بها القبائل البربرية فى المغرب الأقصى التى لا تكون خاضعة للموحدين ومما يستوقف النظر تلك الاشارة التى اشار اليها صاحب كتاب الاستبصار بقوله «نحن الأن فى شهر رجب عام

(١٢) انظر زين العابدين السراج: دولة كانم الأسلامية رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥.

(١٣) العمرى: مسالك الأنصار ورقة٢٩.

(١٤) عز الدين موسى: النشاط الأقتصادى فى المغرب الأسلامى ص٤٢.

٥٨٧هـ/١١٩١م وكلمة التوحيد والهداية فى بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو» لأن التوحيد عند الموحدين. ذو مفهوم سياسى يعنى الخضوع للدولة الموحدية، ولكن غياب أى اشارات آخرى وعدم ذكر الصحراء فى تقسيمات الموحدين الأدارية يدعو إلى الظن بأن كلمة التوحيد هنا لا تعنى الأشارة للأسلام لأن الأشارة الوحيدة التى يفهم منها اتصال الموحدين بالصحراء نقول بأن اناسا كثيرة فى جيش غانية وعمره الصحراء اشتركت مع المنصور فى غزوة شلب عام ٥٨٥/١١٨٩م على حكم التطوع، واذا كانت الصحراء خارج حدود المغرب فأين كانت حدوده الجنوبية فى هذا الجزء الغربى ومن المرجح أن الحدود هنا يمثلها خط يمتد من سجلماسة إلى نول لمطه مرورا بباركى. فسجلماسه أقرب بلد فى جنوب مراكش إلى جهة القبلة وصلته جيوش الموحدين، كما أن مدينة اركى فى أقصى مراكش فى الطرف الشمالى للصحراء باشر عليها المرابطون نفوذهم السياسى وكانت نول لمطه أقصى مدينة ساحلية فى الجنوب أخذها الموحدون من المرابطين[١٥].

وبناء عليه فالحدود الجنوبية للمغرب فى القرن السادس الهجرى مثلا كانت تمتد من طرابلس مرورا بالسفوح الشمالية لجبل نفوسه نزولا إلى قفصة فتسير الحدود مع السفوح الجنوبية للعزق أطلس الصحراء إلى سلجماسة فاركى ثم نول لمطه على ساحل البحر (المحيط الأطلنطى) [١٦].

وأنه اذا نظرنا فى الطبيعه الجغرافية للمغرب ظهرت لنا كتلة واحدة متشابهه إلى حد كبير فى التضاريس والبيئة والمناخ وحتى فى الظروف الأجتماعية المتجانسة فهنالك سلاسل جبلية ضخمة تحيط البلاد من الغرب إلى الشرق واصلة ما بين المغربين الأقصى والأدنى حيث ترتفع فى الشمال سلسلة جبال الريف من المحيط إلى تلمسان على محاذاة سهول ساحلية ضيقة وهى جبال متوسطة الأرتفاع [١٧] وفى ذلك تحدث

(١٥) مؤلف مجهول : الأستبصار فى عجائب الأمصار ص ١١١.

(١٦) حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢٢٧.

(١٧) صلاح الدين الشامى : الوطن العربى ص ٢٢.

الادريسى عن تلمسان فيقول أن تلمسان رصيف للداخل والخارج فى المغرب، فأذن تلمسان هى المنطقة الفاصلة بين البلاد الشرقية والغربية وهذا ما يتفق والنظرة الجغرافية، إذ أن جبال ونشريس ونهر شلف الذى ينبع منها يمثلان حد تلمسان الطبيعى فى الشرق[١٨] وهذه البلاد الشرقية هى المنطقة التى بسط صنهاجو المهدية وبجاية عليها نفوذهم السياسى وما يقع إلى غربها فهو يعتبر البلاد الغربية والأختلاف بين المنطقتين فى طبيعتها الجغرافية غير قليل فعلى الرغم من أن تضاريس الارض فى البلاد الشرقية هى أمتداد لتضاريسها فى البلاد الغربية فأنهار المنطقتين تختلف أختلافاً كبيراً بينما هذه طويلة دائمة المياه فهذه قصيرة قليل مياهها وسهولها الشرقية ضيقة قصيرة بينما السهول الغربية واسعة فيحاء، وإلى الجنوب منها تمتد سلسلة جبال أطلس كجدار مرتفع متصل يصل أحيانا إلى أربعة الاف متر فتعرف هنا باطلس العظمى لأنها الجزء الأكبر أرتفاعا وضخامة من هذه السلسلة ثم يتفرع منها قسم جنوبى متوسط الأرتفاع أيضا يعرف بأطلس الداخلية أو أطلس الصحراء وقسم شمالى له نفس الأرتفاع تقريبا يعرف بأطلس الوسطى [١٩].

وعلى هذا فأن بلاد المغرب كلها تعتبر من الناحية الطبيعية الجغرافية والمناخية أقليما واحداً له خصائص ومميزات واحدة يجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميزة بعضها عن بعض وقبل الفتح الأسلامى فى عصور الأغريق والرومان والبيزنطين كان المغرب المفهوم الذى ذكرناه يعتبر وحدة سياسية واحدة وينقسم إلى ولايات كذلك قبل الفتح الأسلامى بقليل فى آواخر العصر البيزنطى كان المغرب مقتصرا فى الواقع على ما يعرف اليوم بتونس وكان يسمى فى التقسيم الإدارى أى للدولة البيزنطية باسم ولاية أفريقية أما مايلى تونس غربا فلم يكن فيه أثر واضح للسلطة السياسية

(١٨) الادريسى: نزهة المشتاق فى أختراق الآفاق، ص ٥٦.

(١٩) صلاح الدين الشامى: مرجع سابق، ص ٧.

البيزنطية وأن كان بعض المؤرخين الغربين يحاولون أن يثبتوا أن الشريط الساحلى على الأقل فى بلاد المغرب كان تابعاً ولو بالاسم للدولة البيزنطية وهذا الشريط الساحلى يمتد من الحدود الغربية لأقليم تونس إلى المحيط الأطلسى، وهو يتسع أحيانا وضيق أحياناً أخرى ولكنه فى كل حاله ينحصر بين المتوسط والصحراء الأفريقية الكبرى أو بحر الرمال الأعظم كما يسمى أحياناً وهو الذى يفصل بين بلاد المغرب والبلاد الأفريقية المدارية [٢٠].

ولا جدال فى أن هذه الطبيعة الجبلية المتجانسة لاقليم المغرب قد أنعكست على طبيعة السكان الذين عرفوا منذ القدم بصلابتهم ومهارتهم القتالية مستفيدين من الظروف الجغرافية الملائمة حيث الممرات الطبيعية والمسالك الوعرة بما يجعل الدفاع عنها أمراً ميسرا ولكل هذه الخاصية الدفاعية كما لها دورها المهم فى اطالة العمليات العسكرية التى قام بها العرب قبل أن يتم لهم فتح المغرب بصورة نهائية الأمر الذى لم يحدث فى بقية الاقطار حيث تم فتحها بغير صعوبة[٢١].

ويرى بعض الدارسين والباحثين بالنظر إلى البنية التضاريسية فى بلاد المغرب، أن قارة أفريقية تنتهى عند جبال البرانس أو تنتهى أوربا عند جبال الأطلسى وهكذا وجدت وحدة المغرب السياسية ما يدعمها من الطبيعة الجغرافية وطبيعة الأرض تؤثر فى تحديد نوع المناخ وتوزيع المياه ومن ثم فى مناطق الأستقرار والطرق التى تربطها وهكذا تتكون بلاد المغرب من سلاسل جبلية وهضاب تتخللها وديان وتمتد هذه السلاسل من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى موازية للساحل بوجه عام وتتراءى هذه السلاسل متصلة مع أنها منفصلة وعليه تحديدها فى يسر.

وقد أطلق أبن خلدون على أكبر هذه الجبال جبل درن[٢٢] (أطلس الكبرى) الذى

(٢٠) حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص ٢٩.

(٢١) إبراهيم حركات: النظام السياسى والحربى فى عهد المرابيطين ص ٤٨.

(٢٢) أبن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٦، ص ٣٠١.

يصل أرتفاعه إلى أربعة آلاف متر وقد يزيد عن ذلك فى بعض قممه ولا تمر فيه الا ممرات ضيقة مرتفعة وفى شماله تمتد جبال صنهاجة (أطلس الوسطى) وغيرها تتصل البلاد الشرقية بالغربية ممر طريف تازا الذى يبلغ أرتفاعه ستمائه متر ولا يزيد أتساعه عن كيلو متر ونصف وتحف بجبال صنهاجة هذه هضبتان شرقية وهما ميزاتا ووهران، وغربية هى ميزتا مراكش وإلى الشمال من جبال صنهاجة تقف جبال غمارة وأطلس الريف شامخة ممتدة بشدة نحو الشمال حتى تكاد تلامس البحر وعليه فسهول الساحل الشمالى طبيعية مما يميز الساحل الغربى بسهول واسعة وإلى الجنوب من درن توجد سلسلة جبلية صحراوية (أطلس الصغرى) تمتد من البحر المحيط متصلة بالعرق (أطلس الصحراوى) وجبال نفوسة(٢٤).

وبلاد المغرب أقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمرانى كبير وهى تتميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً هى جبال «أطلس هذه والتى هى سلسلة جبال تمتد من جنوب المملكة المغربية الحالية وتسير بمحاذاة الساحل وساحل الأطلسى» شمالا بشرق وأن كانت بعيدة عنه حتى قرب ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوبى منطقة الريف ثم تتجه شرقا لتتلاشى غرب تونس فهذه الجبال تقسم المغرب إلى منطقتين واضحتين تختلف كل منهما عن الآخرى كل الأختلاف وهذه الجبال تتسع فى المغرب الأقصى ويزيد عرضها فى جنوبه وتنقسم إلى سلسلتين من جبال الاطلس الأولى غربية وتسمى أطلس العليا والآخرى شرقية وتسمى أطلس الصحراء وتحصران بينهما سهل السوس الخصب وهذه الجبال تضم هضابا عالية وهى كلها جبال وهضاب وافرة المياه ولهذا فهى خضراء ومسكونة ويسميها كما سبق القول أبن خلدون جبال درن وهى تعتبر مركز المياه ومصدر العنصر البشرى الذى ظل طوال العصور الوسطى مورد القوى البشرية الحقيقية فى تاريخ المغرب الأقصى (٢٥).

(٢٣) البكرى: مصدر سابق، صفحة ١٠٠ إلى ص ٤٠١.

(٢٤) الادريسى: مصدر سابق.، ص ٦٣.

(٢٥) حمد السيد غلاب وآخرون: جغرافية العالم ج٢، ص ١٢١.

أما فى الشمال فأن جبال أطلس تسير محاذية لساحل البحر الأبيض المتوسط وبينها وبين الشاطئ شريط ساحلى سهل يضيق أحيانا ويتسع أحيانا آخرى وتتبعه السفوح الشمالية لجبال أطلس ويعتبران معا منطقة واحدة، بل أن سلاسل جبال «أطلس التل» تكاد فى البلاد الشرقية أن تلغى وجود السهول فى الساحل الشمالى وتتكون هذه السلاسل من هضاب صغيرة غير متصلة يزداد أرتفاعها كلما أتجهنا شرقا حتى تصل منتهاها عند قسطنطية والأوراس ثم تصبح كتلا متقاطعة وسلاسل صغيرة فتغدو حداً فاصلاً بين أطلس التل والساحل التونسى شبه الصحراوى(٢٦).

ويعتبر مناخ هذه المنطقة الشمالية هو مناخ البحر المتوسط وهى تسمى شطريها السهل الساحلى والسفوح الشمالية لجبال الأطلس بمنطقة التلول ويسمى أبن خلدون مناخها بمناخ التلول أى مناخ البحر المتوسط أما المنطقة النائية الجنوبية التى تضم السفوح الجنوبية لجبال الأطلس ونطاق الجريد ثم نطاق العروق أى الرمال السائلة يسميها أبن خلدون ببلاد الصحراء ويسمى مناخها مناخ الصحراء وهى أقل ثروة وسكانا من المنطقة الشمالية(٢٧).

وتختلف المنطقة جنوب أطلس التل فى جزئيها الغربى عن الشرقى، ففى الغرب توجد هضبة الشطوط التى يتراوح أرتفاعها بين الف ومائتى متر تتخللها جبال عالية مثل جبال وانشريس وهكذا لم يحجبها أطلس التل عن الامطار فأصبحت منطقة أستبس واسعة تمتد من أطلس التل إلى العرق وأطلس الصحراء فى الجنوب من وادى ملوية فى الغرب إلى نهر سلف فى الشرق وهكذا تأخرت الصحراء إلى الجنوب فى هذا الجزء الغربى بينما حجبت قمم جبال الأوراس ما خلفها فيدءات الصحراء مع سفوح

(٢٦) محمد السيد غلاب وآخرون: جغرافية العالم ص ١٤٠.

(٢٧) أبن خلدون: مصدر سابق، ج ٦ ص ١٣٢.

(٢٨) محمد السيد غلاب وآخرون: مرجع سابق ص ١٧٢ – ١٧٧.

الاوراس فتجاوز أطلس التل والصحراء التى تكثر فيها الواحات والشطوط وأتصلت الصحراء إلى مشارف طرابلس التى أحاطت بها جبال نفوسة كهلال(٢٨).

وبلاد المغرب فى مجموعها بلاد غنية إلى حد كبير، فيها موارد وافرة للثروة والمياه ولكنها تحتاج إلى أمن وأستقرار طويلين لتؤتى ثمارها لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكاء ولهذا فمن الممكن أستغلالها جيدا ومواردها تمكن من قيام دولة كبرى وحضارات زاهرة بها.

ونعود لنذكر مرة أخرى بل لنقرر أنه فى العصور الاسلامية تعود المؤرخون كما سبق أن ذكرنا أن يقسموا المغرب إلى الأقاليم التالية التى تذكرها من الشرق إلى الغرب وأن كانت قد ذكرت سابقا فى بعض الصفحات السابقة الا أننا هنا نذكرها تفصيلا لا أجمالا حتى تصبح الصورة أمام القارئ الكريم واضحة وهى:

أقليم برقة ثم أقليم طرابلس ومن هذين الأقليمين يضاف إليهما أقليم فزان وتتكون منها الجمهورية الليبية حاليا وقد كان هذا الأقليمان منفصلين أحداهما عن الآخر سياسياً خلال العصور الإسلامية فكانت برقة أما تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السياسية أما طرابلس فكانت تدخل فى نطاق ما يعرف باسم بلاد أفريقية وليس فى ذلك ما يمس وحدة القطر الليبى أو أصالته التاريخية، فأن كثيراً من أوطان العرب الراهنه تتالف من أجزاء كان لكل منها تاريخ أو أتجاه مستقل فى الماضى أى قبل تحديد وحدة ذلك الوطن فى العصر الحديث(٢٩) وان كانت فترة حديثنا تحددت بعد التبعية عن كل من برقة وطرابلس والوحدة السياسية الثانية التى تشكل أحدى وحدات المغرب الكبير وهى التى تلى الأقليم السابق غربا وكان يطلق عليها فى العصور الوسطى بلاد أفريقية وكانت فى العصور الوسطى تشمل أقليم طرابلس من تاورغا قرب صرت على ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى صيره ثم أقليم أفريقية وهو يقابل تونس حاليا

(٢٩) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٢٢.

ثم أفريقية فتشمل الجانب الشرقى من الجزائر حاليا حتى نهر صغير يسمى نهر سلف وهو يجرى هناك من الجنوب إلى الشمال حتى جنوب مدينة الجزائر ثم يسير غربا بحذاء الساحل ويصب فى البحر المتوسط قرب وهران وهذا القسم الشرقى من بلاد الجزائر الحالية كان يسمى أقليم الزاب وكان يعتبر جزءاً من ولاية أفريقية.

وبعد ذلك هناك المغرب الأوسط ويمتد من مجرى نهر سلف حتى مجرى نهر يجرى حاليا فى شرق المملكة المغربية من الجنوب إلى الشمال الشرقى ويسمى هذا النهر نهر «مولودية» والمغرب الاوسط يشمل اليوم معظم الجمهورية الجزائرية وهو أقليم هضاب وسهول وجبال بل سهول ساحلية والأراضى الزراعية فيه كثيرة لان الكثير من جباله وهضابه خضراء أو منقوشة كما يقول العرب، ثم أنه قطر معتدل المناخ لارتفاعه كثيرا وبه الغابات والمراعى وإلى هذا ينقسم هذا المغرب الأوسط تاريخا إلى قسمين شرقى ويسمى أقليم تاهرت[٣٠] ويتميز بالجبال والغابات وغربى يسمى أقليم تلمسان ويميز بالمراعى والسهول ويشتهر المغرب الأوسط بمناطقة العمرانية ذات الشخصية التاريخية المتميزة مثل أقليم القبائل شرق مدينة الجزائر الحالية وسهل المتيجه جنوبى مدينة الجزائر واقليم السيف السهلى الساحلى جنوب وهران واقليم البابور، والبيبان، والجرجر، والونشريش، وكلها أقاليم جبلية وعرة، وأقليم الجفنة وهو أقليم الجريد أى غابات نخيل يتوسط شط جريد وأقليم الهقار أو الهجار وفى الجنوب وهو أقليم صحراو.

أما أقليم تلمسان فيتميز بجباله وسهوله ومراعية الواسعة وقد كانت تلمسان مركزا حضاريا وقاعدة علمية وقد قامت تلمسان العربية على أصل حصن رومانى قديم «بور ماريا» ويلى الجزائر غربا أقليم المغرب الأقصى وهو الأقليم الأخير من جملة هذه الأقاليم الأربعة التى ينقسم إليها أدارياً أو سياسياً المغرب الكبير ويعرف المغرب الأقصى اليوم بالمملكة المغربية ويشتمل على جبال الأطلس ويضم كذلك سلسلة من السهول

(٣٠) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٢.

الساحلية بين الجبال وساحل المحيط الاطلسى وتشق هذه السهول أنهاراً أو وديان تنحدر من جبال الاطلس غرباً إلى المحيط وهى من الشمال إلى الجنوب وادى لوكس ويصب عند مدينة العرائش ووادى «سيو بمروعة» الكثيرة وقواعده الشهيرة مثل فاس ومكناس ثم وادى أبو الرقراق وأبو جرج وهو نهر مزدوج وهو النهر الذى يصب فى مصب واحد وعلى ضفته الشرقية عند المصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح وهما مدينتان توأمتان.

ثم وادى أم الربيع وقرب مصبه تقع مدينة أزمور ثم وادى تنسيفت وتقع على أحدى فروعه مدينة مراكش ثم وادى السوس الذى يجرى فى أقليم السوس الغنى وهو أقليم ذو هيئة مثلثة ينحصر بين فرعى جبال الأطلس والمحيط الأطلسى ومن اهم مدنه كارودانت تطلق أحيانا تارودانت وأغادير، ثم وادى درعة هى أقصى الجنوب وما وراء ذلك تمتد صحارى المغرب(٣٠).

ومن ناحية المناخ نقول أن مناخ البحر الأبيض المتوسط هو حار جاف صيفاً بارد ممطر شتاءاً، اذ يسيطر على البحر الأبيض المتوسط ضغط هوائى مرتفع فى الشتاء، فتهب الرياح الغربية محملة برطوبة المحيط الاطلسى ويخف الضغط صيفاً وتنتقل الرياح شمالا مع حركة الشمس الظاهرية فتسود المنطقة الرياح القبلية الجاف فتجعل الصيف جافاً حاراً ولكن مناطق المغرب تتفاوت فى تأثيرها بهذ المناخ لا حركة الرياح ودرجة الحرارة يعتمدان على تضاريس الأرض أرتفاعاً وأنخفاضاً، وما يحيط بها من مياه البحار ويحجب جبل درن بأرتفاعه السفوح الجنوبية الغربية عن الأمطار فيتجاوز فيه المناخ المتوسط والصحراوى، وتقع السفوح الشرقية لجبال غمارة فى ظل المطر يفعل هذه الجبال نفسها ومروراً بالرياح على الأرض الأندلسية حتى أن الصحراء لتكاد تصل إلى مصب نهر ملوية أو مولية(٣٢) ولا يتخلص الساحل الشمالى للبلاد الشرقية من ظل المطر

(٣١) حسين مؤنس: المرجع السابق ص ٢٣.
(٣٢) البكرى: المصدر نفسه ص ٢٤.

هذا الا قرب تلمسان حيث يبدأ المطر المتكاثر كلما أتجهنا شرقاً إلى بونة (عنابة) بفضل الأرتفاع التدريجي لتل الاطلسي والبعد عن أثر جبال غمارة والأرض الأندلسية وبعد بونة يبدأ شبه ظل مطر بجبل الساحل التونسي إلى شبه صحراء أو استبس خاصة بين صفاقس وسوسة ويمتد هذا المناخ إلى طرابلس التى جعلت جبال نفوسة والصحراء استبسا فقيرا كذلك فان أنخفاض أطلس التل فى جزئه الغربى بالمقارنة مع الجزء الشرقى وأرتفاع هضبه الشطوط عامل أساسى فى توفير مناخ أستبس رعوى فى هضبة الشطوط بينما حال أرتفاع الاوراس وهضاب أطلس التل فى الجزء الشرقى دون توفير مناخ متشابه فجاءت الصحراء مجاورة للأوراس ولم يتيسر الأستقرار إلا فى واحات الجريد ومن المفيد الأشارة إلى أن الساحل التونسى وأن كان منطقة أستبس أمطارها شتوية، فقد يسر خليج قابس لها مطرا صيفيا نتيجة مرور الرياح القبلية الجافة على مياهها [٣٣].

وعلى هذا فأن بلاد المغرب فى مجموعها بلاد مشرقة زاهرة مزدهرة ذات جمال فريد يتجلى فى أجمل صورة فى مناطق الجبال التى تتغطى بالثلوج فى الشتاء ومن هنا فقد قيل أن بلاد المغرب هى سويسرا العرب نظراً لما تتمتع به من مناخ معتدل وطبيعة خلابة جعلت العربى يصرون كثيراً على فتح هذه البلاد وضمها لرقعة الاسلام لكى تكون تلك البلاد بأقسامها المختلفة حصنا ودرعا للاسلام يدافع عن حدوده الغربية وقد كان فعلاً المغرب العربى الصخرة التى تحطمت فوقها هجمات الصليبين والأوروبين عند أنحسار المد الاسلامى عن بلاد الاندلس ومن هنا حق للفتوحات الاسلامية أن تطول وأن تتصل حتى توطدت دعائم الاسلام وقويت شوكته وصارت كتلة إسلامية ثانية تقبع على أرض أفريقية بعد الكتلة المصرية التى هى مصدر لكل هذه الفتوحات التى سنعرض لها فى الفصول التالية.

(٣٣) محمد السيد غلاب وآخرون: المرجع نفسه ص ١١٥.

الفصل الثانى

التركيب السكانى للمغرب

منذ بداية العصر التاريخى والهجرات العربية تخرج من شبه الجزيرة العربية من طريق عدة ومعابر كثيرة الى افريقيا منها طريق أو معبر باب المندب متجها الى الشمال الافريقى وبلاد المغرب كما خرجت هجرات عربية أخرى عن طريق برزخ السويس غربا الى مصر وسواحل الشمال الافريقى لذا تكونت سلالة من السكان فى الشمال الافريقى من العناصر التى هاجرت الى تلك الاقطار فى فترات زمنية وتاريخية متعاقبة وان هذه السلالات البشرية والعرقية والجنسية اختلطت فى تلك البلاد فيما بينهما بدرجات متفاوتة ولذا فاننا نجد أن الاغريق قد أطلقوا على شعوب الشمال الافريقى الذين يقطنون فى المنطقة الواسعة الممتدة من واحة سيوة فى غرب الصحراء المصرية الى ساحل المحيط الاطلنطى غربا ومن ساحل البحر الابيض المتوسط حتى وادى النيجر جنوبا،أطلقوا على هذه الشعوب لفظ البربروهو لفظ أطلقة الاغريق على الشعوب الناطقة بلغة غير لغتهم[١] لذا فقد عرف سكان المغرب منذ أقدم العصور باسم البربر ولفظ البربر هذا لا علاقة له هنا بلون البشرة وأنما هو لفظ اغريقى كان الاغريق أو اليونان يطلقونه على كل من لا يتكلم اللغة الاغريقية،فقد كانوا يسمونهم باربارى ونحن هنا فى هذا البحث قد نجد أن اطلاق هذا الاسم على سكان المغرب بأسم بربر لا ينطبق كما صور كذلك الكتاب على كل شعب لا يتكلم لغتهم الاغريقية والالماذا لم يطلقوا اسم البربر على سكان مصر وسكان بلاد الشام على الرغم من أن الاغريق والرومان والبيزنطيين قد بسطوا سيادتهم على بلاد المغرب والشام ومصر لذا نجد أنفسنا فى النهاية نأخذ بهذا الاسم على سكان المغرب البربر فقط لاتفاق الآراء على تلك التسمية.

---

(١) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية والأفريقية فى العصور الوسطى ص ٦٤.

وان كان المصطلح العربى هو الاصح عن الاغريق ذلك لان العرب على عادتهم كانوا دائما يحاولون ان يجدوا أصلا عربيا لكل لفظ أو علم جغرافى فيقولون أن البربر من أولاد مهاجر عربى الاصل من حمير يسمى بر بن قيس ويقال أن هذا الرجل عندما هاجر الى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس الذين يقطنون تلك الاماكن فسماها بربرة (المكان) ويسمى الناس الذين يتكلمون هذه اللهجة البربر،أما الحقيقة فهى أن البربر شعب افريقى سكن هذه البلاد من اقدم العصور واليونان هم الذين سموه بالبربر وعنهم أخذ اللاتينيون ثم العرب هذه التسمية، اما البربر انفسهم فلا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم [٢].

ولقد طور الرومان هذا اللفظ البربر الى مفهوم سياسى وحضارى بمعنى الشعوب الادنى منهم مرتبة وحضارة ويعيشون فى معزل عن الحضارة الرومانية العالية وأطلقوا على جميع البلاد التى خرجت عن طاعة الروم اسم «باربار يكوم» أى بلاد البربر وهكذا عمت البربرية عندهم كل ما ليس رومانيا أو يونانيا ويؤكد هذا القول أنه لا يعرف فى تاريخ السلالات البشرية عامة أن هناك جيلا من الناس يعرف باسم البربر [٣].

وهنا يتبادر لنا سؤال عن سكان المغرب عشية اندلاع موجة الفتوح العربية الاسلامية وانتشارها الى افريقية وفى الواقع أن المغرب بسكانه يمثل وحدة متجانسة بالاضافة الى وحدته الجغرافية وقد جاء ذلك ثمرة التغيرات السياسية التى كانت تجرف فى طريقها هذه المنطقة وتطبع عليها بصماتها الواضحة فالمغرب ارتبط بالصراع الشهير بين روما وقرطاجة أو ما عرف بالحروف البونية (٢٦٤ق.م-١٤٦م) والتى انتهت بتدمير قرطاجنة ومحوها من الوجود فخضع المغرب منذ ذلك الحين للحكم الرومانى كغيره من الاقاليم المطلة على

---

(٢) ابن خلدون : مصدر سابق ج٦ص٩٤.

(٣) محمد محمد أمين : نفس المرجع، ص٦٥.

البحر المتوسط واكتفى الرومان بأنشاء مناطق عسكرية محصنة على الشريط الساحلى الا أن التقدم نحو الداخل حيث السكان الاصليين من البربر لم يكن سهل المنال .

وقبل أن نتحدث عن طبيعة هؤلاء السكان وظروفهم الحياتية واختلافاتهم القبلية يجدر بنا الاشارة الى أن مناطق الشمال من المغرب قد مرت عليها شعوب عديدة منذ خضوعها للرومان حتى مجئ العرب ففى أعقاب الخلل الذى اصاب مؤسسات الامبراطورية وانقسامها الى امبراطورتين احداهما فى الشرق اتخذت من القسطنطينية مركزا لها والثانية ظلت فى روما العاصمة القديمة حيث شهد القسم الغربى منها اهتزازات داخلية عنيفه منذ مطلع القرن الخامس الميلادى بدأت باقتحام جحافل البرابرة من الجرمان والاسيوين والذى يهمنا من هذه الافواج المتبربرة التى انتشرت فى الاجزاء الغربية لامبراطورية الرومان بشكل خاص،تلك التى امتد تأثيرها على سواحل المغرب لاسيما الوندال الذين قنعوا من نصب التطاحى على الامبراطورية بالسيطرة على اسبانيا حتى مجئ القوط الغربين فطردوهم منها واضطروهم الى اجتياز المضيق«مضيق جبل طارق» والهروب الى الضفة الاخرى حيث سيطروا على المناطق الساحلية الممتدة من طنجة غربا الى طرابلس شرقا [٤] .

أما سكان الشمال الافريقى الذين أطلق عليهم الاغريق والرومان اسم بربر وتوارثت الاجيال هذا الاسم وظل قائما يشهد بذلك الاسم حتى الوقت الحاضر،فهؤلاء السكان كانوا يطلقون على انفسهم اسم أمازيغ وهذه الاسماء تعنى فى لغتهم الاحرار أى انهم كانوا يطلقون على أنفسهم شعب الاحرار،وهو يكاد يكون هو نفس الاسم أو الترجمة للفظ الذى أطلقه قدماء المصريون على أنفسهم [٥] .

وقد كان على هؤلاء الاحرار أن يدعوا منطقة الساحل مرة آخرى ويتركوها نهائيا

---

(٤)عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ص٧١.

(٥) أحمد صقر : مدنية المغرب العربى فى التاريخ ص٣٤.

للوندال مرة أخرى حيث قاموا بأخلاء تلك الانحاء لهؤلاء الغزاة الذين عرفتهم تلك المنطقة من البحر المتوسط بأنهم أكثر شعوب الجرمان صلابة وجرأة ولكن ذلك لم يتجاوز القرن من الزمان اذ أننا نجد أن البيزنطيين قد استعادوا المغرب من ايدى الوندال عام ٥٣٤م حيث عادت السيطرة على المغرب الى دائرة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت تحمل اسمها الشرقى وهو الامبراطورية البيزنطية وتلك هى صورة الوضع البشرى بشكل عام فى المغرب قبل الفتح العربى حيث كان سكان الداخل من البربر وهم الغالبية العظمى وسكان السواحل الذين كانوا أصحاب الغلبة والنفوذ تبعا للمتغيرات السياسية التى كانت تمر بها المنطقة بين الحين والاخر،اذا تأملنا جيدا تركيب السكان فى تلك الفترة المتدفقة بالاحداث السزيعة لوجدنا العنصر البربرى هو الغالب فى بلاد المغرب [٦].

وعندما جاء المسلمون الى شمال افريقيا حافظوا على التسمية ولم يغيروها لذيوعها وانتشارها وكما اختلف المؤرخون المحدثون فى أصول البربر اختلف ايضا المؤرخون العرب فى هذه الاصول وعذرهم فى ذلك المدى الزمنى الطويل الذى مر على سكنى الانسان للشمال الافريقى وان كان بعض هؤلاء المؤرخين قد فطنوا الى العلاقة القوية التى تربط شعوب الشمال الافريقى بالعرب وخاصة عرب جنوب الجزيرة العربية فالكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى شبه جزيرة العرب وما يليها من الاقطار كثيرا ما يشير بعضهم الى البربر من سكان افريقية الشمالية بأن لهم صلة نسب قديمة بالعرب وأن بعض قبائلهم ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات أصل يمنى [٧] والواقع أن سبيل الهجرة من شبه جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده لم يكن ضعيفا ولا نادرا بل كان قويا دائما ومتصلا على مدى القرون.

وينقسم البربر الى قسمين كبيرين بحسب اسلوب الحياة والطابع الحضارى وهم

(٦) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص١٧.

(٧) محمد محمد أمين : مرجع سابق،ص٦٥.

البربر البدو ويسمون بالبتر فأما البربر الحضر أى البرانس فأصلهم من سكان البحر المتوسط وهم يشبهون فى ملامحهم سكان الاندلس وسكان جزائر البحر المتوسط وتنتشر بينهم شقرة الشعور وبياض اللون وزرقة العيون وخاصة بين أهالى الجبال هذا الفرع من البربر هو اصل البربر وهم الاقوام الذين سكنوا هذه البلاد منذ أقدم العصور اما فريق البربر الآخر وهم البتر فهم قوم جدد نسبيا اقبلوا من الجنوب وفى الغالب من الجنوب الشرقى من قلب القارة الافريقية عن طريق وادى النيل وقد نزلوا اولا اقليم برقة ثم أنتشروا غربا وهم جنس افريقى أسمر البشرة اختلطوا بالسكان الاصليين ومن اختلاطهم نشأ الجنس البربرى الذى استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح فى اسم العروبة وهو يجمع فى تكوينه الاصول الثلاثة التى تكون منها (٨).

واذا كان من الصعب تتبع صلة النسب القديمة بين العرب القدماء وسكان الشمال الافريقى منذ عصور ما قبل التاريخ،فانه ليس من الصعب أن نتابع آراء علماء اللغات فى العصور الحديثه وذلك فيما ذهب اليه هؤلاء العلماء من أن لغة البربر واللغات السامية تمت كلها الى اصل واحد وقد سماها هؤلاء العلماء المجموعة الافروسيوية،وعلى هذا فأنه لن تكون القرابة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شئ من القرابة الروحية بين سكان الشمال افريقيا وبين العرب (٩).

وقد عاش البربر فى بلادهم هذه قرونا متطاولة فى القدم قبل الفتح العربى الاسلامى ولهم تاريخ وحروب مع الاغريق والرومان خاصة ودارت حروب طويلة بين بعض جماعتهم والرومان وظهر من بينهم ابطال قوميون وعلى هذا كانت هناك علاقة للرومان وبعدهم الروم أوالبيزنطيين بصفة خاصة مع بربر الساحل والسفوح الشمالية لأطلس ونادرا ما توغل الرومان الى داخل البلاد حيث الاقاليم الجنوبية من المغرب وذلك فيما عدا اقليم

---

(٨) إبن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص٣٤.

(٩) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية، ص٣٣٨ .

افريقية«تونس»وهو سهل فسيح كما تعلم،يرويه نهر كبير نسبيا هو نهر «مجردة» فمنها أوغل الرومان ثم الروم الى الداخل [١٠].

وعلى هذا فأن صلة القرابة الجنسية والروحية بين العرب والبربر صلة قديمة ذلك لأنه تأسيسا على كل ما تقدم من أقوال تستطيع القول أنه من متابعة الانسان فى الشمال الافريقى سواء فى عصور ما قبل التاريخ أم فى العصور التاريخية نستطيع أن نقول أنه منذ عصور ما قبل التاريخ ولالاف السنين تبادلت منطقة الشمال الافريقى،الهجرات مع منطقة شبه الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب فى بادئ الامر ثم اضيف الى ذلك برزخ السويس أيضا فى فترات تاريخية لاحقة وعليه فأنه من المؤكد أن هناك صلات عرقية وجنسية وسلالية بين البربر والعرب منذ العصور القديمة .

وعلى هذا فان سكان المنطقتين يرجعون الى أصل واحد،وهذه الهجرات التى تعاقبت على مر السنين كان جزء منها قبل الاسلام وجزء آخر بعد الاسلام ومن هنا فأن عروبة الشمال الافريقى مرت بمرحلتين أساسيتين مرحلة ما قبل الاسلام والتى تمثلت فى الهجرات المتعاقبة والمتبادلة ومرحلة ما بعد الاسلام والتى تمثلت فى الهجرات العربية الى الشمال الافريقى والتى حملت معها الدين الجديد واللغة العربية الجديثة .

وهذه هى صورة الوضع البشرى بشكل عام فى المغرب قبل الفتح العربى سكان الداخل من البربر وهم الغالبية العظمى وسكان السواحل الذين كانوا عادة أصحاب الغلبة والنفوذ تبعا للمتغيرات السياسية التى كانت تم بها المنطقة بين الحين والاخر واذا تأملنا جيدا تركيب السكان فى تلك الفترة المتدفقة بالاحداث السريعة لوجدنا هنالك نوعين من السكان.

وهما اولا العنصر الوافد من البيزنطيين الذين ورثوا ممتلكات الرومان تقريبا على

---

(١٠) عبد الفتاح الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان ، ص١٧–ص٢٠ .

سواحل البحر المتوسط من هذه المنطقة،وقد ساروا على خطى أسلافهم فى أقامة قواعد بحرية محصنة فكان تواجدهم على ارض المغرب تواجدا عسكريا بصورة خاصة ولهذا كانت نسبتهم العددية ضئيلة بالمقارنة مع سكان الداخل،ثم كان هؤلاء البربر وهم السكان الاصليون الذين عرفوا بالبربر وكانوا يمثلون الاغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد(١١) وعدا هاتين الفئتين الاساسيتين فقد عرف المغرب عناصر أخرى غير واضحة هويتها بالتحديد وأن كان المؤرخون يسمونها الافارقة وهى على ما يبدو خليط من سكان السواحل الاقدمين ومن بعض الشعوب المستعمرة وكانت هذه العناصر تخضع مباشرة للحكم البيزنطى (١١) .

ولقد كان يجب علينا فى تلك الدراسة أن نتساءل عن هوية هؤلاء البربر والذين كما سبق أن ذكرنا أنه كانت هنالك اختلافات عديدة فى تحديد المفهوم الدقيق لهذه الكلمة والتى فى صورتها ماذا تعنى،ومن الذى أطلقها على سكان المغرب ومن هم البربر فى نهاية الأمر وهذه التساؤلات التى نطرحها هنا لابد آن تواجه الباحثين الذين يتوقون لدراسة تاريخ المغرب وبصفة خاصة الذين يتابعون تاريخ البربر قبل الفتح الاسلامى العربى لتلك البلاد وذلك لمحاولة استقراء منابعهم الاولى ومن أين جاءوا،وان كان ما يتبادر الى الذهن هو البعد اللفظى للكلمة،اذ يبدو أن لها مدلولا عاما يرتبط على الارجح بالعناصر الغريبة التى اجتاحت امبراطورية الرومان وكان لشواطئ المغرب نصيبها من هذه الموجات التى عرفت بالبربر وأن كان كما سبق أن ذكرنا أن اول من أطلق هذا الاسم على سكان المغرب هم الرومان شأنهم شأن بقية العناصر التى اعتبروها غير متحضرة و تتكلم لغة غير مفهومة (١٢).

أما أصل البربر فلا يزال هناك غموض يحيط اجمالا بتارخهم القديم؛ فعلماء

.(11) Julien, A. : Histiovre de l"afirque du Nord. P37

(١٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، ص ٢٤ .

الانساب غير متفقين على تحديد هوية معينة لهم ؛ بعضهم يعتقد أنهم ينحدرون من اصول حامية والاخر خاصة النسابون العرب يعتقدون بل أنهم يرجعون أنتسابهم وارتباطهم بالساميين[١٣] فضلا عن هؤلاء الذين اعتمدوا التفسير التقليدى والشائع لدى بعض مؤرخى العرب الاقدمين وهو الاعتقاد بانهم ينسبون الى البربر أحد أجدادهم مقارنة بأنساب العرب بعرب بن قطان [١٤].

وكما اختلف المؤرخين وعلماء الاجناس على هوية البربر اهى حامية أم سامية أم خليط من الاثنين فقد أختلفوا كذلك على المصدر الذى جاءت منه هذه الجماعات الى المغرب،فمنهم من يعتقد أن البربر وفدوا من أسيا فى وقت مبكر ومنهم من يزعم انهم أوربيون فى الأصل استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة فى القدم [١٥].

واذا كان المؤرخين يختلفون حول رأى نهائى فى مسألة الانتماء العرقى والجغرافى للبربر فأنهم متفقون بشكل عام على تصنيفهم الى مجموعتين كبيرتين لكل منهما نمط حياة متميز مرتبط بعوامل اجتماعية معروفة وكما سبق أن أشرنا ايجازا الى مجموعتين الأأننا هنا سوف نفضل هاتين المجموعتين حيث تكون المجموعة الأولى من البربر وهو التى عرفت باسم البرانس وهذا الأسم يطلق على مجموعة البربر المستقرين فى الاراضى الخصبة والمدن حيث يمارسون الزراعة كمهنة رأسية فهم بجانب أنهم يمارسون أعمالا حرفية مختلفة وهؤلاء قد نالوا نصبا من التطور بفضل اتصالهم بالشعوب الأخرى سواء التى كانت لها روابط فى المغرب أم المستعمرة التى اتخذت من السواحل مقرا لها ومن اطلق على هذه المجموعة اسم البربر الحضر كذلك فان المجموعة الثانية التى عرفت بأسم البربر

---

(١٣) مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والأندلس، ص ٢٢٣ .

(١٤) ابن خلدون: مصدر سابق، جـ ٦ ص ٩٤ .

(١٥) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٩ .

البتر وهؤلاء سكان البوادى الرحل الذين احترفوا الرعى والاعمال الاخرى التى يعتمد عليها البدو عادة من الغزو والاغارة على مناطق الحضر وغير ذلك [١٦].

ولما كانت طبيعة التضاريس الجغرافية لمنطقة شمال افريقيا تفرض على بعض سكانها العزلة عن البربر البتر واحتفاظهم بلهجتهم القديمة واحوالهم المعيشية ومن هنا اطلق عليهم الاوربيون اسم البربر الا اننا نرى هنا ان تطلق على هذه الجماعات اسم عرب ما قبل الاسلام ايمانا بعروبتهم الاصلية الى عرب جنوب شبه الجزيرة العربية سواء الى ساحل عمان أو الى اليمن وغيرهم من السلالات العربية التى هاجرت الى الشمال الافريقى بعد الاسلام والتى اختلطت مع الجماعات السابقة نتيجة للبعد التاريخى من ناحية ونتيجة للظروف الجغرافية التى سادت منطقة الشمال الافريقى وعزلت هذه الجماعات الى حد ما وأختلفت هذه الجماعات حتى فيما بينها بأختلاف بيئة كل منها [١٧].

ومن هنا فأننا نجد بعض المؤرخين يميل الى تفسير هاتين الكلمتين«البرانس–البتر» تفسيرا له علاقة بالزى الرسمى القومى للمغاربة وهو البرنس الذى لا يزال سائدا حتى اليوم،وقد اعتقد احد المستشرقين ومعه فريق من المؤرخين العرب أن بربر البرنس أو الحضر كانوا يرتدون البرنس وهو لباس أبيض عادة يغطى الجسم من الرأس حتى القدمين بينما أعتاد البربر البتر البدو على الظهور بهذا الزى مبتورا من دون غطاء الرأس كما يفعل البرانس ويسمون بالبتر [١٨] ولا يعرف مدى الحقيقة وراء هذا التفسير الذى لا يخلو من الطرافة كما يشير الى ذلك الدكتور أحمد مختار العبادى فى كتابه المجمل فى تاريخ الاندلس،ولا نعرف صحة النظرية التى تقول أن البرانس والبتر يمثلان عرقيا فئتين

---

(١٦) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير، ص ١٣٣ .

(١٧) محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ١٦ .

(١٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ١٩ .

مختلفتين الوافدة والعناصر الأصلية والرأى الارجح أن انقسام البربر يمكن وراءه عوامل اجتماعية أكثر من أيه عوامل أخرى وبناء على ذلك فسيعد الاختلاف العرقى بين المجموعتين هو القائم والاصح (١٩).

ويبقى إن نشير الى آن اهم القبائل التى لعبت وشغلت ادوارا هامة وتاريخ البربر والمغرب عامة هى قبائل البرانس(صنهاجة) التى انتشرت على مساحة كبيرة من الاراضى بين المغربين الادنى والاقصى وقبائل مصمودة وأوربة وكتامة وعدد آخر بلغ نحو عشرة فروع كما يورد ذلك المختصون بتاريخ البربر،إما البتر فيتوزعون فى أربع قبائل كبيرة وهى لواتة وأداسة وخربة (تفرع منها مكناسة وزناتة ونفوسة) .

وهكذا فان المغرب بظروفه السياسية وقبائله التى ميزت فيها فوارق اجتماعية واقتصادية ظاهرة أدت الى تكتلها فى مجموعتين كبيرتين لكل منها مصالحها المتناقضة مع الاخرى وكثيرا ما ينصب العداء الضارى بينهما واستفحل الصراع واستمر دون أن تخفف من حدته السنون واذا بالبربر تصلهم أنباء تحركات عسكرية تطرق أبوابهم هذه المرة من الشرق وذلك فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى وهكذا بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البربر وبأ المغرب وتاريخه يأخذ بعدا جديدا وفصلا من فصول التاريخ الاسلامى (٢٠).

وهذه القبائل البربرية سبق أن ذكرنا انها تنقسم الى قبائل بترية بدوية أو نصف بدوية وقبائل برنسية حضرى او نصف حضرية وأكبر قبائل البدو وأشهرها رنانة ولهذا غلب عليها هذا الاسم العام رغم تفرعها الى اجذام كثيرة، أما البرانس فلا تغلب عليهم تسمية واحدة

(١٩) حسن محمود: قيام دولة المرابطين، ص ٢١ .

(٢٠) عبد العزيز سالم: مرجع سابق، ص ١٣٨٠ .

لأنهم شعوب ضخمة لكل منها مواطنه وتاريخه واشهر جماعتهم كتامة فى شمال شرق المغرب الاوسط وعلى اكتافهم ستقوم الدولة الفاطمية ثم صنهاجة المغرب الاوسط الذين يشاركون فى أقامة الدولة الفاطمية وسيقومون اولى الدول المغربية الاسلامية المستعربة وهما دولتا بنى زيرى ابن مناد ثم صنهاجة الصحراء الذين سيقيمون دولة المرابطين ثم مصمودة أهل المغرب الاقصى وهم شعب مغربى جليل أقام دولة الموحدين ودولا أخرى عظيمة ولهم فروع كبيرة أخرى وقد تعلم نسابة البربر من العرب علم النسب ونظموا قبائلهم فى شجرات انساب شبيهه بشجرات الانساب العربية (٢١).

وقد كان العرب هم أول من دخلوا بلاد المغرب وجرأوا على اقتحام جبال الاطلس وما يليها جنوبا ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة ، وعندما دخل العرب وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون فى قبائل قريبة الشبه من قبائلهم العربية فى تنظيمها واحوالها الاجتماعية القائمة على التقسيم القبلى وأن كانت تختلف عنها فى المستوى الحضارى ولذا وجد العرب اخواتهم البربر يعيشون فى قبائل بدوية على الفطرة وأن كانت متماسكة ولهاا نظام اجتماعى قويم (٢٢) .

وما دام الامر يتعلق بالتركيب السكانى لبلاد المغرب ونحن ندرس تاريخها العربى الاسلامى وبعده حديثا عن قبائل البربر فأن الأمر يقتضى هنا فى تلك الدراسة الحديث عن التركيبة السكانية لبلاد المغرب بما فيها كل القبائل ما دام ذلك فى نطاق تلك الحقبة التاريخية التى ندرسها ومن ثم لابد من الحديث عن البربر بصفة خاصة وغيرها من القبائل الأخرى كالعربية والأفريقية بصفة عامة مادام هؤلاء يشكلون جزءا من تاريخ

---

(٢١) المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص ١٢٧ .

(٢٢) الجيلالى: عبد الرحمن بن محمد: تاريخ الجزائر، ص ٢٥ .

المغرب السياسى والحضارى والاجتماعى .

وهكذا نجد أن العناصر المستقرة فى المغرب قد تنوعت وتعددت فنجد منها البربر والاندلسيين والعرب وأهل الذمة اليهود والنصارى والافارقة وغيرهم من العناصر الاخرى القليلة العدد،وكما سبق أن أشرنا فان البربر كانوا أكثر سكان المغرب عددا وأكثرهم انتشارا فى بيئات المغرب الاربع فضلا عن آن الشمال الافريقى كان موطنهم الأصلى لذا فقد قاموا فيه بالدور الرئيسى فى الحياة الاسلامية منذ الفتح العربى الاسلامى فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) فتغيرت مواطن الكثيرين منهم وتبدلت احوالهم .

وعلى هذا فأننا نجد أن المؤرخين العرب القدماء كما قسموا سكان العالم العربى الى المشارقة وهذا الاصطلاح يشمل سكان العراق والشام والجزيرة العربية والمغاربة وهذا الاصطلاح يشمل العالم العربى فى الاقطار المغربية مثل برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى والاندلس وفى الارجح كما سبق أن سبق أن ذكرنا فإن هذا التقسيم لم يشمل مصر التى أخذت بنصيب من الطائفتين وكانت بمثابة حلقة الاتصال ولذا لم يكن غريبا بعد أن اتسع العالم وانتشر الاسلام الى شواطئ المحيط الاطلسى أن يشير المنؤرخون الى جناحة الشرقى وجناحة الغربى وهذا الاتجاه يؤكد على كل حال الصفة العربية الخالصة لهذا الاقليم العربى العظيم والذى ظهرت فيه شعوب فى التاريخ القديم بأسماء مختلفة وغشيته الحضارة الفينيقية وهى ذات الصلة الوثيقة بالثقافة الساميةة فترة من الزمن والتى كان لها دور بارز وواضح فى نشر السلالة العربية القديمة فى المغرب و سواحل بلاد الشام والتى خرجت فى الاصل من الجزيرة العربية ومن هنا فأن سكان المغرب قبل الفتح الاسلامى هم احفاد الفينقين الذين نشروا حضارتهم على ساحل الشاطىء المغربى وبذلك ينضح عمق الجذور العربية فى بلاد المغرب قبل الرومان والبيزنطين وما البربر ان هم الا

(٢٣) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقة، ص ٣٣٧ .

عرب الشام الاقدمين ثم الم يكن الفنيقين هم الذين وسلوا من شواطئ لبنان والذين كانوا فى الاصل قبائل عربية نزحت من شبه الجزيرة العربية ومن حوالى ١٦٦٠ سنة قبل الميلاد وصلوا الى شواطئ تونس حيث أقاموا المدن وآنشأوا مجموعة من التحصينات فى شكل قلاع فى منطقة الممر البحرى المنحصر من ساحل تونس ومداخل جزيرة صقلية وذلك قبل ان تدخل أى دولة فى هذة المنطقة،فلماذا يقول الاوربيون أن أصل البربر غير عربى وما هى اصول الفينقين ومن اين جاءوا ولكن هل تأثيرها على الشاطئ فقط ثم توسعوا ونشروا ثقافتهم الفينقية حتى حلت بعدهم جماعات الوندال [٢٣].

وقد تركت هذه التجارب كلها أثرا فى حضارة أقليم المغرب وثقافته الى أن جاءت الفتوح العربية الاسلامية فى القرن السابع والثامن الميلادى الأول والثانى الهجرى،فاذا العروبة تزدهر واذا الثقافة الاسلامية تنتشر واذا العلوم العربية الاسلامية يرتفع لواؤها وتثبت قواعدها كأحسن ما نجده فى أقطار المشرق العربى [٢٤] ذلك لانه ما أن تم للعرب المسلمين تحرير مصر من الحكم البيزنطى حتى اتجهوا الى أقطار المغرب،وذلك لانهم رأوا فى القضاء على البيزنطين فى الشمال الأفريقى ضرورة حربية وقد أعلن العرب بعد انتصاراتهم على البيزنطين أنهم يعملون على استمالة سكان الشمال الأفريقى وهم عرب ما قبل الاسلام والذين عرفوا باسم البربر، فكلا الفريقين وجد فى الآخر تشابها كبيرا فى كثير من الصفات والعادات فالنظام القبلى أساس الحياة الاجتماعية وحب الحرية والشجاعة وخشونة الطبع من الصفات الاصيلة فيهم وكان هذا التشابه من العوامل التى مهدت لاقتباس البربر لكثير من عادات وتقاليد العرب وبذلك خطا البربر أول خطوة على الطريق نحو العروبة الصريحة بدخولهم الاسلام واصطناع لغتهم وثقافتهم [٢٥] وهكذا يكون العصر الاسلامى واضحا كل الوضوح فى تاريخ المغرب، اذ أنه لا شك هى المسائل التاريخية التى

---

(٢٤) الدباغ: عالم الايمان، جـ ١، ص ٤٤ .

تفتقر الى ايضاح أن هذا الاقليم من شمال افريقيا ظل بمعزل عن سيل الحضارة برغم مجارته للرومان الى أن أظلته راية الاسلام ونور القرآن بالفتح العربى الاسلامى فأصبح من الأقطار الممتازة بنتاجها العقلى والفنى وأبدت فى ذلك تفوقا وامتيازا وأصبحت فيه مراكز للثقافة والعلوم الاسلامية.

وعلى هذا فان هذا الانتعاش الثقافى فى العهد العربى الاسلامى دون ما سبقه من العهود ربما كان من أسبابه قرابة السلالات أو أنواع من القرابة الروحية،ذلك ان الكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى جزيرة العرب وما يليها من الأقطار كثيرا ما يشير بعضهم الى أن البربر من سكان أفريقية الشمالية ان لهم نسب قديمة بالعرب [٢٦].

وعلى هذا فلن نكون متسرعين فى القول اذا ذهبنا الى ان سبل الهجرة من جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده لم يكن ضعيفا ولا نادرا، بل كان قويا ومتصلا على مدى القرون،ويقول الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه «الشعوب والسلالات الأفريقية»،أنه فى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نصحح ما ذهب اليه سلجمان فى كتابه«السلالات البشرية فى أفريقيا» فى أن معظم سكان شمال افريقية باستثناء ليبيا من البربر المستعمرين وان العنصر العربى فيهم قليل وهو يستثنى ليبيا لأن الطبيعة الصحراوية أكثر ملاءمة للعرب البدو وهو يخطئ خطأ مزدوجا لان فى العرب من عرف الزراعة والاستقرار وفى البربر من عاش عيشة البداوة والرعى [٢٧].

ولا شك على كل حال أن ليبيا بلد عربى ومعظم سكانه ينتمون الى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتداد لما نجده فى الجانب المصرى فى ليبيا حيث نجد الفروع

(٢٥) محمد محمد أمين: مرجع سابق، ص ١٦ .

(٢٦) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشا، جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٢٧) محمد عوض محمد: مرجع سابق، ص ٣٣٩ .

الشرقية فى تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا الى نهاية طرابلس وفى وسط هذا البحر الخضم من العروبة قد نجد بعض الجزر ذات الثقافة البربرية حتى داخل حدود مصر نفسها حيث نجد ذلك فى واحة سيوة،وكذلك فى واحة أوجلا الليبية وغيرها من الواحات فى ليبيا بقية من السكان الذين لهم لغات أو لهجات بربرية، واذا انتقلنا من ليبيا الى تونس وجدنا قطرا يمتاز بالثقافة العربية وليس فيه بقية من اللهجات البربرية الا فى الأطراف الشمالية الغربية ولا يزيد من يتكلمون تلك اللهجه عن ١.٥ ٪ من سكان البلاد كلها، ولقد كانت هجرة القبائل العربية الهلالية من الاسباب المباشرة التى زادت فى عروبة تونس ويكون من الخطأ الزعم ان سكان تونس من البربر وأنهم استعربوا نتيجة الزحف الهلالى، حيث أن الزحف العربى سابق للهلاليين بعدة قرون وعلى هذا فاننا اذا أمضينا غربا نحو الجزائر انتقلنا الى أقطار تزيد فيها نسبة المتكلمين باللغة البربرية الى نحو ٦ ٪ وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة،وفى نهاية الاتجاه الغربى المملكة المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى وهنا نجد نسبة المتكلمين باللهجات البربرية يقرب من ٨.٥ ٪ أما جاء فى كتاب سجلمان عن اجناس أفريقيا فى أن ثلثى سكان المغرب يتكلمون لهجات بربرية فانه ضرب من الوهم وسبب ارتفاع نسبة المتكلمين بالبربرية فى المغرب وجود أقاليم جبلية عالية هى جبال الاطلس الشهيرة التى تشتمل على مساحات واسعة منعزلة فمن المعقول الا تسهم هذه الجهات فى حركة التطور السكانى للبلاد،وفى العصور الحديثة وفى فترة الاستعمار الفرنسى،فقد كان رجال الاستعمار الفرنسى وساسته حريصين على التفرقة بين العرب والبربر، ولكن عدم وجود فروق تميز بين البربر والعرب حال دون نجاح هذه السياسة الاستعمارية [٢٨].

كما انه ليس من السهل اثبات التفرقة بين الحامين والسامين وكذلك الحال فى الحاميين الشمالين وعرب المغرب لا يستطيع المرء من الصفات الطبيعية التى توجد بينهما

---

(٢٨) محمد عوض السيد: الاستعمار . أساليبه ومذاهبه، ص ٦٨ .

ان يتبين أو يفرق أحدهما عن الآخر وعلى الرغم من ان الحامين من شرق افريقية يمتون بصلة النسب الى البربر أو الحامين الشماليين ومع أنه يحق لنا أن نتوقع تشابها فى الملامح الاساسية للفريقين غير أنه لابد لنا أن نحسب للبيئة حسابها ونأخذ بعين الاعتبار الموقع الجغرافى لكل ذلك لان الموقع الجغرافى بالنسبة للحامين الشرقين يجعلهم فى شبة عزلة الا بالنسبة لاقرانهم العرب فى الجزيرة العربية شرقا وبعض القبائل الزنجية فى الجنوب،أما أهمية الموقع بالنسبة للبربر فأنه أقليم بعيد عن العزلة ملاصق لأوربا عند جبل طارق بما يساعد على الاتصال كما حدث فى عصور التاريخ وما قبل التاريخ بشبه جزيرة ايبريا (الاندلس) وما وراءها والبحر المتوسط يختلف عن الأحمر بانه طريق مزدحم بالحركة البشرية، وفى جنوب بلاد المغرب جهات صحراوية كانت يوما ما سكنا وبعض سكانها ينزح دون شك نحو الشمال،كذلك لم يكن المؤشر الزنجى منعدما سواء جلبه الجبلايون أو جاء مجندا فى جيش يقوده بعض القادة من سكان منطقة السافانا (٢٩).

ولقد كان البربر كما سبق أن قلنا عرب ما قبل الاسلام فأنه بانتشار الاسلام فى بلاد المغرب،فأن العرب قد انساحوا فى تلك الاصقاع مع الفتح الاسلامى فى مدن المغرب دون أن يختلطوا بالبوادى ولن كان ذلك قد تم مع نهاية القرن الثانى الهجرى حيث اختلط العرب بالبربر اختلاطا مباشرا فى كل أنحاء البلاد، وقد تضاعفت أعداد العرب فى أواخر خلافة بنى أمية الشرقية(دمشق) لما حاول الاميون قمع ثورات البربر ونشر الاسلام بينهم (٣٠) ولما قامت الدويلات الاسلامية المغربية المستقلة فى القرن الثانى الهجرى فى افريقية(تونس)وتاهرت وسجلماسة وفاس استقطبت عناصر شرقية،بيد أن هذا الاستقطاب وتلك البعوث العسكرية وجموع الفقهاء لم تؤثر فى البادية من حيث التركيب السكانى حتى أن المصادر حتى أوائل القرن السادس الهجرى لتحرص على ذكر المدن الصغيرة فى الارياف أن كانوا أخلاطا وان لم يفلح العرب فى تغير سكان البادية فى بلاد المغرب

(٢٩) محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية، ص ٣٤١ .

(٣٠) المالكى: رياض النفوس، ص ٦٢ .

وأريافة الا بعد القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى وذلك أثر الغزوة الهلالية وبفضلها انتشر العرب فى البوادى والقرى حيث تغير وجه المغرب العربى بصورته العربية الغالية من منصف القرن الخامس الهجرى،الحادى عشر الميلادى الى منتصف القرن السادس الهجرى،الثانى عشر الميلادى [٣١].

ولقد كانت الغزوة الهلالية تتكون من قبائل بنى هلال وبنى سليم اللذين صيغوا وجه الحياة العربية فى المغرب الاوسط بالصيغة العربية ومع الفتح الموحدى بدأت مرحلة توسع هؤلاء العرب سلميا فى هضبة الشطوط والبلاد الغربية والاندلس وعلى الرغم من أن الجبال الشاهقة قد استعصت على العرب الهلالية [٣٢] لكنهم بسطوا نفوذهم على السهول والنجود وبسائط المدن الجبلية فاستقرت العرب الغازية فى الساحل التونسى وبلاد الجريد وبسائط تل الاطلس الشرقى بين قسنطينة وغيرها من المناطق ويلاحظ أن قبائل بنى سليم قد سكنت بالقرب من الساحل بينما غمرت بنى هلال المناطق الداخلية ولقد كان نتيجة لهذه الموجة العربية أن تعربت بادية البلاد الغربية فطبعت بالطابع العربى .

وهكذا اتخذ المغرب طابعا عربيا صرفا حيث صارت الغالية للعروبة رللاسلام وللجنس العربى الذى اختلط مع أبناء العمومة والأخوة الذين سبقوا فى فترات تاريخية قبل الفتح الاسلامى وعلى هذا فأن الصلة العرقية والجنسية والروحية عميقة الجذور بين العرب الذين أتاحت لهم الظروف فتح المغرب والاستقرار والاختلاط بالبربر الذين استقروا فى تلك الاصقاع منذ فترات زمنية طويلة قبل قدوم أبناء عمومتهم ليحرروهم من نير السيطرة البيزنطية ومن هنا فان التركيبة السكانية للمغرب العربى تكون فصيلة عرقية وجنسية ،سلالية تكاد تكون واحدة الا فيما ندر،حيث ان المجموعات البربرية الكبيرة كصنهاجة وكتامة والتى كانت شعوبا كثيرة وقبائل متعددة والتى يرجع الفضل الأكبر لسيادة

(٣١) البكرى: مصدر سابق، ص ٧٢ .

(٣٢) الادريس: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ص ١١٨ .

صنهاجة فى الجزء الشرقى من بلاد المغرب وتأسيسها المدن والتى تحمل أسماء بطون صنهاجة مثل بجاية ومدية ومليانة ومزغناى(فى الجزائر)تعود القبيلة فى جذورها العرقية الى عرب جنوب الجزيرة حيث اليمن أو ساحل عمان وقد ساعد على تطوير اتجاه صبهاجة الشرق لسكنى المدن ما نتج عن الغزوة الهلالية من اكتساح للبوادى الشرقية من البلاد الشرقية وبسائط تل أطلس الشرقية فلجأ بعض البربر المنعزلون الى المناطق الجبلية الحصينة وأثرت السيطرة السياسية لصنهاجة الشرق والغزوة الهلالية على قبائل زنانة فاضطرت الى اللجوء الى المناطق التى تضعف فيها قبضة هاتين القوتين مثل هضبة الشطوط وصحـراء الزاب [٣٣] وعلى هذا فان الصلة العرقية هى التى ساعدت فيما بعد على انتصار العروبة والاسلام فى تلك الديار وظهور بلاد المغرب بتلك الصورة العربية الاسلامية الثانية على أرض أفريقيا بعد الكتلة المصرية التى لعبت دورها الاساسى فى طبع الحياة فى المغرب بذلك الطابع العربى الاسلامى .

وتلك هى الصورة التركيبية لسكان بلاد المغرب حيث بربر البرانس،وبربر البتر والعرب والذين يشكلون الوحدة الأساسية للتركيبة السكانية وان كان ترابط العرب والبربر يعود الى جذور عرقية وسلالية وجنسية واحدة وهذا ما ساعد على ذلك الامزاج والاختلاط التى تبدو صورته واضحة فى كل بلاد المغرب العربى بأقسامه الأربعة الا فيما ندر فى بعض المناطق المنعزلةمثل الهضاب العالية والواحات البعيده المعزولة عن بعض السكان وتلك سمة فى العديد من الأقطار وليس فى بلاد المغرب فقط حيث أن المناطق المنعزلة كثيرا ما تكون محافظة على كل قيمها ولغتها وعاداتها ومن هنا فان وجود بعض المتحدثين باللغة البربرية فى بلاد المغرب ما هو الا نقطة فى محيط عربى هذا وان كان وجودهم لا يقلل من أنهم ينتمون منذ قديم الأزل الى أصول عرقية عربية قبل الفتح الاسلامى بعدة قرون.

---

(33) Gautier : Les Siecles Obscurs du Maghreb . P 335.

الفصل الثالث

المغرب قبل الغزو الإسلامى

إستولت روما على أملاك قرطاجة، بعد أن ارتبط المغرب بالصراع الشهير بين روما وقرطاجة أو ما عرف بإسم الحروب البونية (٢٦٤١ق.م-١٤٦م) والتى انتهت بتدمير قرطاجة ومحوها من الوجود، ومنذ ذلك الحين خضع المغرب للحكم الرومانى كغيره من الأقاليم المطلة على البحر المتوسط وإكتفى الرومان بإنشاء مناطق عسكرية على الشريط الساحلى، لان التقدم نحو الداخل حيث السكان الأصليين من البربر ذوى البأس والشدة والمراس لم يكن سهل المنال[١] ,قد جعلت روما أملاك قرطاجة فى أفريقية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ولاية رومانية وكانت قرطاجة أول مستعمرة لها فيما وراء البحر وجعلت لتلك المستعمرة عاصمة لها فيما وراء البحار وجعلت تلك المستعمرة عاصمة لها إسمها «أوتيكا» وأطلقوا على جميع هذه المستعمرات اسم أفريقيا ولهذا إمتد هذا الإسم حتى شمل القارة كلها،وكانت حدود هذه الولاية الرومانية غير واضحة بل كانت خطا يمتد على مشارف حبال أطلس الذى يبدأ من نهر توسكا «الوادى الكبير» حتى مدينة تاهينا Thenae الواقعة على خليج فايس فى تونس أما ماوراء ذلك شرقاً فكان تحت حكم ملوك تورميديا الذين كانوا حلفاء لروما [٢] .

وقد أقيم على الحدود الفاصلة بين الولاية الرومانية وبين نوميديا،خندق اكتشفت بقاياه عام ١٩٥٧وأقيم على جدار حجرى قليل الارتفاع وقد اكتشفت بقاياه فى تسنور Testor لعدة أميال وكان هذا الخندق يجرى شمال طبرق وجنوب تاهيتا وقد عهد بهذه الولاية الى حاكم عام وبعد انتهاء الحروب التى قامت فى عام ١٠٦ق.م ضمت الى

(١) سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى، ص ٧٠– ٧١ .

(2) Latham, C. : Europe in the Middle Ages . P 28

ولاية افريقية هذه ولايات طرابلس ومصراطة وغيرها من الاقاليم،اما نوميديا فقد سادها الاضطراب الذى أدى بها فى النهاية الى أن تصبح بدورها بعد فترة زمنية ليست بطويلة مستعمرة رومانية،ذلك لأنه على أثر وفاة ملكها ماسبنسيا Marsinissa فى عام ١٤٨ق.م قسم أولاده البلاد وحكموها فيما بينهم فأخذ ابنه الاكبر هيبمال ادارة العاصمة بالاضافة الى الجزء الشرقى بينما أخذ الابن الثانى جولوشا ادارة شئون الجيش وقيادته وتسلم الأخ الثالث ادارة شئون القضاء فى ذلك الأقليم، وحكموها فيما بينهم فأخذ ابنه الأكبر حيمسال أدارة العاصمة بالاضافة الى الجزء الشرقى بينما أخذ الابن الثانى جولوسا ادارة شئون وبذلك فقد ظل الابن الثانى جولوسا Gflusa هو صاحب السلطة الفعلية وصاحب الكلمة العليا فى ادارة شئون البلاد نظرا لتحكمه فى قيادة الجيش وان كان قد ظل مخلصا لأخويه ولم يحاول الانفراد بالسلطة أو بالانقلاب عليهم وذلك حتى مات أخواه،ولذا فقد تغير الموقف السياسى فى ولاية توميديا بوقاة الأخوين حيث أصبح جولوسا هو صاحب كل السلطات .

ولقد تغيرت الظروف فى روما بعد أن بلغ جولوسا الهرم وأصبح فى حالة ضعف وشيخوخة وروما يزداد نفوذها فتعهد بأن يقوم بأمدادها بكل ما تحتاج اليه من القمح والحبوب والجنود والفيلة وكل ما يلزم لها .

وعلى ذلك فبدلا من أن تعمل روما على جعل نوميديا دولة قوية وكحليفة لها فيما وراء البحار فأنا نجد على العكس من ذلك فأن روما تبذل كل جهدها على اضعاف تلك الولاية وعملت على تقسيم تلك الولاية الى ثلاثة أقسام بين أبناء الملك جولوسا الذى تعهد لهم بتقديم كل ما تحتاج اليه روما من جنود وأسلحة ومواد غذائية،ولقد شجعت روما كل من يلجأ اليها من حكام هذه الامارات اليها مستجيرا بها على نحو ما كانت تعمل مع ملوك البطالمة المتأخرين وكان يدعى جوركورتا وهو الذى عرف كيف يستغل

الأطماع الرومانية فعن طريق الرشاوى التى دفعها استطاع أن يحصل على نصيب الأسد،فالجزء الغربى من هذه المملكة خضع لحكمه المباشر كذلك ولم يلبث أن أغار على بقيتها منتهزا فرصة اغارة التيتموس Tutms أتو تونس على روما عام (٣) عام ١١٣ق.م وانشغالها بالدفاع عن نفسها فلم تستطيع أن تتدخل فى الشئون الأفريقية .

ولم يلبث الحاكم جوكورتا أن وقع تحت سلطة النبلاء الرومان الذين تآمروا عليه فقبل أن يمتثل لأمرهم انقاذا لحياته فقبضوا عليه ثم تولوا ادارة أمور الجبش وخاصة الفرسان وعاثوا فسادا فى كل البلاد تحت قيادة من يدعى متلوس،وكان ذلك فى عام ١٠٩ق.م لكن شعب نوميديا من الوطنيين الزفارقة سكان الساحل الشمالى قاموا بالانتقام من الرومان وهؤلاء النبلاء القواد الذين تولوا السيطرة على مقاليد الحكم فى البلاد فقاموا بالثورة وذبحوا عددا كبيرا من هؤلاء القواد وقام وقام الحاكم متلوس Meteolus بالهروب من البلاد ومن ثم قام الحاكم جوكورتا بالبحث فى كل أنحاء البلاد عن بقايا الرومان وشجع الوطنيين بالوحدة ضد الوجود الرومانى،لذا فان منطقة غرب توميديا قد ظلت مسرحا للفوضى أكثر من عشرين عاما اثر هذه الثورة التى قامت ضد الوجود الرومانى،لكن فى نهاية الأمر فان الجنود الرومانيين استطاعوا الامساك بالسلطة وتولية عرش نوميديا لأحد هؤلاء الأمراء وهو الامير هويبوكوس (٤) الا أن هذه التولية لعرش نوميديا لم تضع حدا للفوضى التى سادت هذه الأنحاء من بلاد المغرب مما أعطى الفرصة لروما أن تتدخل فى الشئون الداخلية لنوميديا وهو يعنى ليبيا حيث كان اليونان يطلقون على كل ما عرفوه من شمال أفريقيا عدا مصر وأثيوبيا اسم ليبيا هذا عن الأقليم الغربى أو الجزء الغربى من أمارة نوميديا، اما فى القسم الشرقى فقد كان الابن الأكبر هييال بن مانيسيا Hii npsal. Massinissa ،يحكم وقد جعل بلاده ملجأ للهاربين من قواد الرومان خلال حروبهم الداخلية سواء فى

(٣) زاهر رياض: شمال افريقيا، ص ٨ .

(4) Julien, A. : Opc T.P. 132

شبه الجزيرة الايطالية أو فى أفريقيا حيث أملاك قرطاجة،فكان ان انتقلت الفوضى الى بلاده بعد أن كانت قد تعرضت الأجزاء الغربية فى الولاية لبعض الفوضى، حتى تعرض هذا الحاكم للعزل أكثر من مرة خلال العشرين عاما من حكمها،ولقد آلت أمور هذه الولاية بعد وفاته الى ابنه جوبا الأول بن هيمسال بن ماسينسيا والذى قام بالدخول فى خلافات مع روما حتى عهد حكم بوليوس قيصر،لذا فان روما قررت الاستيلاء على حكمه فقد بوليوس قيصر فى عام ٤٧ ق.م على رأس جيش مصطحبا معه جوبا ابن الملك وعهد به الى زوجته لتربيته حتى اذا كبر زوجه من كليوباترة ابنة أنطونيوس،وقسمت توميديا الى قسمين ضم الغربى منها الى افريقيا وجعل تحت الحكم الرومانى المباشر وأعطى القسم الشرقى الى جوبا باسم افريقيا الجديدة [٥].

وفى خلال الحرب بين يوليوس قيصر وأعدائه، فان أرض أفريقيا كانت مسرحا لكثير من الحروب،وهرب الى افريقيا نوميديا بعض أعداء يوليوس قيصر، ومن ثم اضطرت جيوش يوليوس قيصر لأن تقوم بمطاردتهم حتى ان الفوضى كانت قد شملت كل الساحل الأفريقى الشمالى الممتد من أقصى الغرب الى مصر حيث سادت الفوضى أيضا لكن فى النهاية فان الانتصار قد تم ليوليوس قيصر حيث سار منتصرا الى أوتيكا (أرض قرطاجة) تونس حاليا واستقر بها فترة من الزمن ليعيد تنظيم هذا الجزء من الدولة ولكن أفريقيا الجديدة الشرقية لم تعش الا مدة عشرين عاما حيث ضم القسمان بعدها الى بعضها باسم أفريقيا القديمة.

وقد شهد يوليوس قيصر توزيع اراضى افريقية الى جماعة من أثرياء الرومان من أجل استغلالها على نطاق واسع وسمح لكثير من العامة بالهجرة اليها والاقامة بها فأخذت المستعمرات الرومانية فى الظهور بقوة فى أراضى الشمال الأفريقى حيث أقام الرومان

---

(5) Bury. J. : Hist or of The Later Rofan empire. Vol . 2 . P 84

الحصون والاستحكامات.

وبعد موت يوليوس قيصر ظهر النزاع بين خلفائه والذى امتد بدوره الى الأراضى الأفريقية (بلاد المغرب) حتى استقر الأمر فى الامبراطورية الرومانية فقد عهد أوكتافيوس بادارة هذه البلاد الى عدد من ضباطه والذى جعل من أولى مهامهم الإهتمام بالزراعة من أجل حاجة شبه جزيرة ايطاليا الى الحبوب وخاصة القمح وأصبح حكام ذلك الاقليم من شمال أفريقيا لا قيمة لهم مطلقا. وأما القسم الشرقى فكان جوبا الثانى الذى رباه يوليوس قيصر ابن جوبا الأول (٢٤ق.م) قد ظل يحكم تلك الأنحاء حتى عام (١٩ق.م) ورغم كل الاضرابات التى تعرض لها الشمال الأفريقى فانه انتعش وازدهر حتى أصبحت العاصمة كما يقول ستراب Strobo, فتنة للعين وكثر فيها الاغريق وعنى الحاكم بتشجيع العلماء بالفلسفة كما آمن الطرق من آجل صالح التجارة حتى غدت تلك العاصمة تنافس روما فى عظمتها ومنشأتها وهذه الأعمدة التى تراها الآن تزحم الساحل الشمالى أو هذه الأخرى التى تزين المساجد الاسلامية الحالية تشهد بما بلغه فن المعمار من تقدم الأمر الذى اثار حسد الرومان .

وفى عهد الامبراطور الرومانى «كاليجو» كان يحكم الساحل الشمالى بطليموس بن جوبا الثانى بن جوبا الأول بن هميس بن ماسنيسا فان كاليجو استدعاه الى روما حيث تم قتله هناك وبذلك أصبحت بلاد الساحل الشمالى كلها تحت حكم روما المباشر وأرسلت الى أجزاءها المختلفة جيوش رومانية لتحافظ عليها وظل يتوالى عليها حكم الرومان حتى اكتسحته قبائل الوندال فى القرن الرابع الميلادى لكن سيطرة الوندال لم تدم طويلا ولم تتجاوز فى قدرتها القرن من الزمان حيث عادت السيطرة مرة أخرى على المغرب الى دائرة الامبراطورية الرومانية التى أصبحت تحمل اسمها الشرق وهى الامبراطورية البيزنطية[٦] وقد

---

(٦) ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ص ٢٨ ، أحمد صفر، مدينة المغرب العربى. ص ٣٧ .

جعل الرومان كل شمال أفريقيا ولاية واحدة يحكمها حاكم عام يقيم في مدينة أوتيكا،ومعه جيش كبير من الموظفين الرومانيين وذلك فيما عدا مصر وليبيا التى كان لكل منها حاكم مستقل وقسمت البلاد الى ثلاث مقاطعات كبيرة جعل لكل حاكم بدرجة قنصل تحت امرة الحاكم العام للاقليم،وكان ذلك التقسيم قد تم بعد عام (٣٤ق.م) أيام الامبراطور جستيان حيث قام القائد الرومانى بلزاريوس باستعادة شمال أفريقيا من أيدى الوندال، وبذلك أصبح شمال أفريقيا ولاية جديدة أفريقية رومانية تابعة لبيزنطة (القسطنطنية) وليس الى روما مرة ثانية،فيها أقامت قوات رومانية على الحدود في الحصون التى امتدت على طول الساحل من مصر شرقا الى موريتانيا غربا حيث كانت موريتانيا احدى الولايات الست التى قسمت بها بيزنطة الساحل الى ستة أقسام [٧] وان كان الدكتور حسين مؤنس فى كتابه «معالم تاريخ المغرب والأندلس» يقرر أن معلوماتنا عن المغرب قبيل الفتح الاسلامى تقتصر على أقاليم برقة وطرابلس وأفريقية التى تقابل ما يعرف اليوم بتونس وشئ قليل عن بقية سواحل المغرب الى المحيط الأطلسى فى حين أننا نجد أن القسطنطينية (قسمت الساحل الى ستة أقسام وهي:زوجيتانيا، بيزاسيوم، نوميديا، موريتانيا، تربيو، ليتنانا) (وقرطاجة). وقد ألحقت موريتانيا الغربية بجنوب أسبانيا باسم موريتانيا الأولى، اما موريتانيا الشرقية فانضمت الى نوميدا فى ولاية واحدة، بل انه تحت ضغط غزوات المسلمين فى بلاد الشام فصلت طرابلس فى عهد الامبراطور موريس عن أفريقيا (تونس) وأضيفت الى مصر [٨] .

وفيما يتعلق بأقليم برقة فأننا نجد أنها كانت قبيل الفتح الاسلامى داخلة فى زمام مصر بناء على آخر تقسيم للدولة البيزنطية وهو الذى قام به الامبراطور (مورسيوس موريس

---

(٧) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٦ .

(٨) زاهر رياض: شمال افريقيا، ص ١٥ .

يوريف) .وقد ضمت فيه برقة الى مصر وكان اسم برقةفى العصر الرومانى الأغريقى قبل الفتح الاسلامى سيريتاكيا،نسبه الى مدينة يونانية انشأها اليونان تسمى سيرمنى ولقبها العرب فيرين، وأحيانا،فوريتاء وفي بلدة قريبة من مدينة برقة حاليا ويسمى أقليم برقة أحيانا انطابلس، وهو تحريف للفظ يونانى هو بنتابولس Penta Polis أى المدائن الخمس وهى مدن صغيرة أنشأها الأغريق فى هذا الاقليم ومنها قبرين التى ذكرناها ولكن الصلة الحقيقية بين مصر وهذا الاقليم البعيد عنها الى الغرب لم تكن واضحة فى ذلك العصر وهو النصف الأول من القرن السابع الميلادى فلا ندرى ان كان بها عامل للروم أو ممثل لادارة مصر البيزنطية ولكن عندما وصل العرب الى تلك الأماكن وجدوا السلطة الفعلية بيد قبيلتين من البربر هما قبيلة لواتة وهوارة وهما من قبائل البربر البتر وسيكون لهما شأنهما بل شأن كبير فى العصور الاسلامية ويذهب بعض المؤرخين وبالذات مؤرخى المغرب ومنهم ابن خلدون الى أن هوارة من البرانس أى البربر الحضر المستقرين وهذا لا يغير من وأقع الأمر شيئا لأن تصرف هوارة كان دائما مع الزناتيين التى هى فرع من زناتة،هذا عن أقليم برقة أولى الأقاليم المغربية شرقا قبل العصر الاسلامى، فاذا انتقلنا أكثر بعدا فى اتجاه الغرب حيث انا نصادف اقليم طرابلس وهو الأقليم الثانى الذى تتكون منه ليبيا، فنجد أن أصل هذا اللفظ أغريقى أيضا ومعناه المدن الثلاث (ترى بولس) وجدنا أن الأقليم لم يكن واضح التبعية فقد كان فى الأصل تابعا للرومان فى روما ثم بعد ذلك الى بيزنطة فى القسطنطينية وبعد ذلك لا نعرف الى أى ناحية سياسية كان يتبع حينذاك وعندما يصل العرب الى هذه النواحي سيلقون فيه قبيلة بربرية هى«نفوسة»وكان مركزها منطقة جبلية الى الجنوب من طرابلس تسمى جبال نفوسة،وفى فترة الفتح الاسلامى أى فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى كانت الجبال جبالا خضراء عامرة بالقرى والمراعى والناس وكانت قبيلة نفوسة هذه من أقوى وأهم قبائل طرابلس وعندما يصل العرب الى هناك سيكون تعاملها مع

هذه القبيلة [٧] .

أما فيما يتعلق بأقليم أفريقية (تونس) فاننا نجد ذلك الأقليم تابعا للدولة البيزنطية فهناك حكم بيزنطى واضح يقوم به عامل للروم يسمى بالبطريق ومعه قوة عسكرية والبلاد مقسمة الى قسمين بل الى ولاتين كبيرتين ولاية شمالية أى فى الشمال حيث الساحل المطل على البحر المتوسط وهى الى الشمال تقريبا من مدينة القيرون الحالية وتمتد الى البحر وتسمى تلك الولاية زوبجتانيا وهى احدى الولايات الست التى قسم بها البيزنطيون ساحل أفريقيا، وهناك كانت العاصمة قرطاجة ذات التاريخ الطويل والتى دمرها الرومان تدميرا تاما وهناك ايضا كانت الجاليه الرومية متمركزة فى مدن الساحل فى امثال (قرطاجه،سوسة – المنستر، والحمامات). ومع تلك الجاليات الروميه التى كانت تتكون من الروم ومن المهاجرين من سواطئ اوربا الجنوبيه كانت تعيش طائفة من سكان المغرب تسمى بالافارقة ويطلق هذا اللفظ على مزيج من البربر والاجناس التى حكمت افريقيا واجزاء من ساحل المغرب وهم جنس يختلف عن البربر بعض الشئ فهم قوم حضر مستقرون ما بين زراع وتجار ورعاة فى العادة وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ المتوسط وكانت المسيحية منتشرة فيهم وكان الكثير منهم يعرفون اللغةاللاتينية والاغريقية وهؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان والروم الحكام وسيتعامل العرب مع هؤلاء وسيكسبونهم الى الاسلام ويختلطون بهم وبالبربر ومن هذا كله سيتكون سكان افريقيا الاسلامية او المغرب العربى الاسلامى .

اما الولايات الجنوبية فى تونس فكانت تسمى (بيزاسينا) او بيزاسيوم وتقع جنوب خط خط مدينة القيروان .

(٩) حسين مؤنس، مرجع سابق، ص ٢٨ .

وهي ولاية بها مزارع واسعة،كما ان ارضها صالحة للمراعي وفي جنوبها تقع بلاد الجريد اى بلاد النخيل وهى واحات وافرة المياه معظم سكانها من البربر،ولكن كانت للروم في تلك الانحاء حصون متناثرة ومن هنا سمى بعض نواحيها باسم قسنطينة وهى من اللفظ اللاتيني كستيلا Casteila أى بمعنى الحصن أو معناه الحصون والمدينة الرئيسية قابس على البحر وهى باب أفريقية من الشرق وقفصة وتورز ونفطة وهى عواصم بلاد الجريد التى يتوسطها شط الجريد وجنوبى بلاد الجريد،وتقع بلاد الساحل والمراد بها هنا ساحل الصحراء الكبرى الشمالية لان العرب كانوا يرون أن الصحراء هى بحر الرمال وكانوا يسمون الواحات بالجزائر ولفظ الواحات أو الواح لا يطلق فى الجغرافية العربية الا على واحات مصر لان اللفظ مصرى قديم وكلمة واح معناها الماء .

وقبيل الفتح الاسلامى لبلاد الشمال الافريقى كان يحكم أفريقية(توش) بطريق يسمى جرجير أو جريجورس ويسميه العرب جرجير وكان هذا الرجل قد اختلف مع الروم وحاولوا الاستقلال عنهم بحكم تلك الانحاء ونشبت خصومة كبيرة بين الجانبين بينما كانوا قد اتموا فعلا فتح مصر ٢٢ هجرية ٦٤٢م ولم يكن يخطر على بال جرجير أن قوة من الجيوش العربية الاسلامية كان يمكن أن تأتى من ناحية الشرق، ولهذا كان ظنه أنه ينشئ دولة لنفسه فى هذه الناحيه فى الشمال الافريقى له ولاسرته ولكى يحتمى من الروم ولا يخضع لحكمهم انسحب الى داخل البلاد تاركا العاصمة وتحصن فى بلدة صغيرة داخلية كان لها حصن منبع يسمى اسبيطلة الى جنوبى القيروان الحالية.

وفى سبيطلة اطمأن هذا الرجل ولكن اطمئنانه لم يدم طويلا لانه فوجئ بطلائع العرب تدخل اقليم برقه،أما بقية المغرب فلا تعرف عنها الا القليل حيث كانت مراكز الجاليات الرومية والحصون تملأ الساحل حتى ساحل المحيط الاطلسى .

كذلك فان بلاد المغرب قبل الفتح الاسلامى من الناحيه الحضاريه كانت مركز

عمران بيزنطي وكانت اقليما عامرا أى فيه مدن كثيرة وأراضى زراعية مزروعة والعديد من الموانى عل ساحل البحر المتوسط والبلاد كانت عامرة بالحركة وكانت المسيحية منتشرة بين الافارقة وبالذات بين الجاليات الرومية فقط/. أما البربر فلم تصل المسيحية اليهم ولم تكن ظاهرة أو منتشرة بصورة واضحة فكانوا على الوثنية ولا توجد أدنى علامة ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر ولهذا سوف نجد العرب عندما يصلون الى أفريقيا سيكون صراعهم مع الروم أو البيزنطين أولا فلما تغلبوا على مقاومة الروم وخلصوا منهم حرروا البلاد منهم فانهم سوف يدخلون فى علاقات مع البربر (١٠) .

وكان انتشار المسيحية بين الرومان أنفسهم أو بعض سكان الساحل أما بقية الداخل من البربر فقد ظلوا على وثنيتهم حتى دخول الاسلام الى تلك الديار. وأن البربر كانوا يكثرون من الأغارة على مدن الساحل بل أنهم كانوا يقومون بالإغارة على برقة،وقد اضطهدت المسيحية على الساحل فى عهد الوندال حيث حرم المسيحيون من ممارسة شعائرهم الدينية ولما هزم الوندال عام ٥٣٤م لم يكن الوجود المسيحى الا نادرا خلال القرن السابق لقدوم المسلمين والفتح الاسلامى كثرت غارات الوثنيين من قبائل البربر على مدن الساحل،بل أن الكنيسة الافريقية كانت تعانى مثلما تعانى الكنيسة المصرية من اضطهاد الكنيسة القسطنطيينية، ومن المؤكد أن نقص عدد الأساقفة فى أفريقيا يدل على نقص عدد المسيحيين وظل عددهم يتناقص بالتدريج خلال الخمسين عاما التى سبقت الفتح العربى الاسلامى (١١) ومن هنا كان الفتح الاسلامى ايذانا بانتشار العروبة والاسلام على نطاق واسع فى بلاد المغرب حيث كان المسيحيون يجدون فى الحكام المسلمين كل مودة وتسامح وعلى هذا كان المد الاسلامى قويا وجارفا فى كل بلاد المغرب العربى وهذا ما نراه فى الأبواب القادمة .

---

(١٠) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٢٩ .

(١١) زاهر رياض: مرجع سابق، ص ٣٥ .

الباب الثانى

محاولات الغزو الاسلامى

بعد ان تمكن الوضع الاسلامى فى بسط لوائه وأنواره القرآنية فى مصر فانه بدا يجاوز حدود البلاد الغربية متطلعا الى بلاد المغرب، لذا فانه من الغربيب أن يحدث هذا الفتح لبلاد المغرب أو محاولة اطوائها تحت لواء الاسلام بعد اتمام فتح مصر مباشرة، وبعد تلك الجهود العربية الاسلامية التى بذلت لقهر البيزنطين وطردهم منها وتحرير البلاد من كل اردانهم (١) وفتح المغرب يحتل سجلا خاصا فى تاريخ العرب العسكرى، فقد اختلف عن بقية الفتوحات التى تمت فى وقت يسير وجهود عسكرية متواضعة حيث كان لاستراتيجية الحرب الخاطفة الأثر الكبير فى تحقيق انجازات لازالت موضع دهشة المختصين بالشئون العسكرية فعلى عكس ما حدث فى جبهات الشام والعراق ومصر فضلا عن الامبراطورية التى انهارت فى أقل من عشر سنوات وأصبح الحكم عربيا خالصا، نجد جبهة المغرب تخرج على هذه القاعدة وتصاب الجهود العربية فيها بنكسات متلاحقة قبل أن تخلد بلاد المغرب للاستسلام حيث تم للعرب والمسلمين فيها الاستقرار النهائى، ولا يعود ذلك الى متاعب داخليه فقط حالت دون التفرغ لحسم الموقف على جبهة المغرب بصورة كاملة، وان كنا لا نستطيع اجمال ما تركته الأزمات السياسية فى الدولة العربية الاسلامية من اثر سلبى واضح على جهاز الحكم ولكن العامل الأهم كان له علاقة بجغرافية الأرض ذات الطبيعة الجبلية الوعرة والقبائل الشديدة اليأس المتمسكة بكياناتها التقليدية والمحترفة لأساليب الحرب الخاطفة التى برع فيها العرب، يساعدها على ذلك معرفة جيدة بطبيعة الأرض وشعابها وكهوفها ووديانها فهذا النوع من المجابهة ما لبث أن تحول مع الممارسة الى ما يشبه حروب العصابات فى اطار المفهوم المعاصر بكل ما تعنية هذه الكلمة (٢) .

---

(١) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ٦٨ .

(٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢١ .

كذلك اذا استطعنا أن نحدد تاريخا ثانيا لفتح فارس أو الشام أو مصر، فتحديد تاريخ ثابت لفتح العرب لشمال افريقيا ليس بهذه السهولة، فشمال افريقيا قطر متسع ممتد وان كان قبل الفتح الاسلامى خاضعا لعدة سلطات حيث الساحل خاضع لنفوذ البيزنطيين والداخل يخضع لنفوذ قبائل البربر، علاوة على الصعوبات الأخرى مثل طبيعة الأرض الجبليه وأحوال السكان وبعد هذه البلاد عن مراكز الحكم سواء فى المدينة أو دمشق مما جعل ارسال الحملات الحربية يقتضى استعداد كبيرا، هذا الى جانب قوة وشكيمة البربر وشجاعتهم والروح الحربية المتأصلة فيهم، كذلك فأنه يجب الا ننسى ما كان فى الحوادث الداخلية فى الدولة الاسلامية حين انصرف الخلفاء الى تثبيت دعائم الحكم الذى حصلوا عليه مثل القضاء على ثوره الحسن بن على بن أبى طالب،ثم ثورة عبد الله بن الزبير.

والبديات الأولى لفتح المغرب تعود الى مطلع العقد الثالث من القرن الأولى للهجرة وكان عمرو بن العاص احد قواد الفتوح الاسلامية قد انهى السيطرة على مصر خلال سنوات ثلاث ١٨-٢١هـ/٦٣٩-٦٤٢م-حيث تم له بعد ذلك انشاء مدينة الفسطاط واتخاذها عاصمة له ومقرا للجند العربى [٣] فبدأ عمرو بن العاص بعد تسليم الاسكندرية مباشرة يتوغل بقواته صوب الغرب متعقبا القوات البيزنطية المتقهقرة حيث اتجه ببصره نحو برقة بعد أن كان قد تابع سيره غربا الى برقة أو ما كان يعرف قديما (انطايلس، وهو تحريف للكلمة اليونانية بنتابوليس ومعناها المدن الخمس أو المدائن الخمس) [٤] ولعل التفسير المقبول لهذه الخطوة أن عمرو بن العاص فاتح مصر اراد تأمين حدود مصر الغربية،بل تأمين حدود دفاعية لهذا الاقليم المهم من الغرب لأن أية خطة منظمة للتوسع

---

(٣) حسن محمود: الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا، ص ٩١ .

(٤) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية، جـ ١ ص ٢٢٤ .

أبعد من ذلك لم تكن قد ظهرت بعد،فالقوة العسكرية التى استخدمت للأستيلاء على مصر وهى جزء من قوات الخلافه المنتشرة على عدة جبهات فى الشرق لم تكن كافية لتنفيذ عملية توسعية جديدة،فضلا عن أن أوامر الخليفة الراشد الثانى عمرو بن الخطاب المتشددة بعدم التوغل بعيدا فى بلاد لا تزال مجهولة فأقتنع بتحقيق نوع من السيادة غير الفعلية ظهرت في وجود حاميات صغيرة من الجند وفى استيفاء الضرائب من السكان ومن الملاحظ أن حملة عمرو بن العاص قد اتخذت طريقها الى المغرب بعد اتمام فتح الاسكندرية ويعتقد أنها سلكت على الأرجح الطريق المحاذى للساحل الى برقة التى كانت معقلا من معاقل البربر خاصة قبيلة لواتة (٥) .

ولقد كانت معاهدة الاسكندرية فى ١٦ شوال ٢١هـ/١٧ سبتمبر ٦٤٢م مشجعا لعمرو بن العاص بأن يتجه غربا بعد أن استقر فى عاصمته الجديدة الفسطاط وهنا نجد ذلك الفاتح العربى العظيم ينهض للاستيلاء على برقة فى أواخر عام ٢٢هـ/٦٤٣م فسار بنفسه اليها ووقع بينه وبين قبائل البربر من هوارة ولواته قتال قصير،ثم استسلموا للعرب وعقدوا مع عمرو بن العاص اتفاقا على أن يؤدوا مبلغا قدره ثلاثة عشر ألف دينار سنويا بصفة ضرائب أو جزية ثم عاد الى مصر، وتفهم من ذلك أن برقة كما سبق أن أوضحنا كانت جزءا من أرض مصر أو ولاية مصرية فكان فتحها استكمالا لفتح مصر وان هذه الجزية كانت جزء من خراج مصر العام (٦) .

ولا ندرى ما اذا كان للبيزنطيين قواعد عسكرية فى هذه الجهات واذا صح وجودها فما هو موقفها من الحملة العربية، ذلك أن غموضا يحيط بالموقف البيزنطى فى تلك الانحاء وفى تلك الأثناء ولعل تواجدهم هنا كان ضعيفا أو متلاشيا ربما تحت ضغط البربر«اللواتين» أو لان سقوط الاسكندرية أحدث ارتباكا فى صفوفهم وحال دون القيام

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٢٣٩ .

(٦) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١ .

بدور ما لمنع تقدم العرب فى هذا الاتجاه وعلى الأرجح أن الثقل العسكرى للبيزنطيين كان محصورا الى القرب من طرابلس حيث القاعدة العسكرية الشهيرة «قرطاجه» لذلك فان القاذد العربى العظيم عمرو بن العاص نفذ مشروعه الرامى الى دخول المغرب عبر موانيه الرئيسية «برقة» ودون أن يلقى أية مقاومة فى الطريق اليها حيث استسلمت هذه المدينة ورحبت قبيلتها البترية العريقة لواته لقاء ضريبة يحددها ابن عذرى المراكشى بثلاثة عشرة ألف دينار [٧] ويبدو أنه كانت لأخبار الفتوح العربية فى مصر التى سبقت هذه الحملة على برقة الأثر الكبير فى استسلام مدينة برقة المعروف عن أهلها من البربر اللواتين الصلابة والنزوع الى الاستقلال حيث كان ذلك يظهر سابقا فى مقاومتهم ومصارعتهم للبيزنطيين واجبارهم على الاعتراف بسيادتهم على تلك المناطق وعدم الخضوع للسيطرة البيزنطية ومحاربة النفوذ البيزنطى فى السواحل [٨] .

وبعد ذلك بقليل نجد أن عمرو بن العاص يقود غزوة عربية اسلامية أخرى عام ٢٣هـ/٦٤٤م فيفتح اقليم طرابلس ويستولى على قاعدته التى تحمل نفس الاسم بعد قتال عنيف ولكنه قصير مع الروم والبربر أيضا وكان عمرو بن العاص قد تابع من برقة مسيرة بمحاذاة الساحل صوب طرابلس (المدن الثلاث) أو طرابلس كما جاء فى فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم وهى مدينة منيعة استطاع البيزنطيين تحصينها بالأسوار من جميع الجهات باستثناء الجهة المطلة على البحر، ولكن طرابلس سقطت بعد شهر من حصارها ويبدو أن عامل المفاجأة كان له دور فى نجاح العملية حيث تسلل المهاجمون من ناحية البحر [٩] وفى نفس الوقت أحبطت المحاولة التى قامت بها قبيلة نفوسة البترية لفك الحصار عن المدينة وكانت هذة القبيلة تتخذ من مدينة سرت معقلا لها وهى لا تلبث أن تلقى مصير طرابلس وتستسلم بعد قليل من الوقت وقد حدث ذلك فى أواخر عام ٢٣هـ

(٧) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب، جـ ١ ص ٨ .

(٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٢٣ .

(٩) ابن عبد الحكم: المصدر السابق، ص ٣١ .

وكانت سرت آخر مدينة مغربية بلغها ابن العاص على الساحل الافريقى الشمالى وكان كل اهتمامه موجها الى التفاهم مع قبيلة نفوسة وتم له ذلك،ثم عاد الى مصر عام ٢٥ه/٦٤٥م وكانت هذه هى اخر فتوح ذلك الرجل العظيم عمرو بن العاص،حيث ما كاد يقترب من حدود تونس وتبلغه أنباء تجمعات الروم حتى عاد ادراجه الى مصر (١٠) ثم عندما تولى الخلافة الاسلامية الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان فانه عزل عمروا عن مصر لكن عمرو بن العاص عاد مرة أخرى الى ولاية مصر عام ٤٠ه/٦٦٠م عقب قيام خلافة معاوية بن ابى سفيان ولكن تقدمه فى السن فى ولايته الثانية كانت من العوامل التى، حالت دون قيامه بأية فتوح فى أرض المغرب وعلى أية حال فان ما قام به عمرو بن العاص من فتوحات اسلامية فى تاريخ الاسلام نضعه فى الصف الأول من بناة الدولة الاسلامية فى القرن الأول الهجرى فهو الذى فتح فلسطين ومصر وهذا الجزء من أرض المغرب حتى حدود تونس حيث أنه بهذا الفتح ألمبين اضاف الى دولة الاسلام أكثر من ثلث ما فتحته جيوشها لكنها الى ذلك الوقت وفى التاريخ الاسلامى لمصر والمغرب يعتبر عمرو بن العاص أول أبطال ذلك التاريخ (١١) .

ثم اننا نلاحظ بعد دخول قوات عمرو الى مدينة سرت،أن التحرك العسكرى العربى الاسلامى لم يأخذ الخط الساحلى الموازى لساحل البحر المتوسط طريقا فقط الى فتح بلاد المغرب، انما تفرع من تلك الحملة العسكرية التى قادها ابن العاص حملة صغيرة يقودها يافع السن هو عقبة ابن نافع الفهرى، والذى سوف يكون له تاريخ عظيم فى فتح المغرب فيما بعد.حيث انه بعد سقوط برقة عام ٢٢ه/٦٤٣م قاد عقبة بن نافع الفهرى غزوة صغيرة الى الجنوب وذلك للقيام بعمل منسق مع قائده ابن العاص من أجل ضرب تحركات القبائل البربرية التى كانت تقطن جنوبا فى الصحراء حيث تلك الجهات الواسعة وذلك لمنعها من القيام بأى عمل من الأعمال العسكرية والتى ربما تعوق تقدم العرب

(١٠) حسن محمود: مرجع سابق، ص ٩١ .

(١١) حسين مؤنس: مرجع سابق ، ص ٣١ .

غربا الى طرابلس ومدينة سرت،وقد حققت هذه الغزوة الصغيرة انتصارات مهمة فى مدينة وفزان وزويلة (١٢) .

ولقد عاش هذا القائد الشاب الشجاع بعد ذلك سنوات طويلة بين البربر واستطاع خلالها بشخصيته القوية وبما انغرس فى قلبه من ايمان عميق أن يطوع بعض قبائلهم ويشد كثير منهم الى الاسلام حتى اذا تسلم الأمويون قيادة الأمة العربية الاسلامية جئ بعقبة بن نافع كخبير فى الشئون الأفريقية ليستأنف بصورة أكثر جدية مرحلة الفتح المنظم للمغرب للاستقرار (١٣) .

بل أنه يذكر أن عقبة بن نافع الفهرى قد وصل الى الجنوب أكثر من ودان وفزان وزريلة حيث وصل الى مدينة كوار بل وصل الى أكثر من ذلك جنوبا الى منطقة يقال لها«مربط الفرس»على مسافة قريبة من بحيرة تشاد وأنه لو وجد دليلا يدله الى الطريق جنوبا لوصلت القوات الاسلامية الى حوض بحيرة تشاد ولكنه عاد أدراجه شمالا لأنه لم يجد من يدله من البربر على الطريق جنوبا وهكذا نرى مدى البعد الاسلامى العربى فى الربع الأول من القرن الهجرى (١٤) .

ولقد اكتفت القيادة العربية فى المدينة المنورة بهذا القدر من الانتصارات التى حققتها فى برقة وطرابلس،فأمرت حملة عمرو بن العاص بالعودة الى مصر حيث أصبح حاكما عليها ولم يمر سوى عام واحد حتى تسلم الخليفة عثمان الحكم ليعزل بعد قليل من الوقت حاكم مصر وأول قائد عربى ارتبط اسمه بالفتوحات فى أفريقيا،ويبعث أخاه فى الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى سرج وليا على مصر وأجزاء المغرب المفتوحة والتى تدفع الجزية لمصر.

---

(١٢) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ، ص ٢٤ .

(١٣) حسين مؤنس: فجر الاندلس، ص ٣٧ .

ولقد طلب من عثمان بن عفان الاذن بفتح أفريقيا فأذن له بفتحها، وذلك بعد استقراره فى الفسطاط والحصول على الاذن فى السير لمواصلة فتح المغرب. وبعد تردد اذن له عثمان بن عفان بذلك. وكان الحاكم الجديد لمصر بعد استقراره فى الفسطاط قد بدأ نشاطه الأفريقى بسلسلة من العمليات الاستطلاعية لدراسة الموقف عن كثب تمهيدا لاستئناف النشاط العسكرى وسياسة الغزو فى سبيل الله والتوسع والتى بدأها الوالى السابق ولكى تصبح الصورة أكثر وضوحا نجد عبد الله بن سعد بن أبى سرج يراسل الخليفة بشأن حملة جديدة يقوم بها للغزو فى أرض المغرب [١٥] ويبدو أن تفاهما مسبقا قد جرى بين الاثنين للقيام بعمل عسكرى بارز يهدف الفات النظر الى الحاكم المركزى فى المدينة المنورة الذى لازال غير قادر على ملء الفراغ الكبير بعد غياب الخليفة القوى السابق عمر بن الخطاب .

ويأخذ الاعداد لهذا العمل العسكرى اسلوا جديدا من أساليب الشورى الاسلامية،اذ نجد الخليفة عثمان بن عفان يجتمع بكبار الصحابة ضوان الله عليهم للوقوف على رأيهم بهذا الشأن فى مواصلة الفتح فى أرض المغرب [١٦] وتمتلئ المدينة المنور عاصمة الخلافة الراشدة بأخبار الحملة الزفريقية وتمتلئ المدينة المنورة بأفواج الجند القادمين من مختلف القبائل العربية ولم تلبث طلائعها أن غادرت المدينة وعلى رأسها أحد أقارب عثمان بن عفان(الحارث بن الحكم) ومعه عدد كبير من زعماء المدينة الذين شاركوا فيها ومنهم أخوة مروان وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن العباس وغيرهم.وفى هذا الجيش اشترك نفر كبير من ابناء الصحابة والكثيرون منهم يسمون عبد الله ولهذا سمى ذلك الجيش،جيش العبادلة،ومن اشهر من سار فيه عبد

(١٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٢٦ .

(١٦) ابن عبد الحكم: مصدر سابق، ص ٤٦٢ .

الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب،كذلك كان فى الجيش أيضا عبد الملك بن مروان وكانوا جميعا شباب فى السنى الباكرة وكان أباؤهم يشركونهم فى الفتوح لأنها كانت ميدان التدريب والتكوين لشباب الجيل الثانى من أمة الاسلام،ففى ميدان القتال كانوا يقتبسون ثقافة العصر وهو الجهاد والفتوح وممارسة الحكم واستخراج الأحكام من الأصول ومن القرآن الكريم والسنة وفى مصر زوذت الحملة بنحو عشرين ألف من المقاتلين وكانت بعض منها قوات اضافية فى حامية الفسطاط وكان معظم هذه القوات من الفرسان،وسار عبد الله بن سعد بن أبى سرج القائد لهذه القوات بهذا العدد الكبير الى المغرب الأدنى (١٧) .

وفى هذا الصدد نجد الدكتور زاهر رياض والذى سار أكثر من الأوربيين أعداء الاسلام فى تصويرة الفتح الاسلامى لبلاد المغرب وغيرها من أقطار الأرض المعمورة والذى كان لأجل تحرير الانسان من ربقة الرق والاستغلال ونشر أنوار الاسلام وهداية البشرية الى دين الله القويم والأخذ بيدها الى مدارج الرقى والحضارة، يصور ذلك الفتح بان الهدف الأساسى منه الحصول على الغنائم والأسلاب وفرض الجزية،وفى هذه الحملة يقول أن عبد الله بن سعد بن أبى سرج بعث ببعض جنده علاوة على جند مصر بقيادة عقبة بن نافع الفهرى ليستطلع أحوال المغرب حتى اذا اطمأن الى الأخبار التى حملها عقبة سار هو اليها فى عام ٢٦هـ/٦٤٧م بعد أن وعده عثمان بن عفان بخمس خمس الغنيمة خاصا به (وهكذا يصور الاسلام بأنه يقسم غنيمة) (١٨) من قبل الذين لا يرضيهم انتشار راية الاسلام فى أرجاء جديدة .

وأحس حاكمهما «جريجورس» الرومانى بالخطر وكان قد اعلن استقلاله عن الدولة

---

(١٧) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٥ .

(١٨) زاهر رياض: مرجع سابق، ص ١٨ .

الرومانية حديثا واحتاج الى فسحة من الوقت ليعزز قوته وسار اليها عبد الله بن سعد بن أبى سرج وفتح سهلها وجبلها وقتل من أهلها خلفا كثيرا منهم جريجورس القائد وأسلم ابنه واستولى على نصيبه من الغنيمه (هكذا يركز زاهر رياض على أن الاسلام من أجل الاسلاب والغنائم) كما وعده عثمان بن عفان وبعث ببقية الخمس الى عثمان وفرق الباقى على الجند فبلغ نصيب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار كما صالح بطريقها على ألف دينار وخمسمائة ألف، فأطلق عثمان بن عفان الجزء الذى وصله فى يوم واحد من آل الحكم وقبل فى آل مروان (ونسى زاهر رياض قول الخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز أن الله بعث محمد ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا، فهل يتعظ هؤلاء الذين عادوا الاسلام أكثر من عداوة الأوربيين).

لكن حملة عبد الله بن سعد بن أبى سرج كانت فى عام ٢٨هـ/٦٤٩م ففيها وصلت طلائع الجيش العربى الى أفريقيا(تونس) الذى كان يتكون من عشرين ألف من العرب وتوغل بهم حتى وصل الى تونس مرة أخرى وفوجئ بها جرير، فاستعد للقاء رنلاحظ من ذلك التاريخ الباكر ان كثيرا من البربر وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة قد انضموا للعرب وأسلموا للتقارب الاجتماعى بين الفريقين ونستنتج من هذا أن الكثيرين من اوائل البربر دخلوا فى الاسلام فى ذلك الوقت المبكر،ومن المعروف أن البربر مثلهم فى ذلك مثل الفرس وأهل الشام والمصريين كانوا من اوائل الشعوب اعتناقا للاسلام [١٩] .

وقد اتخذت تلك الحملة على الأرجح الطريق الساحلى [٢٠] ، ويلاحظ أن هذا الطريق قد أصبح المعبر التقليدى لحملات العرب العسكرية الى المغرب، اذ تحاشى هؤلاء المسلمون الصحراء فى الداخل وتعمدوا اتخاذ الخط الساحلى حيث المدن والركائز

(١٩) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ٦٨ .

(٢٠) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه، ص ٢٤٦ .

العمرانية والحضارية، وفى تلك الأثناء كانت أخبار تقدم الجيش العربى تصل الى مسامع حاكم أفريقيا البيزنطى جريجوس أو جرير حسب التعبير العربى وكان نفوذه يمتد ما بين طرابلس شرقا وطنجة غربا ويتخذ قرطاجة عاصمة له (٢١) فاخذ يعد للأمر عدته على أكثر من اتجاه فمن ناحية استنفز كل قوته التى تفوقت عدديا على القوات العربية حيث يقدر المؤرخون العرب قوة الروم بمائة الف أو مائة وخمسين ألف مقاتل،والذى لا شك فيه ان الجيش الرومى كان أضعاف الجيش لعربى وان كان معظم قوات العرب المكونة من عشرين ألف مقاتل من الفرسان وهذه حقيقة لها أهميتها (٢٢) ومن ناحية ثانية استطاع الحاكم البيزنطى أن يحمل مدينة طرابلس على العصيان والثورة فى محاولة منه لانهاك الجيش العربى قبل الوصول اليه وفعلا فوجئ العرب بتمرد المدينة فحاصروها ولكن خطة الحاكم البيزنطى لم تحقق هدفها المنشود لأن العرب رفعوا الحصار عن طرابلس وأثروا التوجه مباشرة الى معقل السيادة البيزنطية وفى مكان بعيدا عن الشاطئ وعلى مقربة من مدينة قديمة تعرف باسم سبيطبة حيث كان الحاكم البيزنطى حاشدا قوات كثيفة جرت معركة من أعنف المعارك فى تاريخ الحروب العربية البيزنطية وقتل جريجورس وعدد ضخم من جنوده وغرق الآخرون فى مختلف الاتجاهات وأسر وقتل الكثير من رجاله وفر الباقون الى الساحل وبدلا من أن يعقد عبد الله بن أبى سرج اتفاقا أو يضم هذه الناحية الى دولة الاسلام فيقيم فيها واليا ويترك حامية كما كانت عادة العرب.نجد عبد الله بن سعد يتفق مع اهل البلاد على جزية قدرها عشرين الف دينار (٢٠٠٠٠) ويعود الى مصر، وتخليدا لهذا الانتصار العظيم فى سبيطلة التى كانت من أهم المدن البيزنطية بعد قرطاجنة سيقيم العرب فى وقت لاحق بالقرب من هذا الموقع مدينة القيروان قاعدة أفريقية وعاصمة المغرب لامد طويل من الزمن، وبعد سبيطلة عاد عبد الله ابن سعد الى الفسطاط بعد غياب ستة

---

(٢١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ٣، ص ٤٤١ .

(٢٢) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه ، ص ٢٤٦ .

أشهر مكتفيا بما حققه من انتصار باهر دون أن تحمله نشوة النصر على الاستفادة من الظروف ومتابعة النشاط التوسعى فى هذه الجهات، ويبدو أن عبد الله خشى من تطويق البيزنطيين له وهو بعيد عن ولايته وعلى هذا فأن النتائج التى ستفسر عنها حملة سبيطلة لم تتناول أى تغير جديد فى الصراع على النفوذ فى المنطقة، فقد تراجع قائد الحملة بعد انتسار كبير دون أن يقيم مركزا عسكريا أو حامية مسلحة بل اقتنع بمجد النصر (٢٣) .

وأما من ناحية حصوله على ٢٠ ألف دينار جزية سنويا فربما كان هذا الرقم به خطأ قليل جدا وغير واضح كذلك لأننا لم نسمع من قبل أن أخذ العرب أتاوة من قوم ثم انصرفوا عنهم انما كانت عادتهم أن يأخذوا جزية مقررة ممن لا يرغبون فى دخول الاسلام من أهل البلاد المفتوحة،ولم تكن سبيطلة تخلو من نتائج مهمة فكانت ضربة قوية أصابت معنويات البيزنطيين فى صميمها وكان عليهم من الآن أن يحسبوا بدقة لكل مجابهة مع العرب وخاصة وأن غارتهم لاسترجاع طرابلس التى استعادها هؤلاء بعد انتصارهم فى سبيطلة ستنتهى الى فشل ذريع رغم تنسيق المواقف بينهم وبين حلفائهم من بعض القبائل البربرية.وعاد عبد الله بن سعد بن ابى سرج الى مصر فى أوائل ٢٩هـ/٦٤١م رغم هذا النصر،مما يدل على أن هذه المحاولات لم تكن رغبة حقيقية فى النصر حتى الفتح الى غايته انما هى مجرد تأمين لحدود مصر العربية وارهاب البيزنطيين فلا يفكرون فى الاغارة على حدود مصر من ناحية الغرب (٢٤) .

وقد يكون من اسباب عودة القوات العربية هذا الخلاف الحاد الذى نشب بين عبد الله بن ابى سرج وغيره من كبار أبناء الصحابة الذين كانوا معه وخاصة عبد الله بن الزبير،الذى تزعم الروايات أنه البطل الحقيقى لمعركة سبيطلة وهو أمر غير صحيح على الاطلاق،فوجد عبد الله بن سعد ابن أبى سرج أن خير ما يفعله هو أن يعود مسرعا الى

(٢٣) عبد الحميد العبادى: المجمل فى تاريخ الأندلس، ص ٢٦ .
(٢٤) حسن محمود: مرجع سابق، ص ٩١ .
(٢٥) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٣ .

مصر دون أن يترك حامية أو يقوم بأى عمل سياسى أو عسكرى أو بشئ أو يثبت شيئا من السلطان للعرب فى هذه الناحية (٢٥) .

ولم تكن الغزوة سهلة بل ان هناك أقوال تذكر أن أخبارها قد انقطعت عن عثمان بن عفان بعض الوقت مما جعله يقلق على مصيرها مما حداه أن يرسل قوات أخرى اضافية بقيادة عبد الله بن الزبير على رأس فرقة ليتعرف على ما تم من الامر فأدرك ابن الزبير، عبد الله بن أبى سرج وقد بلغ به اليأس مبلغا عظيما وأدرك أن مطاولة الروم فى الحرب ستنتهى بالمسلمين الى كارثة اذاكانت الامدادات الى الروم متوالية عن طريق البحر بينما المسلمون بعيدون عن مراكزهم فلم يجد بدا من الهجوم الساحق الذى نال منه المسلمون النصر الحاسم مما دقع بعبد الله ابن أبى سرج الى ان يرسل الى عثمان بالمدينة بعبد الله بن الزير ليبشره بالنصر وعجل ابن ابى سرج بالعودة الى مصر بعد أن أمضى بأفريقيا سنة وشهرين دون أن يترك حامية أو يقيم مدينة أو يعمل على استمرار خضوع المقهورين وقد تكون تلك الحملة قد استغرقت أربعة عشر شهرا وليس ستة شهور كما ذكر بعض المؤرخين (٢٦) .

ولكننا نلاحظ على أى حال أن هذه الهزيمة التى أصيب بها الروم كانت حاسمة الى حد ما،فلم تعد لهم قوة كبيرة هناك بعد ذلك لان ظروف الدولة البيزنطية كانت سيئة جدا اذ زال نتيجة لاضمحلال قوة خلفاء هرقل ونتيجة حاجة الدوله البيزنطية الى رجال أقوياء فى قلب الدوله ليعيدوا النظام ويقفوا فى وجه الزحف العربى الذى يجتاح بلادهم من كل ناحية (٢٨) .

بل ان ابن الاثير يذكر أن دور عبد الله بن الزبير الذى ربما ادعى النصر لنفسه لم

---

(٢٦) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٦ .

(٢٧) ابن الأثير: مصدر سابق، جـ ١ ، ص ٢١٢ .

(٢٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق، ص ٢٧ .

يقف دوره على مجرد حمل البشرى الى عثمان بن عفان بل سرعان ما أفشى ما اختص به عبد الله بن أبى السرج نفسه من الغنائم، فثار الناس على عثمان وزاد من سخطهم حيث وصلت الغنائم الى المدينة المنورة وتركها عثمان لآل الحكم فزادت من أسباب سخط الناس على عثمان وجاءت الفتنة بين على ومعاوية وانصرف الناس خلالها عن الفتح، وكانت حملة ابن سعد الى أفريقيا العمل العسكرى البارز فى عهد الخليفة عثمان باستثناء عمليات صغيرة على الاطراف الجنوبية من مصر ولم يقم بأى تحرك جديد فى هذه الجهة لأن الخلافة أغرقتها أزماتها الداخلية التى فجرها الصراع على النفوذ بين جماعة السلطة من الأقارب والأعوان وبين كبار رجال العسكريين والقوادالمبعدين فى الثكنات والحملات الحربية، وعكست هذه الحالة تأثيرها السلبى على السيلسة الخارجية للفتح والغزو بحيث أصيبت الجبهات المختلفة لاسيما الجبهة الافريقية بركود طويل استمر حتى الخلافة الراشدة ومجئ الأسرة الأموية بزعامة معاوية بن أبى سفيان لان السنوات الخمس التى أمضاها الخليفة الرابع على بن أبى طالب فى الحكم أخذت فيها الحرب الأهلية كل اهتمامه (٢٨) وبهذا فان العرب لم يقوموا بأى عمل فى أفريقيا حتى أيام معاوية بن أبى سفيان ولكننا نلاحظ أن نوعا من الوفاق والتعاون قد تم بين العرب والبربر، فمن ناحية أطمان البربر الى أن لهم فى المغرب حليفا قويا يستطيع حمايتهم من الروم اذ فكر هؤلاء فى العوده الى البلاد مرة أخرى،وعلى أية حال فقد أفاد البربر من ذلك الغزو فائدة كبيرة فقد استقلوا عن الروم ولم يعودوا يؤدون اليهم الجزية وكانوا يشعرون أن الروم اذا عادوا لن يلبث العرب أن يعودوا هم الآخرون وكل ذلك فى صالحهم (٢٩) .

ولقد كان ارتداد المسلمين عن تلك الأماكن سببه بداية الفتنة الاسلامية الكبرى فى عهد عثمان وبداية تزعزع مكانة هذا الخليفة فى نفوس المسلمين،ذلك لأن المسلمين

---

(٢٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٣ .

لم يلقوا السلاح ولم يكن من المعقول أن ينزلوا عن هذه الآفاق الجديدة التى يمكن أن تمتد اليها الدعوة الاسلامية،فما كادت الدولة الاسلامية تفيق من متاعبها بقيام الدولة الأموية حتى كان الخليفة معاوية ابن ابى سفيان أسرع الناس الى معاودة النضال ليكسب للخلافة الناشئة تأييد كافة المسلمين بسبب احياء حركة الجهاد الاسلامى فى سبيل الله وفى سبيل نشر العقيدة الاسلامية الخالدة (٣٠) .

معاوية بن أبى سفيان والفتوحات فى المغرب

أعيدعمرو بن العاص الى مركزه السابق كحاكم لمصر والتى كانت تلك التولية جزءا من التسوية التى اتفق عليها بين الرجلين فى صفين ولكن معاوية الذكى كان يقظا فى مراقبة واليه الطامع الى جعل مصر وما يتبعها ملكا آخر لا يقل بريقا عن سيده معاويه فما كاد يعود للفسطاط حتى أخذ يخطط لاتساع ولايته باتجاه الغرب والجنوب، لأن الانتصارات السابقه التى حققها فى مصر وبرقة وطرابلس،والسرعة التى تمت بها أعطته ثقة كبيرة فى نفسه ولم تدعه يخلد الى الاكتفاء بما حصلت عليه يداه فتاق الى التوسع والمزيد من السيطرة والثراء، وكانت تلك الحملات الدورية الصغيرة التى أخذت طريقها فى أكثر من اتجاه، فنجحت فى قمع حركات البربر الذين خضعوا فى وقت سابق للحكم العربى ولكن ولاءهم كان سطحيا، اذ كانوا يلجأون الى التمرد بين الحين والآخر،ثم انتشرت الى الجنوب وحققت السيطرة على بعض المواقع المهمة فى أرض السودان الأوسط وكان لواء هذه الحملات معقودا لعقبة بن نافع قائد الحامية فى برقة وقريب عمرو بن العاص (٣١) .

ورغم اهمية هذا الجهد الذى قام به عقبة بن نافع فان ذلك لم يدخل فى اطار

---

(٣٠) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٢ .

(٣١) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٢٨ .

العمل الجدى لاستئناف النشاط التوسعى فى المغرب،بل كان مجرد عمليات استطلاعية أو حملات وقائية شنها ضد قبائل البربر المذبذبة فى الولاء للحكم العربى،غير أن هذه الحملات ستكون بدون ريب مقدمة للفتح المنظم الذى كان رائده وفارسه عقبه بن نافع، وهكذا انحصرت جهود حاكم مصر فى اطار ضيق لا يتناسب فى كل الحالات مع طموحه الكبير الذى عاد به الى ولايته، ولعل تقدم عمرو بن العاص فى السن خذل هذا الطموح وأعاق أحلامه التوسعيه فى هذه المنطقة وتشاء لعبة الحظ أن تقف دائما الى جانب خليفة دمشق معاوية بن أبى سفيان فينتهى من حليفه الخطر عمرو بن العاص بموته بعد سنه واحدة من اتمام عقبة بن بنافع مهمته فى الجنوب ٤٤هـ/٦٥٥م أول قرار تتخذه الخلافة الامويه فى أعقاب وفاة عمرو بن العاص هو الفصل بين ولاية مصر وبين ولاية أفريقيا (كان هذا هو الاسم الشائع فى ذلك الوقت عن بلاد المغرب) التى تصبح مستقلة ومرتبطة مباشرة بعاصمة الخلافة، وقد استمر هذا القرار ساريا حتى عام ٥٠هـ/٦٧٠م عندما عين مسلم بن مخلد واليا على المغرب ومصر [٣٢] .

وهكذا شهد عصر عمرو بن العاص الثانى محاولات صغيرة فى أفريقيا عبارة عن سرايا صغيرة وكانت وفاة عمرو بن العاص فرصة لكى يقوم معاوية بن أبى سفيان بتعيين معاوية بن جديج لقيادة الفتح الافريقى [٣٣] .

كما أنه يلاحظ أنه خلال الفتنة بين معاوية وعلى بن ابى طالب والتى استمرت خمس سنوات،كانت الدولة الرومانية تعانى عوزا ماليا من جراء فقد مصر والشام فأرهقت بقية اجزاء الدولة ومنها شمال أفريقيا بالضرائب فكان ذلك من أسباب سخط الاهالى، ولذا تقول المصادر العربية أن معاويةابن جديج وصل الى أفريقيا وهو ثائر مضطرم فسار قرب

(٣٢) الطبرى: تاريخ الطبرى الأمم والملوك، جـ ٦ ص ١٣٤ .

(٣٣) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٢ .

الساحل فى عشرة آلاف رجل ولم يلبث أن وصل الى تونس واستوطن فى مكان بالقرب منها وأرسل عبد الله بن الزبير يناوش الروم فانهزموا أمامه واستولى على حصن جلولاء ومن هنا كان استقرار الأمر لمعاوية عام ٤١هـ/٦٦١م والذى يسمى عام الجماعة بدايه لحركة الفتوح الاسلاميه فى افريقيا ولو اراد الروم أن يعودوا لافريقيا خلال تلك الفترة لتمكنوا من ذلك بسبب انشغال العرب بالفتنة لكن العوز المادى كان سببا فى عدم تفكير الروم فى ذلك حيث أنهم لم يستطيعوا ذلك بصورة فعالة،فقد أرسل الروم بطريقا جديدا يسمى «جنا ديوس» حاول أن يفرض سلطانا روميا على أفريقيا فعجز عن ذلك ثم اختلف مع رجل من قواده ولجأ بعد ذلك الى العرب وذهب الى الفسطاط والى دمشق كما يقال واستحث معاوية بن ابى سفيان على اتمام فتح افريقيا وقد تكون هذه الرواية «أسطورة»، ولكن المهم أن معاوية إرسل عام ٤٥هـ/٦٦٥م جيشا يقوده واحد من كبار رجال معاوية هو معين بن خديج حيث صدر له قرار بأنه يكون الحاكم الجديد لولاية أفريقيا المستجدة وأمره بالتحرك الى برقة لاستلام مهام منصبه ومعه اوامر مشددة باستئناف الأعمال العسكرية فى الجنوب، وبعد وصوله الى الفسطاط وقف معاوية بن خديج على دقائق الموقف،فى وقت كانت الدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور قسطنطين الثانى تعمل على اعادة نفوذها على افريقيا بعد الضربة التى كسرت شوكته فى سبيطلة فأخذت فى حشد قوات كثيفة لاستعادة ما خسرته هناك [٣٤] .

وبناء على ذلك فان حملة ابن خديج هى حملة أمويه الطابع تمت بعد أعوام من انتقال الحكم الى الأمويين وقد كانت تلك الحملة تشبه الى حد ما حملة عبد اللة بن سعد ممن شارك فيها من الأسماء المعروفة كعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وغيرهم ولكنها كانت أقل كثافة من الحملة السابقة التى قام بها عبد الله

(٣٤) ابراهيم بيضون: مرجع سابق: ص ٢٩ .

(٣٥) ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب: جـ ١ . ص ١٦ .

بن سعد بن ابى سرج حيث كان يبلغ عدد افرادها عشرة آلاف مقاتل وكان الخليفة معاوية بن ابى سفيان قد أعدهم من نخبة الجند ذوى الخبرة والمعرفة بشئون أفريقيا (٣٥) وسار معاوية بن خديج السكونى حيث غادر الاسكندرية الى المغرب متخذا الطريق التقليدى الى برقة فطرابلس دون ان يصطدم بعقبات او مفاجات فى هذه النواحي التى بات الحكم العربى فيها مستقرا راسخا وكانت وراء ذلك بشكل رئيسى الجهود الذاتية التى قام بها عقبة بن نافع أحد قواد هذة الحملة وتوقف الجيش اخيرا فى قونية الواقعة الى الجنوب من قرطاجة وقد وصفها ابن الحكم بأنها تحتل الموقع الذى قامت عليه القيروان (٣٦) ومعنى ذلك بأن حملة بن خديج سلكت طريق الحملة السابقة وانتهت الى نفس المكان تقريبا. ولما وصل بن خديج الى افريقية وجد ان الروم قد نزلوا البلاد فى ميناء سوسة يقودهم قائد يدعى «نقفور»فلما سمع الروم بمجئ العرب اسرعوا الى سفنهم واستولى ابن خديج على بعض المراكز الرومية القوية (٣٧) .

وفى تلك الاثناء تتنامى الى مسامع البيزنطيين أثناء التحرك العربى وكانت قرطاجة تفج حينئذ بالافواج القادمة من جنودهم بقيادة نقفور Neciphore الذى يبدو انه أرسل فى نفس الوقت حاكما على أفريقية البيزنطية فى اعقاب اضطرابات نالت كثيرا من سيادة البيزنطيين فيها،ولكن الحاكم الجديد لم يكن كما يبدو قادرا على انقاذ هذه السيادة لان الروح المعنوية لدى مقاتليه لم تكن بالمستوى المطلوب فبعد سلسلة من المناوشات الخفيفة تقدم الجيش الأموى ليتخذ عسكره فى جبل القرن وقام أحد قواده ومعه مجموعه من الفرسان بهجوم جرئ على مواقع الجيش البيزنطى قرب سوسة وهى مدينة ساحلية غير بعيدة عن القيروان فأحدث هلعا فى صفوف البيزنطيين الذين تهافتوا مذعورين الى سفنهم

---

(٣٦) ابن عبد الحكم: المصدر نفسه: ص ٢٦١ ،

(٣٧) حسين مؤنس: مرجع سابق . ص ٣٤ .

(٣٨) ابن عذارى: المصدر نفسه جـ ١. ص ١٦ .

التى حملتهم الى قاعدتهم الرئيسيه فى البحر المتوسط(صقلية)دون حدوث أدنى اشتباك بين الطرفين [٣٨] واعقب القائد الأموى معاوية بن خديج هذا النصر بعمل آخر لم يكلفه من الجهد كثيراحين عهد الى أحد قواد هذه الحملة وهو عبد الملك بن مروان بمهاجمة احد الحصون البيزنطية المهمة وهو حصن جلولاء Gouloulis (جلولوس) على مسافة نحو عشرين ميلا من القيروان وتمكن عبد الملك من الاستيلاء على ذلك الحصن دون أدنى مقاومة تذكر،ويقال أن عامل الصدفة ساعد العرب فى عملية الاستيلاء اذ أن احد اسوار هذا الحصن قد سقط فجاة وهو الأمر الذى مهد الطريق للقوات العربية لاختراقه وكانت القوات التى تصدرت للغزوة الاسلامية عام ٤٥ﻫ بقيادة معاوية بن خديج قد قدمت من صقلية بقيادة نقفور من صقلية ونزلت على الساحل التونسى،فانهزم البيزنطيون وأقلعوا بسفنهم من البحر ولم يكتفى معاوية بن خديج بما أحرزه من انتصارات على البيزنطيين وانما عزم على مهاجمة جزيرة صقلية قاعدتهم فى البحر تجاه افريقية والمركز الرئيسى الذى تصدر منه غارات البيزنطيين على الساحل الافريقى فكان معاوية ابن خديج بذلك اول عربى يقوم بغذو صقلية [٤٠] وذكر بن عذارى المراكشى أنه دفع جيشا فى البحر الى صقلية فى مائتى مركب فنهبوا وغنموا واقاموا شهرا ثم انصرفوا الى افريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام متطمومة بالجواهر فاقتسموا معهم [٤١] ، بل أن هناك أخبار عن قيام معاوية بن خديج بعمليات عسكرية اخرى كهجومه على بعض مدن الساحل فى الشمال وهجومه على جزيرة صقلية متتبعا القائد البيزنطى المهزوم ولعل أمر الهجوم على صقلية يحتاج الى تدقيق أكثر قبل الأخذ به خاصة وان الوقت الذى ذكر أن حدث عام ٤٦ﻫ لم يكن سلاح

---

(٣٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦١ .

(٤٠) البلاذرى: فتوح البلدان . جـ ١ . ص ٢٧٨ .

(٤١) ابن عذارى: مصدر سابق. جـ ١ ص ١٧ .

البحرية الحربى لدى العرب قد اتخذ اطاره الجدى والمتكافئ مع سلاح البحرية البيزنطية،كما لم يكن العرب قد أنشأوا قاعدتهم الافريقيه القيروان فيكون أمر المطاردة البحرية فى البحر ميسورا فضلا عن أن حملة معاوية بن خديج كانت حملة برية وسلكت طريقا برية ثم عسكرت فى مكان يبعد عدة أميال من البحر (٤٢) .

لكن هناك اراء تعكس تلك الاقوال وتدل على قيام البحرية الاسلامية بالغزو فى البحر وان العرب غزوا صقلية ورودس بعد ذلك بعدة أعوام قبل ٤٦هـ وفى ذلك فان معاوية بن ابى سفيان قد بعث معاوية بن خديج فيما يقرب من ٢٧هـ – أو ٢٨هـ فى خلافة عثمان بن عفان لغزو رودس وصقلية ويرجع ان ابن عذارى المراكش قد أخطأ فى النقل عن البلاذرى فذكر عام ٤٦هـ وصحتها فى رأيه ٢٦هـ ويستند فى ذلك الرأى على ما ذكره أمارى ميخائيل استنادا الى البلاذرى عن قيام معاوية بن خديج بغزو رودس وصقلية فى عام ٣٢هـ – ٦٥٢م فى مائتى سفينة مما دعا قسسنطائى الثانى الى نقل عاصمته الى سرقوسة بصقلية صيانة لاملاكه فى أفريقية وصقلية وايطاليا من الغزو العربى ، ويذكر ان معاوية أرسل ابن خديج عام ٤٩هـ لغزو صقلية (٤٣) .

وهكذا اتيح لمعاوية بن خديج ان يدفع باستراتيجية الفتح العربى للمغرب خطوات عريقة الى الامام فقد كانت هزيمة البيزنطيين الذليلة والمواقع العسكرية المهمة التى افتقدوها بداية الاختلال الواضح فى موازين القوى بين العرب والبيزنطيين فى افريقية ورغم أن القائد الأموى معاوية ابن خديج قد ارتكب نفس الخطأ الذى وقع فيه القائد عبد الله بن سعد ابن أبى سرج بعودته دون القيام باجراءات عسكرية أو ادارية تضمن استمرارها

(٤٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٣١ .

(٤٣) ارشباليدلويس: القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ٩٤ .

فى ظل الحكم العربى الا أن ذلك لا يحرم هذا القائد من دوره المؤثر لخلق أجواء أفضل فى عملية انتزاع المبادرة من البيزنطيين والسيطرة على المغرب، وهكذا فانه فى هذه المرة لم يترك العرب عاملا فى تلك البقاع بل انسحبوا الى مصر وتعتبر غزوة معاوية بن خديج غزوة من الغزوات التمهيدية التى قام بها فى المغرب قبل أن يتخذوا قرارا نهائيا بفتح هذه البلاد فتحا دائما وثابتا (٤٤) وقد تكون هذه الحملة نهاية مرحلة الاستطلاع داخل الاراضى الافريقية، ولم يستمر معاوية بن خديج طويلا فى منصبه، فقد صدر قرار من الخلافة الاموية بعزله عام ٤٨هـ-٦٦٩م على الارجح أختار الخليفة الاموى القائد عقبة بن نافع الفهرى الذى عرفته الجبهة الاسلامية واحدا من فرسانها المنتصرين الشغوفين بالجهاد، ومن المستبعد أن يكون لقرار العزل علاقة بالتقصير الذى وقع من القائد السابق ولكن ابن خديج كان قد اختير لمهمة محددة وأنجزها كما أريد له انجازها ضمن ظروف لم تكن ملائمة على الارجح والنظام الاموى فى بداية لسنوات العمل أكبر حجما ومن ناحية ثانية فان الدولة قدرت له جهوده فعينته واليا على مصر فى وقت لاحق غير أن ذلك لم يستمر طويلا فعزل وعين بدلا منه مسلمة بن مخلد على مصر وأفريقية معا (٤٥) وليس هناك أدنى شك فى أن اختيار الخلافة الاموية فى دمشق لعقبة بن نافع الفهرى تعتبر مؤشرا لتطور جديد فى استراتيجيه الفتح العربى والاسلامى فى المغرب ونابعا من قناعة تامة بأن القائد الجديد سوف يغير من استراتيجية الوجود الاسلامى فى المغرب كما أن القائد الجديد وليس غيرة رجل المرحلة المستقلة التى تحتاج اليها مرحلة الفتوح الواسعة والاستقرار النهائى للوجود الاسلامى فى المغرب والتى تنتهى معها حرب استنزاف والسرايا العادية ولنبدأ مرحلة ذوى الكفاءات القتالية العالية والروح المجاهدة وأحد فرسان الجبهة الذين شاركوا فى حركة الفتوح السابقة حيث كان الاول الذى قاده عمرو بن العاص عام

---

(٤٤) حسين مؤنس مرجع سابق ص ٣٤

(٤٥) الطبرى: مصدر سابق. جـ ١ ص ٢٣٤ .

٢٢هـ-٦٤٣م لفتح برقة وطرابلس قد ضم قائدا يسمى نافع بن عقبة ابن القيس الفهرى وكان زوج أخت عمرو بن العاص،الذى كان قد عهد اليه عمرو بن العاص بعد أن فتح طرابلس بأن يسير بقوة الجند نحو الجنوب للاستيلاء على اقليم فزان الواقع جنوب طرابلس على بعد ٨٠٠ كيلو متر فى الصحراء وكان معه فى الحملة هذه ابنه عقبة بن نافع بن القيس الفهرى كان صبيا في العاشرة وترك العرب فى فزان حامية صغيرة من الجند كان من بينهم نافع بن القيس الفهرى وابنه عقبة وخلال فترة الفتوح ظل عقبة مع الجند فى هذه النواحي ينتقلون ما بين برقة وفزان وودان وزويله من مراكز الصحراء وفى هذا الجو نشأ عقبة بن نافع نشأة جهاد وتمرس بشئون القتال وتحول الى شخصية عربية افريقية شديدة الاتصال بشئون المغرب ووثيقة العلاقات بالعرب والبربر فى نفس الوقت (٤٦) ولهذا فبعد عودة معاوية بن خديج من المغرب بثلاث سنوات اي فى عام ٤٨ه-٦٦٩م نجد معاوية بن ابى سفيان يقوم بعزل معاوية بن خديج ويولى قيادة الفتوح فى المغرب الى عقبة بن نافع الفهرى ويرسل قوة عسكرية من بلاد الشام والفسطاط للقيام بذلك العمل وهنا تبدأ الفتوحات الحقيقية لافريقية والمغرب لان عقبة بن نافع يعتبر أكثر العرب معرفة بافريقية وشئونها فى ذلك الوقت طول خبرته بشئونها وأنه عندما قام بحملته الاولى على افريقية كانت لديه فكرة واضحة عن المغرب وما ينبغى عمله لفتحه فتحا ثابتا .

عقبه بن نافع رائد الحملات المنظمة فى المغرب وتأسيس(بناء) مدينة القيروان(٥٠-٥٥هـ/ ٦٧٠- ٦٧٥م) :

يعتبر عتبة بن نافع أول فاتح عربى يدخل هذه البلاد على رأس جيش وفى ذهنه فكرة واضحة عما ينبغى عمله لتحويل أعمال الفتوح فى افريقيه من غزوات تروح وتعود

(٤٦) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦٤ .

بغنائم فحسب بل الى فتوح منظمة ترمى الى انشائ ولاية افريقية ومد حدود الاسلام غربا وادخال البربر فى الاسلام، وكان العرب قد أرادوا معاودة الكرة واثقين فى الفوز والنصر وأن يغيروا خططهم ونظمهم فى الحرب من أساسها فقد كان عدوهم البيزنطى يعتمد فى معركة المغرب على ثلاثة عناصر قوية أولها:أسطول بحرى ضخم بقواعد ثابتة وراسخة فى صقلية وموانئ أفريقيا وسلسلة عظيمة من الحصون الساحلية القديمة ممتدة من حدود أفريقيا (برقة) حتى طنجة على المحيط الأطلسى وتتعاون كلها فى صد المغيرين وردهم على أعقابهم،وثانيا : تأثير سكان السواحل وهم القبائل المغربية المقيمة بالسهول الساحلية والتى كانت قد اعتنقت المسيحية ونشرت الثقافة الرومانية [٤٧] حيث كانت القبائل البربرية الداخلية قد أعلنت ولاءها للعرب والمسلمين،وفعلا عاد العرب الى المعركة مرة أخرى عام ٥٠ﻫ بخطة جديدة لمواجهة تكتيك العدو وخططه.ويتفق المؤرخون على أن الحملات العسكرية المنظمة التى استهدفت فتح المغرب. انما بدأت مع عقبه بن نافع الفهرى الحاكم الجديد لولاية افريقيا وأما تاريخ ذلك الفتح المنظم فيتأرجح بين عام ٤٩و٥٠ﻫتبعا للروايات المختلفة وان كان أكثر المؤرخين يتفق على أنها عام ٥٠ﻫ/٦٧٠م ولعل الخلط والالتباس فى التاريخ يعود الى حادثة تعيين عقبة بن نافع الفهرى قائدا عاما لجبهة المغرب وبين السنة التى تحركت فيها القوات العربية الاسلامية لفتح المغرب وتنفيذ المهمة التى أوكلت اليه وان كان الأقرب الى الحقيقة بعد مقارنة مجمل الروايات أن التاريخ الثانى وهو عام ٥٠ﻫ/٦٧م [٤٨] هو الاقرب للصواب والدقة العلمية وان الغرض من ذلك هو توخى الدقة العلمية ومتابعة النشاط الاسلامى التوسعى لهذا القائد الذى تعلقت علية الآمال لتحويل المغرب كافة الى ولاية عربية اسلامية تشارك فى حركة الحياة الاسلامية

(٤٧) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٥ .

(٤٨) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦٤ .

فيما بعد.

وكانت نفس عقبة قد تعلقت بالفتوح فنمت مواهبه الحربية وانه تحول على مدى الايام الى شخصية حربية دينية لا تميل الى غير الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل اعلاء كلمة الدين الاسلامى ورفع راية(لا اله الا الله محمد رسول الله)خفاقة عالية فى كل الافاق وقتال المشركين، وقد عاد عقبة بن نافع الفهرى فاتح افريقية والمغرب وفى ذهنة أمور ثلاثة لاحرز النصر فى هذه المعركة الحاسمة واولها تجنب الطريق الساحلى بأية وسيلة مع محاولة التقرب الى أهل البلاد الاصليين من البدو الذين يكرهون الحكم البيزنطى والنظام الرومانى الاغريقى،وبذلك يطوق الثغور الساحلية من اسفل ويتجنب خطر الاسطول البيزنطى [٤٩] .

وكذلك العمل ثانيا على انشاء قاعدة للغزو الاسلامى تكون قاعدة الحكم والإدارة بحيث تكون بعيدة عن البحر بالقدر الذى يجنبها خطر مهاجمة الاسطول البيزنطى وبحيث تكون قريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الواقعة من خلفها ويتجمع فيها المقاتلة من مصر وغيرها من البلاد الاسلاميه وتحشد فيها المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة تنطلق منها القوات العربية الاسلامية الى بلاد المغرب كلها وكما سبق القول فأن عقبة بن نافع الفهرى تحول مع الزمن الى شخصية مجاهدة متصوفة نذرت نفسها للفتوح الاسلامية، وعندما وصله الامر بولاية افريقية فانه كان أكثر جنوبا فى تلك الانحاء حيث كان فى زويله قرب فزان فانه تهفى الى افريقية هناك عام ٥٠هـ/ ٧٦٠م وسار الى أرض فزان ففتحها ووصل الى ساحل البحر الابيض المتوسط وهناك تقابل مع القوة العسكرية التى أرسلها الخليفة الاموى معاوية بن أبى سفيان للعمل تحت امره، وبدأ القائد الجديد تحركه العسكرى بسلسلة من الحملات الناجحة الى غدامس حيث يبرز هنا

(٤٩) ابن عذارى: البيان المغرب. جـ١ ص ١٢ .

اسم زهير بن قيس البلوى حاكم افريقية فى عهد مروان بن الحكم وفى ظل زهير هذا تم اخضاع مدينة غدامس ومعه حامية من الجيش العربى كمؤشر للاستراتيجية الجديدة والاحتفاظ بالارض وعدم مغادرتها وهى الخطة التى اتبعها عقبة وهى الاحتفاظ بالارض وليس الغزو فقط كما حدث فى الماضى وبعد غدامس خضعت فزان وعاصمتها زويلة بالاضافة الى عدد من المدن الهامة الواقعة فى المغرب الادنى (٥١) .

وكان قد سار الى الشمال بعد فتح فزان وغدامس ولكن ما يستلفت النظر فى هذه الحملة أن قبيلة لواتة قد قاوموه مقاومه شديدة لم يستطيع عقبة أن يتغلب عليها الا بعد فترة وحاصرها محاصرة جبارة وبذلك استطاع أن يأسر من أفرادها أكثر وأن يسبى اكثر من نسائها فترة فتحولت لواته فى هذا الوقت عن برقه وسارت الى المغرب وسكنت جبال نفوسة حيث قاومت الفتح الاسلامى حين وصل اليها،وقد علمت هذا الحادثة عقبة بن نافع أن أهل المغرب يسرعون الى المهادنة مع المسلمين لكنهم يكونون أيضا أكثر سرعة فى نقض عهدهم معهم فلم يجد عقبة أقل من يختط مدينة يقيم فيها المسلمون فسار مكان القيروان واختطها وهى تقع فى سهل نصف صحراوى غير بعيد عن الساحل وبذلك تعتبر هذه الحملة بدء المرحلة الثانية من مراحل الفتح الاسلامى واتخذ الجيش الاسلامى من هذا لمدينة نقطة وخط دفاع أول عن الاراضى التى تقع الى الشرق منها ومقدمه للهجوم الى الاراضى التى تقع الى الغرب منها (٥٢) وكان عقبة قد وصل الى افريقية واتجه راسا الى قرب موقع سبيطلة وكان قد قرر انشاء عاصمة أو مركز عسكرى للمسلمين فى افريقية فاختار موقعا يقع الى الشمال قليلا من سبيطلة التى وقعت عندها المعركة المشهورة زمن عبد الله بن سعد بن أبى سرج وبدأ فى اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين.

(٥٠) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٣ .

(٥١) بن عبد الحكم: مصدر سابق. ص ٢٦٥ .

(٥٢) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى. ص ١٤٣ .

ولقد كانت شخصية عقبة القوية العسكرية والمجاهدة فى سبيل الله أثرها الفعال والقوى فى نفوس البربر والذين تهيبوا شخصية عقبة القوية وجسارته فلم يجدوا مفرا من الخضوع والولاء له وللمسلمين والذين أحسوا بدفء الاخوية معهم وحسن العشرة.

ولذا فان عقبة بن نافع بعد هذا الولاء فى تلك المنطقة التى يمكن أن نطلق عليها المغرب الادنى بدا بفكر فى الخطوة التالية وهى الاكثر اهميه وهى الشروع فى ترسيخ ودعائم وأسس اليادة العربية الاسلامية على أرض المغرب (٥٣) .

وذلك لضمان استمرار المحافظه على تلك المكاسب داخل الاراضى المغربية والعمل على تثبيتها ولقد كانت الفكرة التى سبقت كل مشاريع عقبة الحربية ترمى الى انشاء قاعدة للعرب والمسلمين فى قلب البلاد التى تمت السيطرة عليها وذلك من أجل تحقيق هدفين أولهما عسكرى يرمى الى أيجاد حامية ثابتة تعطى عمليات الهجوم فى أطراف المغرب من جهة وتؤمن الخطوط الدفاعية للحكم العربى من جهة ثانية وثالثها أن تكون مركز استقطاب لكل الاعمال التى تنطلق منها بالدعوة الاسلامية بين البربر لنشر دين الله القويم بين الشعوب والقبائل الوثنية وكذلك لتكون ركيزة لصنع الاجيال المستقبلية من البربر التى تنصهر بحكم المصاهرة والتزاوج مع العرب فى اطار واحد هو الاسلام (٥٤) .

ويبدو ان الظروف السياسيه كانت مواتيه فى ذلك الحين لانصراف البيزنطيين عن التصدى بصور جدية لمشاريع عقبة التوسعية الى معالجة مشاكلهم بعد مقتل الامبراطور قستنطين الثانى الذى عرف بسياستة العدائية للعرب والمسلمين ومن ثم تفرغ خليفته الى الاهتمام بحركة التمرد التى قامت فى صقلية احدى ولايات الامبراطور ومن هنا كانت الظروف ملائمة ومناسبة بكل المقاييس للنفوذ العربى الاسلامى فى تلك المنطقة فلا

---

(٥٣) ابراهيم بيضون : مرجع سابق. ص ٣٤ .

(٥٤) ابراهيم بيضون: مرجع سابق. ص ٣٤ .

مواجهة بيزنطية طاهرة ولا مقاومة من البربر الذين كانوا اقرب الى الالتقاء مع العرب فى خندق واحد ضد البيزنطين أكثر من الرفض للوجود الاسلامى والذين احسوا منه بالقرب والجذابية أكثر من الاستعمار البيزنطى ذلك لا الوجود البيزنطى لم يعكس تأثيره القوى عقائديا أو حضاريا على طبيعة البربر الذين كانت علاقتهم بالبيزنطيين علاقة سطحية بل عدائية .

ومن هنا فأنه لم يبق امام القائد العربى (عتبة بن نافع) سوى اختيار المكان المناسب لهذه القاعدة الاسلامية العربية الامامية والعسكرية التى قرر انساءها ولكن ذلك لم يأخذ من وقته الكثير لان المبدأ العام الذى اعتمده العرب فى هذا المجال أن تقام هذه القواعد على مسافة ما بين خط المواجهة مع العدو لتكون خطوطهم الدفاعية فى مأمن وتكون ظهورهم محمية بالعمق من الاراضى لتسهيل حرية الحركة الاسلامية فى المستقبل وهكذا كان اختيار القيروان والذى ربما يكون من المحتمل ان الاسم ماخوذ من اصل فارسى وهو يعنى القافلة وهو الاسم الذى عرفت به قاعدة عقبه بن نافع الفهرى وهى بالتحديد تقع الى الجنوب من قرطلجه الميناء والبيزنطى وهى فى احدى الوديان ذات الاشجار الكثيفة غير البعيده عن الساحل وهى الى الغرب بمسافة اقل من سوسة المدينة التى سقطت أثناء حملة بن خديج وقد كان انشاء مدينة القيروان من اهم الاحداث فى تاريخ الفتح الاسلامى لهذه البلاد وفى انتشار الاسلام والثقافة العربية فى المغرب [٥٥] فقد كان انشاء القيروان معناه ان معالم ولاية افريقية اخذت تتفتح منذ انشاء هذه المدينة اذ بدأت تصبح مقرا للولاة والعمال وغيرهم من ذوى السلطات واصبحت الاقامة بالقيروان أول ما تتجة اليه أبصار الوالى الجديد بعد أن كان أول الامر يتطلع الى مصر ويتعجل العوده اليها وكان انشاء القيروان مؤذنا ببدايه عهد جديد فى تاريخ البلاد ذلك أن مدينة القيروان أصبحت قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الاسلام وقد استغرق العمل فى القيروان وبناءها أربع

(٥٥) حسن محمود : مرجع سابق. ص ٩٣ .

سنوات وكانت أولى معالمها دار الامارة أو مركز الحكم والمسجد الذى حمل اليوم اسم القائد العربى عقبة [٥٦] ثم انتشرت حولها المساكن تدريجيا فضلا عن الاسوار ونمت المدينة بسرعة مدهشة يساعدها الموقع الجغرافى فى منطقة من الاشجار والمراعى ومن الناحية الاستراتيجية كانت على امتداد الخط البرى الذى يصل بينها وبين الفسطاط وينأى بها عن أى خطر من جانب البحر.

وتأخذ القيروان دورها المرسوم فتنطلق منها الحملات الصغيرة التى عرفت عند العرب بالسرايا فى وقت واحد مع بناء القاعدة،فلم يكن الجيش منهمكا بكامل عناصره فى هذا العمل بل كان فريق منه يشق طريقة الى المناطق المجاورة فى مهمات عسكرية والدعوة للدين الاسلامى بين الاقوام البربر وقد حققت الدعوة الاسلاميه فى ذلك المجال نجاحا ملحوظا فشخصية عقبة شخصيه قياديه وحراره الحماسة لدى المقاتلين من جانب وفراغ الساحة من اى تحرك بيزنطى مضاد من جانب آخر وهذا كان له وقعة المؤثر فى نفوس البربر الذين يهرتهم المعنويات المرتفعه للجيش العربى الاصرار على خوض الصعاب .

وتذكر بعض الاراء ان مدينة القيروان سميت بهذا الاسم حيث انه لفظ فارسى معرب ويعنى المعسكر او مستودع السلاح، ولقد قدر لتلك المدينة ان تصبح جليلة ومباركة وبالفعل قدر لذلك المصر الصغير ان يصبح من اكثر المراكز الاسلامية وبركة على الاسلام واهله فقد تحولت القيروان بسرعة الى قاعده اساسيه ودينية وفكرية للاسلام فى افريقية،وقد تحرى عقبة بن نافع أن تكون المدينة ملائمه لمطالب العرب فى ذلك العصر وقد كان لهم ما لديهم فى ذلك الوقت من الخيل والجمال ومن سلاحهم الاكبر فى عمليات الفتوح،فكانوا يهتمون بان تكون الامصار او المراكز التى ينشئونها وسط اقاليم المراعى تسرح فيها الخيول والجمال فى غير اوقات الحرب [٥٧] .

---

(٥٦) ياقوت الحموى: معجم البلدان جـ ٧ ص ١٩٤، البكرى مصدر سابق ص ٢٢ .

(٥٧) الدباغ: مالم الايمان فى معرفة أهل القيروان. ص ٣٨ .

لذلك فان القيروان شهدت وفود كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم والذين قاموا بها يفقهون الناس بشئون دينهم كما دفن كثيرون من الشهداء لذا نجد الكتاب والرواه يخلعون عليها ثوبا من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الخرافات ومن ذلك قولهم ان موضع القيروان كان غابة واشجار،فقام عقبة بتمهيد الارض وقطع الاشجار وتحكى الاساطير أن عقبة بن نافع قام بكرامات اثناء انشاء تلك المدينة فأمر الرحوش والهوام التى كانت فى الاحراش بأن تخرج لان المسلمين ينشئون مدينة رسول الله ﷺ فخرجت الوحوش والهوام من تلقاء نفسها وبذلك أصبحت مدينة القيروان [٥٨] .

ويعتبر انشاء مدينة القيروان بدايه تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، فالى جانب الجيوش والبعوث التى كانت تخرج منها للغزو والفتح كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا فى البلاد يعلمون العربية وينشرون الاسلام، بل ان الدور الذى لعبته مدرسة القيروان فى ادخال البربر فى حظيرة الاسلام لا يقل عن الدور الذى لعبة الفاتحون [٥٩] وهناك اراء تذكر ان قيام مدينة القيروان لا يعنى قيام ولاية مستقلة فى افريقيا،بل ظل هذا الجزء من افريقيا دائما تابعا لمصر وكانت اموال مصر هى التى تمول ما يرسل من حملات وما يتطلب من مصاريف ولكن بناء مدينة القيروان رفع من روح المسلمين المعنوية وساعد على نشر الاسلام بين البربر ومن ثم اصبحت تلك المدينة نواة افريقيا الاسلامية،ولابد ان نذكر انه كانت فى افريقيا فى ذلك الحين عاصمة اخرى وهى مدينة قرطاجه وكانت ميناء وهى عاصمة الروم الذين تلاشت قوتهم السياسيه والعسكرية ولكن قرطاجة وبقية مدن الساحل مثل: قابس وسوسه ظلت عامرة بالروم والافارقه وغيرهم من سكان الشريط الساحلى والمهم لدينا اننا لم نلاحظ اى وجود فعلى للروم اثناء عمليه انشاء القيروان التى دامت ما بين اربعة او خمس سنوات ٥٠-٥٥هـ/ ٦٧٠-٦٧٥م،وبعد فراغ عقبة بن نافع،

---

(٥٨) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٣ .

(٥٩) حسن مؤنس: فتح العرب للمغرب . ص ١٤٦ .

من انشاء تلك القاعدة بدأ يستعد لمواصلة الفتوح اذ انه اطمأن الى انه انشأ للمسلمين قاعدة يحكم منها البلاد التى يفتحها وتخرج منها الغزوات ومعنى هذا فان عقبه بعمله جعل افريقيا ولاية اسلامية جديدة لانه مادام انشأ بها مسجدا جامعا ودار للامارة فقد اصبحت المنطقة كلها جزءا من الدولة الاسلاميه ولا يجوز للمسلمين بعد ذلك ان يتخلوا عن هذه الناحية وبالفعل كان من الممكن للعرب قبل ان ينسحبوا من افريقيا الى برقة او مصر كما كانوا يفعلون من قبل اما الان فلابد لهم ان يثبتوا فى هذه الناحية وان فقدوها لسبب ما فيجب عليهم ان يستعيدوها مرة اخرى لانها جزء من الديار الاسلامية [٦٠] .

ومن هنا فانه يبين لنا اهمية العمل الذى قام به عتبة بن نافع الذى يعتبر بحق اعظم فاتحى المغرب وواحد من اكبر بناة الدوله الاسلامية ولا يقارن عتبة فى هذا المجال الا بعتبة ابن مسلم الباهلى. الذى تولى مهمة مماثلة فى الجناح الشرقى للدولة الاسلامية واليه يرجع الفضل فى التغلب على مقاومة الاتراك الوثنين وفتح بلادهم للاسلام والوصول به الى كأشغر فى أقليم ستكيانج فى غرب الصين الحالية وكان عقبة وعتبة معاصرا كل منهما للاخر فالاول وصل بحدود دولة الاسلام الى اقصاها غربا والثانى الى اقصاها شرقا [٦٢]، ورغم انه لم تتح الفرصة لعقبة لاتمام ما بدا تنفيذة من فتوحات فى بلاد المغرب وكذلك لاتمام السياسة الحكيمة التى وضعها غير أن سياسته هذه أصبحت دستورا لمن أعقبه من القواد والفاتحين الذين جاءوا بعده الا أنها كانت أكثر السياسيات ملاءمة لاحوال أفريقية [٦٣].

وفى غمرة ذلك الشعور بالنجاح فى تثبيت الاقدام العربية الاسلامية فى بلاد المغرب وظهور الولاية الافريقة الجديدة الى حيز التنفيذ تفاجأ القيروان بعزل قائدها المظفر عقبة بن

---

(٦٠) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق. ص ١٤٥ .

(٦١)حسن مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس. ص ٣٧ .

(٦٢) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٤ .

(٦٣) المالكى: رياض النفوس . ص ٢٠ .

نافع بقرار من الخليفة الاموى عام ٥٥هـ - ٦٧٥م، وقد كان من المتوقع بعد ما قام به عقبة من أعمال مجيدة أن تكافئة الدولة بأن تتركه فى ولايته ليتم ما بدأ من أعمال الا أنه بدلا من ذلك فقد تلقى قرارا بعزله من الولاية وكان الذى عزله معاوية بن أبى سفيان بناء على طلب من والى مصر مسلمة بن مخلد الانصارى الذى كان من أكبر أنصار البيت الاموى والذين أعانوا معاوية على الوصول الى الخلافة فكافأة معاوية بولاية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص، ذلك لان مسلمة بن مخلد الانصارى، عندما رأى أن أفريقية أصبحت ولاية وميدانا جديد واسعا للفتوحات طمعت نفسه الى أن يحوزها لنفسه فسعى فى عزل عقبة بن نافع الفهرى وتوليه أحد رجاله المقربين اليه والذين يخضعون لوصاياه وهو أبى المهاجر دينار وكان دينار والد أبى المهاجر يسئ معاملة ذلك الفاتح الكبير ويترك القيروان وينزل بقرية صغيرة قريبة منه تسمى تكبروان رغبة منه فى التقليل من أهمية العاصمة الجديدة، لأن والى مصر مسلم بن مخلد الانصارى كان يرى أن المغرب الاسلامى كله يخضع له ومن ثم فلا تكون له الا قاعدة واحدة وهى الفسطاط، وذهب عقبة الى دمشق وشكا الى الخليفة وتطيب خاطره ولكنه لم يرده الى ولايته.

ولاية ابى المهاجر دينار الانصارى:

قد يكون هكذا مصير القواد العظام وهذا قدرهم يصنعون الانتصارات الكبيرة ويحترقون بنارها ويظلون أسرى منجزاتهم التى غالبا ما تعود عليهم الا بالسوء ونكران التقدير وعلى هذا فان تنحية عقبة بن نافع الفهرى عن قيادة الجيش قد تكون لها خلفيات سياسية معينة، فمن المؤرخون من رد السبب الى خلاف بين عقبة وبين رئيسه المباشر والى مصر (مسلمة ابن مخلد الأنصارى) ضمن التفسير التقليدى حول المنافسة بين الرجلين [٦٤] ومن غير اليسير أن ندرك السبب الرئيسى لابعاد عقبة عن قيادة الجيش فى القيروان لان غموضا يحيط بهذا القرار ولم تتمكن روايات المؤرخين من كشفه، خاصة أن

(٦٤) سعد زغلول عبد الحميد : مرجع سابق. ص ١٤٩ .

عقبة لم يبعد عن الجيش أو يتعرض لملاحقة أو اضطهاد وانما أبعد عن القيادة العامة فقط وهذا ما جعلنا نعتقد أن وراء قرار العزل جانبا سياسيا تجاوز الحساسية والعلاقات الشخصية، فلعل الخلافة الأموية لجأت الى ذلك قبل أن يأخذ عقبة بن نافع الفهرى الحجم الذى ترفض ان يبلغه احد من القواد وليس هذا بعيدا عن معاوية بن ابى سفيان ونزعته الفردية المعروفة فهو لا يستهوى الشخصيات القيادية القوية وليس من ينطبق عليه ذلك أكثر من عقبة بن نافع القائد العبقرى الموهوب والعنيد والذى حقق كل هذه الانتصارات (٦٥).

وامتثل عقبة بن نافع لقرار العزل وعبر كمجاهد اسلامى كبير عن انضباطه الشديد والتعاون الى أقصى الحدود مع القائد الجديد ولم يكن هذا الأخير بعيدا عن أجواء الحرب بل كان يجمع بينه وبين عقبة قاسم مشترك بأنتمائهما الى مدرسة واحدة فى القتال مع خلاف فى الممارسة فعقبة كان أميل الى العنف والقوة وحسم المواقف بالسيف بحكم تربيته العسكرية منذ كان صغيرا فى حين كان أبو المهاجر دينار الانصارى بارعا فى المحاورة والاعتماد على الدبلوماسية وهكذا بين لنا أن أبى المهاجر دينا الانصارى من خيرة الولاه رغم تصرفه مع عقبة وواضح انه غير مسئول عن ذلك انما المسئول هو مسلمة بن مخلد الانصارى والى مصر وان كان قد اعتذر لعقبة عن سوء صنع دينار بن أبى المهاجر معه.

وسار أبو المهاجر الى افريقية ووجد الروم قد استعادوا ثقة الأهالى وانضموا الى الروم بقيادة كسيلة بن لمزم. والذى كان أميرا على البرانس وتعانوا مع الروم من أجل الوقوف فى وجه العرب فى حرب عقبة كادت توجد اليأس فى نفوسهم. وجاء أبو المهاجر دينار إلى افريقيا تملأه الرغبه فى محو كل آثار عقبة بن نافع على نحو ما أوصاة مسلمة بن مخلد الأنصارى فأهمل مدينة القيروان واتخذ لاقامته مكانا بعيد عنها، ولحق به المسلمون الذين كانوا قد سكنوا القيروان، وفى خلال عامين من تولية أبو المهاجر هاجمه البربر

(٦٥) ابراهيم بيضون: مرجع سابق. ص ٣٦ .

بقيادة كسيلة ولكن البربر هزموا وتتبعهم أبو المهاجر وأسر كسيلة وهم يقتله لولا أن اسلم هذا الأخير فعفا أبو المهاجر عنه [٦٦] وانتهج أبو المهاجر سياسة جديدة فى الفتح، فقد كان عقبة رجلا متشددا بعيدا عن السياسة وفهم تصرفاتها، أما أبو المهاجر دينار فنجده فى أعماله العسكرية يتجه الى كسب مودة أهل البلاد من البربر وهو لم ينهج منهجا معينا أو محددا فى أعماله العسكرية، لانه كان رجلا نشيطا يرسل الغزوات فى كل وجه وقد وصلت قوات الغزو الى مسافات بعيدة من الغرب حتى وصل الى تلمسان وأخضعها وهى أكبر قواعد القسم الشرقى فى المغرب الأوسط أى تلك المنطقة الواقعة حاليا الى الشرق من نهر «المولوية» الذى سبق أن ذكرنا انه الحد الفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى عبر شرقه بقليل وفى هذه الناحية (تلمسان) كانت منازل قبيلة من أكبر قبائل البربر البرانس فى ذلك العصر وهى أوربة، وهى قبيلة برنسية أى من قبائل الحضر، وهكذا كانت أبرز الأعمال التى قام بها أبو المهاجر دينار، أثناء قيادته التى دامت خمس سنوات (٥٥–٦٠هـ) ذلك الهجوم الذى شنه على معاقل (أوربة) احدى أقوى قبائل البربر والبرانس الواقعة فى جبال أوراس، وقد ظهر دهاء القائد العربى فى اجتذاب زعيم هذه القبيلة «كسيلة ابن لمزم» والتعاون معه بعد ايمانه بالاسلام دينا له، رغم أن المسيحية كانت قد عرفت طريقها دينا فى وقت سابق الى هذه القبيلة واذا صح اعتناق كسيلة وقومه انذاك الاسلام دينا لهم وعقيدة، فان ايمانهم كان سطحيا لا يلبث أن يخبو بانقلاب كسيلة على العرب فى وقت لاحق، على أن ذلك لم يخل من أثر ايجابى على العلاقة بين الطرفين حيث كانت القوة الأولى التى جمعتهما هى القيام بالغزو المشترك لمدينة تلمسان فى قلب المغرب الأوسط واصطنع سياسة التحبب الى القبائل المغربية فى البلاد ومسالمتها وترغيبها فى الدخول فى الاسلام [٦٧].

---

(٦٦) زاهر رياض: شمال افريقية ص ٢٣ .

(٦٧) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٤ .

ثم اننا نجد أنه بعد وصول أبو المهاجر دينار الى تلمسان، فانه يعود أدراجه الى القيروان ليقوم بأعمال عسكرية ضد البيزنطيين فينعطف شمالا باتجاه قرطاجنة ويشن عليها هجوما عنيفا عام ٥٩هـ ٦٧٩م ويبدو أن تحركه الى القاعدة البيزنطية لم تكن له أبعاد السيطرة المنتظمة وانما كان مجرد عملية خاطفة لاستكشاف امكاناتها الدفاعية، فبعد حصار قصير للمدينة تراجع عنها لقاء مساومته على أحد المواقع القريبة منها. التى يبدو انها شبه جزيرة شريك، وكانت هذه العملية آخر أعماله العسكرية على مايبدو، غير أن اتصالاته مع البربر لاسيما قبيلة (أوربة) لم تنقطع حيث ساد الهدوء طوال ولايته التى استمرت ما بقى معاوية بن أبى سفيان الذى كان معجبا بهذا النوع من الرجال ذوى الحنكة المتوافقين مع مزاجه، ولقد عمل أبو المهاجر دينار على ادخال كسيلة فى الاسلام والذى كان دخوله الاسلام حدثا هاما لابد من ملاحظته، حقيقة كان الاسلام ينتشر فى المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع وهو ينشئ القيروان وتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التفانى فى سبيل الاسلام، فدخلت جماعات كبيرة منهم الاسلام على يديه وانضمت الى قوات الاسلام المحاربة ولكن اسلام قبيلة أوربة يعتبر حدثا تاريخيا هاما فى تاريخ الاسلام فى المغرب، فهذه أول مرة تدخل قبيلة برنسية كبيرة فى الاسلام وكان معظم من دخل الاسلام قبل ذلك من البربر البتر أى البدو من قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وغيرها ومضى كسيلة بعد أن أسلم مع صاحبه أبى المهاجر دينار الى القيروان.

وبموت هذا الخليفة (معاوية بن أبى سفيان ٦٠هـ/ ٦٨٠م) يصبح مركز القيادة فى القيروان فى مهب التغيرات التى عادة ما تحدث فى أعقاب انتقال السلطة من حاكم الى آخر، وكان الخليفة الجديد يزيد بن معاوية مقدرا جهود القائد السابق عقبة بن نافع الفهرى حيث كان على صلة وثيقة به وربما نتجت عن اقامة هذا الأخير (عقبة بن نافع) فترة ما فى دمشق قريبا من ولى العهد الشاب [٦٨] وقد كان عقبة متعطشا للعودة الى

(٦٨) ابن عبد الحكيم: مصدر سابق ص ٢٧٦ .

مركزه فى أفريقية فقد قطع جل سنواته من الشباب الى الكهولة مقاتلا على أرضها ملتصقا بأحداثها ولم يكن منتظر أن يعود اليها دون أن يكون بنفسه شئ على سلفه الذى رأى فى سياسته اتجاها الى طمس جهوده وتخريب انجازاته وكما ذكر فان أبا المهاجر رفض النزول فى القيروان وقيل انه أمر بتخريبها [٦٩].

عودة عقبة بن نافع الثانية للمغرب ٦٢-٦٤هـ/٦٨١-٦٨٣م:

استمرت ولاية أبى الماجر دينار خمس سنوات وليس سبع سنوات كما ذكر فى بعض المصادر المعاصرة (٥٥-٦٠هـ) وبوفاة معاوية ابن أبى سفيان فقد حاكم مصر وواليها، مسلمة بن مخلد الانصارى مركزه فلم تعد له تلك المكانة التى كانت أيام معاوية فانتهز عقبة بن نافع هذه الفرصة وتحدث الى يزيد بن معاوية فى اعادته الى افريقية فأجابه الى طلبه وأسرع عقبة الى المغرب ومعه قوة تقدر بنحو أربعين ألف فارس وقد صمم هذه المرة على أن يشرع فى الفتح مباشرة مخافة أن يفاجئه عزل جديد، لانه كان يضع الجهاد فى سبيل الله نصب عينيه وهناك أخبار عن اضطهاده لأبى المهاجر دينار واعتقاله وان كان رواتها قد جنحوا الى المبالغة فى تضخيمها وربطها بأمور ليست فى مصلحة عقبة، خاصة ما ذكر عن قمع قبيلة «أوربة» انتقاما من أبى المهاجر [٧٠] وتلك كانت من أخطائه الجسيمة لان كسيلة كان رجلا مسلما وليس ذنبه فى أنه كان صاحبا لابى المهاجر ومن ثم فلم يكن عقبة على حق فى سوء معاملته، على كل حال رغم أن عقبة بن نافع بما اتصف به من ايثار وايمان وشجاعة وبعد عن شئون الدينا لم يغفر لأبى المهاجر ما صنعه به ورغم ماتميز به من بعد نظر فيما يتعلق بمواصلة فتح المغرب وادخاله فى الاسلام [٧١] فنجد أن بعض المؤرخين قد جنحوا الى المبالغة فى تضخيم هذه الحوادث بينه وبين أبى

(٦٩) ابن عذارى: مصدر سابق جـ ١ ص ٢٣ .

(٧٠) ابراهيم بيضون: مرجع سابق: ص ٣٨ .

(٧١) حسين مؤنس: مرجع سابق، ص ٣٨ .

(٧٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٣٨ .

المهاجر دينار وكسيلة وربطها بأمور ليست فى مصلحة عقبة خاصة ما ذكر عن قمع قبيلة أوربة انتقاما من أبى المهاجر وهو يعلم أن ذلك سيعود عليه بالضرر الكبيروفى نفس الوقت لاتستطيع أن تأخذ بالاعتبار قصة الأصفاد التى وضع فيها أبا المهاجر أثناء غزوه أرض السوس فالاحرى أن يكبله فيها ويسجنه فى القيروان ان شاء ذلك ولايمكن أن يكون لوجوده أى خطر على عقبة ومعه الجزء الأكبر من الجيش ثم كيف يكون محكوما عليه بالسجن فى حملة عسكرية وفى نفس الوقت يكون أحد قوادها المستبسلين.

وصل عقبة بن نافع الفهرى الى القيروان ليتسلم مرة أخرى مهام عمله فى تلك الأرض الطبية التى عشق فيها الجهاد فى سبيل اللّه وفى سبيل نشر راية الاسلام ورفعها خفاقة عالية، وزرع فى تربتها عنفوان شبابه لكن فيما يبدوا انه عاد اليها بصلاحيات مطلقة لا يستمد الأوامر سوى من الخليفة يزيد بن معاوية وحده ولا يخضع لسلطان غير سلطانه وان صلته بوالى مصر لم تكن لها أدنى صلة، وفصل الولاية الافريقية عن مصر نهائيا وربطها بدمشق مباشرة. وقد يكون ذلك كبادرة لاعادة الاعتبار الى عقبة بعد تجميده فى الجهاد فى تلك الاراضى فترة طويلة، ومن هنا فما لبث عقبة بن نافع أن شغل نفسه بالاعداد لعملية كبرى فى نطاق سياسته التوسعية لاجتياح المغرب فبعد اجراءات تنظيمية وادارية سريعة (٧٢)، وان كان يؤخذ على عقبة بن نافع قصر النظر فى شئون السياسة ومعاملة الناس، فأخذه كسيلة معه مصفدا بالحديد كما يقال واساءة معاملته رغم أن دينار أبى المهاجر كان ينصحه باحسان معاملة ذلك الرجل تأسيا بما كان يفعله رسول اللّه صلى الله عليه وسلم مع المؤلفة قلوبهم ولكن عقبة فى حماسه الشديد للفتح وتفانيه فيه لم يلتفت الى النصح وسار فى جموعه نحو المغرب الاوسط وهكذا خرج عقبة بجيشه نحو المغرب الأقصى تاركا زهير بن قيس قائدا على جيشه فى القيروان ومعه قوة قدرت بسبعة آلاف جندى (٧٣).

ويبدو أن جماعة من قبيلة أوربة قد شاركت فى هذه الحملة وكان دورها محصورا

(٧٣) ابن عبد الحكم: مصدر سابق. ص ٦٨ .

(٧٤) زاهر رياض: مرجع سابق. ص ١٢ .

أكثر ما يكون فى تزويد الجيش بالمعلومات الجغرافية عن تلك البلاد البعيدة ولا تستطيع اثبات مشاركتهم كمقاتلين الى جانب العرب لان موقف كسيلة زعيم أوربة كان غامضا فى تلك الفترة، حتى أن بعض المؤرخين يصف موقفه بأنه كان معاديا منذ أن تحرك عقبة بجيشه وليس لذلك من تفسير سوى أن كسيلة وجد فى القائد الجديد شخصية الفاتح المهدد لنفوذ البربر ومصالحهم، بعد أن كان فى تلك السنين السابقة لعودة عقبة مرة ثانية قد سكن بعض العرب بين البربر فى جهات تاهرت وأقاموا معهم علاقات أقرب الى السلم، وهكذا وصل عقبة بن نافع الى أفريقية ليواصل ما كان قد بدأه أثناء حملاته الماضية فأصلح القيروان ويقال كذلك مخالفا للآراء السابقة أن كسيلة البربرى كان يعاونه فى الاصلاح ولم تكن عدواة بينه وبين عقبة [٧٤].

وهكذا نرى أنه بدلا من أن يتخذ عقبة فى سيره الطريق الاسهل فيسير على الشريط الساحلى نجده يخترق الجبال ويغزو البربر فى عقر دارهم فيدخل جبال الاوراس وهى الطريق الشرقى لجبال الاطلسى وهى جبال عالية وعرة كثيرة المضايق والأخاديد فى هذه الناحية وكانت تعيش فيه جماعات من الروم ممن هربو، الى الداخل واتصلوا بالبربر ليتعاونوا معا على المسلمين ولكن عقبة لم يكترث بهم ومضى يقتحم جبال الاوراس متوغلا فى بلاد من الغاية فى وعورة الارض وصعوبة المسالك وقد حقق عقبة بن نافع الفهرى فى سيرته الطويلة انتصارات باهرة ففى باغاية وبجاية على الساحل الافريقى الى القرب من قرطاجنة اشتبك فى معركة حامية ضد البيزنطيين وصفت بأنها من أعنف المعارك [٧٥] غير انها لم تكن حاسمة، اذ أن البيزنطيين تراجعوا الى المدينة واعتصموا بها ولم يشأ عقبة أن يطيل أمد الحصار فانعطف الى الجنوب لاتخاذ الطريق المرسوم لحملته وهو على الأرجح الطريق المحاذى للسفوح الشمالية فى جبل أطلس فأجتاح اقليم الزاب فى المغرب الاوسط ودخل مدينة المسيلة عاصمة الاقليم بعد طرد البيزنطيين وحلفائهم من البربر من قبائل لواتة

(٧٥) ابن الأثير: مصدر سابق – جـ ٤ ص ٥٣ .

(٧٦) ابراهيم بيضون: مرجع سابق – ص ٤٠ .

وهوارة ومكناسة.

ثم تابع فلولهم التى تاسرت وأوقع بتحالفهم هزيمة عنيفة وبذلك تمت له السيطرة الكاملة على المغرب الاوسط وأخمد فيه كل تحرك مضاد وعدائى ضد العرب، فى الوقت الذى انفتح الطريق أمامهم لاختراق بلاد المغرب الأقصى، وتجدر الاشارة الى أن الموقف السياسى العام عند العرب لم يكن قد تبلور بعد ازاء الموجه التوسعية العربية فما زالوا حتى ذلك الحين يرقبون أحداث الصراع بين العرب والبيزنطيين ولم يكن العرب من جهتهم قد توغلوا أكثر فى الداخل واصطدموا بنظام القبيلة المنزمت عند البربر أما القبائل البربرية التى دخلت طرفا فى الصراع الحربى الدائر بين القوتين الكبيرتين فهم البربر الاكثر تحضرا من البرانس الذين كانت لهم مصالح فى بقاء القواعد البيرنطية على الساحل حيث يعيشون فى مناطق معادية لها على السواحل وكان لهم أكثر من هدف فى التصدى للجيوش العربية من أجل الدفاع عن مصالحهم المتشابكة مع البيزنطيين (٧٦).

ثم بعد ذلك تابعت حملة عقبة انتشارها فى أقاصى المغرب ظافرة متقدمة فبلغت طنجة الشهيرة ذات الموقع الفريد على مدخل البحر المتوسط فى الغرب وكان مركزا لاقليم يخضع اداريا للسيادة البنزنطية يمتد على الساحل فيما بين طنجة وسبتة، غير أن ذلك الاقليم كان يتمتع فى ذلك الحين بقدر من الاستقلال، الامر الذى أعطى حاكمه حرية الحركة فى تحديد الموقف المناسب.

وكان عقبة قبل وصوله الى هذه الأماكن قد دخل جبال الاوراس وبدأ بمحاصرة حصون تسمى باغاية، وكان فيه عدد من البربر الى جانب الروم وعندما وجد عقبة صعوبة فى الاستيلاء على حصن باغاية، تركها واندفع ناحية الغرب فعبر نهر شلف وهو يحارب القبائل فى طريقه ويقضى على جموعها ويلقى الرعب فى قلوب أهلها وفى نفس الوقت يجتذب الكثيرين من أفرادها للاسلام بفضل ما كان قد تربى عليه من التقوى والتفانى فى

---

(٧٧) حسين مؤنس: مرجع سابق – ص ٣٩ .

سبيل نشر لواء الاسلام واستمر فى طريقه غير عابئ بالمقاومة مهما اشتدت حتى وصل الى قرب طنجة أى أن ذلك الرجل قطع فى شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مساحة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر وظهر أمام طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر المتوسط (٧٧) وهناك يلتقى فى طنجة بشخصية غربية تسمى «يليان» وشاء هذا الحاكم أن يقيم علاقات ودية وحسن جوار مع الفاتحين العرب بدلا من التصدى والمقاومة للعرب والوجود الاسلامى فى تلك الاماكن (٧٨).

واذا استثنينا بقليل هذه الاستقلالية لاقليم طنجة فلابد أن تكون لها علاقة بالعامل الجغرافى وهو البعيد عن الحكم المركزى الذى استقلت فيه وحدته الادارية وفقد الكثير من تماسكه خاصة فى الاقاليم الغربية من البحر المتوسط ويبدوا أن عقبة لم يكن فى ذهنه حسم الامر من المدن الساحلية وهى قلاع عسكرية حصينة لان الوقت لم يحن بعد لتصفية هذه المواقع المهمة ضمن الامكانات العربية المحدودة سواء فى سلاح البحرية أم فى وسائل الحصار التى لم يكن العرب قد وقفوا على جانب متطور منها بعد وهذا ما حدث أثناء حصار باغاية وتكرر الامر نفسه تقريبا مع طنجة ولكن دون حاجة الى الحصار لان حاكمها البيزنطى وضع كل طاقاته فى خدمة العرب تسهيلا لتحركهم فى هذه البلاد النائية وهذا الحاكم الذى يسمى لبليان كان حاكما على هذا الاقليم فى ذلك الوقت ولا ندرى أهو اسمه أو هو نفسه الذى ارتبط اسمه بحمله الاندلس بعد ثلاثين عاما أم أن هناك شخصية أخرى تحمل نفس الاسم، ولانعرف عن ذلك الرجل شيئا بعول عليه فهناك من يقولون أنه كان ممثلا للامبراطور الرومى، البيزنطى فى ذلك الطرف الاقصى من البحر المتوسط وهناك من يقولون انه كان ممثلا للقوط الغربيين الذين كانوا يحكمون شبه جزيرة ايبريا فى ذلك الحين وهذا أقرب الاقوال الى القبول، وهناك آراء تذكر انه كان رجلا بربريا تزعم قبيلة غمارةالكبيرة التى ستدخل فى الاسلام وسيكون لها فى تاريخ المغرب شأن كبير وربما كان اسم ليليان تسمية عامة فى ذلك التاريخ تطلق عند العرب على حاكم

---

(٧٨) ابن الأثير: مصدر سابق جـ ٤ ص ٥٣ .

(٧٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ . جـ ٤ - ص ٥٣ .

اقليم طنجة أيا كان، فبعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ وفى ولاية موسى بن نصير أثناء أعمال الفتح الاندلسى يلتقى بليان هذا مرة أخرى وسيكون له شأن مع موسى بن نصير وطارق بن زياد، وكذلك سيكون له دور فى فتح الاندلس، على أية حال نجد أن عقبة بن نافع الفهرى يتفاهم مع ذلك الرجل، ويقول له ليليان، لقد تغلبت على الروم وليس أمامك الآن الا البربر فعليك الآن أن تنحدر إلى الجنوب فهناك مواطن البربر الحقيقيين ويستجيب عقبة لعروض يليان حاكم طنجة [٧٩] ويترك وراءه هذا الاقليم لينعطف جنوبا نحو الداخل فوصل الى ولاية وليلة أو ليلى ولم يكذبه عقبة فاتجه الى الجنوب وبنفس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر المصامدة فى شمال المغرب الاقصى الى جنوبه يخترق جبال الاطلس التى تسمى هنا «جبال درن» وفى طريقه يهزم القبائل وينشئ المساجد ويقبل عليه الناس رغبة لارهبة ليعلنوا اسلامهم وهكذا كان وصوله الى مدينة أوليل والتى تعد احدى المدن القديمه التى تقع على مسافة قريبة من مدينة فاس عاصمة الادارسة فيما بعد وعندما يصل ذلك الرجل الى قلب بلاد المصامدة فى جبال درن نجده يدور دورة واسعة وسط الجبال ثم يتجة غربا وينحدر نحو المحيط الى الجنوب حيث المدينه الحالية المعروفة باسم أغادير التى تقع على مصب وادى السوس، وهناك وعند قرية صغيرة على البحر المحيط تسمى «ايقبران يطوف» نرى المشهد التاريخى الشهير وهو مشهد عقبة بن نافع الفهرى يدخل بفرسه فى مياه المحيط الاطلسى ويشهد الله على انه وصل براية الاسلام الى آخر المعمورة ويقول قولته والله لو انى أعلم أن خلف هذا البحر قوم لذهبت اليهموقاتلتهم فى سبيل الله وانه لو وجد طريقا لسار الى البلاد التى وصل اليها فى زعم القصاصين ذو القرتين عند ثوب الشمس [٨٠] فى أطراف المغرب الاقصى وهناك أنزل بالبربر المصامدة ضربة قوية أرغمتهم على الفرار الى الصحراء فاقتفى أثرهم حتى وصل فى زحفه الى درعه فى أقصى الجنوب [٨١].

---

(٨٠) حسين مؤنس: المرجع السابق – ص ٤٠ .

(٨١) سعد زغلول محمد الحسين – مرجع سابق ص ١٦٣ .

(٨٢) ابن غدارى – مصدر سابق جـ ١ ص ٢٧ .

ولم يجد ما يشجعه على الاستمرار فى هذا الاتجاه الصحراوى، فصعد مجددا نحو الشواطئ الغربية للمغرب الأقصى حيث المدن العامرة وحيث المغامرة تهون لدى الجند المقتحمين أغوار المجهول وهناك فى آخر خطوة فى المسيرة الطويلة أخضع عددا من المدن الهامة الواقعة تحت أقدام أطلس العظمى وسارت صنهاجة الكبيرة القبيلة البربرية تعلن ولاءها للقائد العربى [٨٢] ثم خضعت اغمات إلى الشمال الشرقى من مراكش بعد حصار قصير وتبعتها مدينة أخرى الى الغرب «بقيس» وهى احدى المراكز المهمة فى تلك المنطقة ومن هناك انتهى به المطاف الى السوس الأقصى فأجتاحه دون مقاومة مسيطرا على المدن الرئيسية حتى ادرك أخيرا (ايقيران يطوف) على ساحل المحيط الاطلسى واذ بلغ عقبة هذا الحد من فتوحاته عبر أضخم مغامرة عسكرية عرفتها دولة الامويين فى ذلك الوقت، وبعد أن وصل عقبة الى هذه النتيجة التى لاتصدق نجده يعود أدراجه الى القيروان وفى نفسه ظمأ الى الحرب مخترقا بلاد البربر مرة أخرى وعندما يصل الى نهر قانسيفت وهو النهر الذى تقع على أحد نهيراته مدينة مراكش الحالية، وعند بلدة تسمى منفيس ينشئ مسجدا وهو المسجد الذى عرف فيما بعد باسم مسجد اغمات أوريكة ولا زال ذلك المسجد باقيا الى اليوم، ويقال أن منبره يرجع الى تلك الأيام وعندما وصل عقبة الى وادى أم الرقراق التى تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطا أى معسكرا للمرابطين، أى الذين يرابطون على ثغور ديار الاسلام ليحرسوها ويذودوا الاعداء عنها، ثم يواصل مسيرتة عائدا الى القيروان فنجد أن الكثيرين من جنوده يسأذنونه فى الاسراع الى القيروان فقد طال غيابهم عن أولادهم وأهلهم فيأذن لهم ويبقى فى عدد قليل من رجاله، والواقع أن المصنفات التاريخية تكاد تجمع على وضع هذا القائد فى مصاف القواد العظام الذين عرفهم العرب بل ينفرد أكثر عن غيره بنزعته الصوفية فى الجهاد التى أعطت لأعماله بعدا آخر [٨٣] .

---

(٨٣) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٤٣ .

وتشاء الأقدار أن تكون رحلة العودة محفوفة بالمخاطر على خلاف ما كان متوقعا فبعد أن اطمأن عقبة الى ما أنجزه في المغرب الأقصى ودون أن يشعر بأى تحول معاكس فى ولاء المدن والاقاليم بعد انتهاء مهمته وقرار العودة، حيث ترك فيها أصحابا له يقومون بدورهم فى نشر الدعوة الاسلامية وتفقيه الناس فى أمور دينهم، وبينما كان عقبة منصرفا الى مغامرته العسكرية الدينية الكبرى كان خصومه يكيدون له وكان معه فى الجيش كما قلت أبو المهاجر دينار وصاحبه كسيلة بن لمزم الاوربى، فلما اقتربوا من بلاد قبيلة أوربة هرب كسيلة وعاد الى قومه وجمعهم وتتبع عقبة ليوقع به عندما تسنح له الفرصة، وعلى الجانب الآخر كان عقبة ربما أدرك عن خطأ فى التقدير أن ولاء البربر لن يكون موضع مريب، حدث كل ماقلبت كل التوقعات حين أرسل الجانب الاكبر من قواته لمهمات معينة بعد وصوله الى اقليم الزاب، ولعلها عملية استدراجية من حليف العرب القديم منذ أيام أبى المهاجر دينار، الزعيم البربرى كسيلة قد اقنعت عقبة باتخاذ هذا الاجراء والبقاء على نفر قليل من جنوده لا يتجاوز خمسة آلاف حتى اذا وصل الى المدينة تهودة «تاهورة» فى منطقة الاوراس فوجئ باعتراض الزعيم البربرى له بالاتفاق مع البيزنطيين الذين أحاطوا بالعرب فى الشمال [٨٤] وكان وصول ذلك الجيش الاسلامى الصغير الى سهل تهودة جنوبى واحة بسكرة الحالية الى جنوب مدينة الجزائر هو نهاية هذا القائد حيث وجد عقبة نفسه محاصرا بجماعات غفيرة من البربر والبيزنطيين وقد تجمعوا وتعاونوا بفضل كسيلة للانتقام من ذلك الرجل المجاهد عقبة [٨٥].

وهكذا يبدو أن استسلام كسيلة واسلامه الى جانب أبى المهاجر ثم من بعدة عقبة بن نافع ثم مناوشات الروم وهزيمتهم أمام الجيش الاسلامى ثم فرار كثيرين منهم لم

(٨٤) عبد الحميد العابدى: المجمل فى تاريخ الاندلس..ص٥٥.

(٨٥) حسين مؤنس: مرجع سابق جـ ٤ .

تكن كلها الا خطوات دبرت باحكام حتى يمعن عقبة فى التوغل نحو الغرب حيث تشتد التضاريس فى قوتها وحيث تطول خطوط مواصلات الجيش العربى وحيث يتجمع البربر والبيرنظيون كل ذلك وعقبة يمعن فى السير حتى وصل الى ساحل المحيط منتصرا بوصوله الى أقصى البلاد ولكنه لم يلبث أن أحس أن البربر قد تجمعوا وأخذوا يحيطون به فانقلب يريد العودة فاذا الابار التى يعتمد عليها قد طمرت (ردمت) واذا كسيلة ومن معه من البربر ينقلبون عليه وهكذا كان موقع تهودة مشهدا مثيرا لعقبة حين رأى البربر يفاترون عليه من جميع الجهات منضمين الى كسيلة فى أعداد هائلة والمسلمون متعبون من طول رحلة الغزو والعودة وكانما أدركوا ما وقعوا فيه من خديعة من جانب البربر والروم [٨٦].

ولم يكن هناك يد من مواجهة هذا العدد الضخم فى وقت غير ملائم وغير متواز عسكريا وقوات غير متكافئة عدديا حيث لم تكن قوات عقبة تزيد عن خمسة آلاف مقاتل، وهناك قرب نهر صغير يسمى وادى الابيوض وجد عقبة انه لا مفر من الاستشهاد فأمر رجاله بأن يترجلوا عن خيولهم وذلك توطينا للنفس على القتال حتى الموت، وطلب منه أبو المهاجر أن يفك قيوده لكى يموت فى سبيل الله وسبيل الاسلام وخاضت هذه الجماعة الصغيرة معركة الموت ببسالة وخاض العرب بقيادة عقبة بن نافع معركة بطولية عنيفة قتل فيها القائد العربى وعدد آخر من القواد منهم أبو المهاجر دينار حتى غرق الباقون فى المعركة فى بحر من الدماء ورحب عقبة وأصحابه بالموت واستقبلوه فى شجاعة كما تقول المصادر العربية [٨٧]. وهلك المسلمون الذين صاحبوا عقبة فى العودة جميعا ولم يفلت واحد منهم وكانت هذه نهاية الحملة التى بدأت فى أولها موفقة غاية التوفيق، وتلك كانت نهاية ذلك الرجل عقبة بن نافع عام ٦٤هـ/٦٨٣م وهى نهاية جديرة بحياة

---

(٨٦) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٢٣ .

(٨٧) ابن عذرى: مصدر سابق جـ ١ ص ٢٨ .

رجل مثل عقبة بن نافع وهذه النهاية على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية الا أنها فى واقع الامر كانت بعيدة الأثر فى اسلام افريقية والمغرب فقد كان ما أبداه عقبة ورجاله من البساله فى ذلك الاستشهاد قد أوقع فى نفوس البربر وهم قوم ذوو بأس واعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات فى الاسلام وتلك هى نهاية أسطورة عقبة أو سيدى عقبة بطل الاسلام الاكبر فى تاريخ الفتوح فى الجزء الغربى فى العالم الاسلامى (٨٨) .

وقد أسفرت هذه الحادثة عن نتائج سيئة للغاية فى الجانب الاسلامى فلم تكن مجرد عملية انتقامية موجهة ضد عقبة بن نافع كما يعتقد جانب كبير من المؤرخين (٨٩) بل كان لها بعد على قدر كبير من الخطورة فلا يمكن أن تسمى ما قام به كسيلة ومعه خمسون ألف من البربر وحلفاؤهم بتعريف الكمين أو التصدى فى الطريق، حتى لو كان الرقم غير دقيق ومبالغ فيه، فحشد من مثل هذا النوع يفترض فيه أن يكون قد سبقه اعداد منظم وتخطيط بارع للقضاء على الوجود العربى فى المغرب، ونحن لا نبالغ فى تصورنا اذ ما اعتبرنا هذه الحادثة أولى الثورات التى قادها البربر ضد سياسة التوسع العربى الاسلامى فى بلادهم، لقد رأى هؤلاء فى منجزات عقبة بن نافع وانتشار قواته حتى المحيط الاطلسى تهديدا لوجودهم واعتداء على سيادتهم المتوارثة النى لم تمس عبر التاريخ .

فما زالوا يعيشون منذ البدء حياتهم ويمارسون تقاليدهم متحررين من كل القيود حتى فى ظل الدول الحاكمة من الرومان الي الوندال الى البيزنطيين فهذه الدول والقوى غالبا ما كانت تنشر سيادتها على السواحل أو المناطق القريبة منها دون أن تتصادم مع

---

(٨٨) حسين مؤنس: مرجع سابق– ص ٤١ .

(٨٩) ابن الاثير: مصدر سابق جـ ٤ ص ٥٤ .

سكان البلاد من البربر فى الداخل، وغالبا ما كانت العلاقات تأخذ اطارها غير المتناقض بين الطرفين فى شعور عام بأن مصالح كل منها لاتتعارض مع الآخر وعند الانقلاب فى السيطرة غير المباشرة جعل البربر يمتازون عن غيرهم من الشعوب بنزعتهم الاستقلالية التى كلفتهم كثيرا قبل أن يتخلوا عنها فتحالف البربر مع البيزنظيين فى عدة مواقع أثناء حملة عقبة جاء عن قناعة بأن العرب عدو مشترك للفريقين، لان البيزنطيين لم يمثلوا فى نظر البربر ذلك الخطر الذى داهمهم على يد العرب .

واذ انتهت مغامرة عقبة بثورة عكسية من جانب البربر قضت على كل منجزاتها ولم تكتف بهذا الانتقام بل أرادت أن تجتث جذور العرب بمتابعة الهجوم الى القيروان وهناك حدث خلاف بين عناصر الحامية العربية، فمن راغب فى القتال الى عارف عنه لان الموقف كان شديد الخطورة ولم تكن الحامية قادرة على حسم الموقف لصالحها وكانت الهزيمة الساحقة التى منى بها المسلمون قد وصلت الى أسماع تلك الحامية فى القيروان بقيادة زهير بن قيس البلوى ومن هنا فقد وضح القائد زهير ابن قيس الذى كان مع الاتجاه الأول وانسحب بمن معه الى برقة خرجوا فى الاتجاه شرقا مسرعين يريدون العودة فوصلوا الى برقة سالمين واستولى كسيلة على القيروان وخرجت افريقيا من يد العرب ولقد وضحت الأهمية القصوى لانشاء قاعدة القيروان العسكرية فى عهد زهير بن قيس البلوى حينما ارتد البربر وهبوا يعاونهم البيزنطيون بعد أن تخلصوا من متاعبهم كلها وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ولولا قاعدة القيروان أهميتها الاستراتيجية لطرد العرب نهائيا من البلاد وضاعت الجهود الشاقة التى بذلت من قبل [٩٠] وهكذا خلت القيروان من العرب ليدخلها كسيلة ويصبح أميرها المطلق نحو خمس سنوات (٦٤-٦٩هـ) والذى ينظر الى طبيعة العلاقة بين البربر وبين عقبة بن نافع يجد انها كانت فى مضمونها علاقة عدائية (آراء المعادين

(٩٠) حسن محمود: مرجع سابق. ص ٩٤ .

للاسلام من الكتاب الغربيين) [٩١] اذ وجد هؤلاء البربر فى سياسة القائد العربى فى حملته الأخيرة تصميما مركزا استهدف الغاء شخصيتهم القومية وصهرها فى مجتمع جديد تذوب فيه الكيانات وتنمحى الروح العصية، فهى أول حملة عربية فى أفريقية تأخذ ذلك الطابع المدروس المنظم بحيث أنها اعتمدت بتحقيق هدفين متوازيين الأول هو الاحاطة بنفوذ البيزنطيين واقتلاع حامياتهم من السواحل المغربية والثانى وهو الأهم تثبت السيادة العربية فى أوساط البربر ودعوة قبائلهم لدخول الاسلام ومن هنا كان اتجاه عقبة الى الجنوب نحو معاقل البربر دون الاهتمام كثيرا بأقليم طنجة المسالم فشخصية القائدة الذى وصف بالعنف لم تكن بالضرورة سبب تلك القضية البربرية، بقد ما كان لحملته المنظمة التى اخترقت لاول مرة الحواجز التاريخية التى أقامها البربر فى وجه الفاتحين فكانت تلك الثورة المضادة التى دبرها كسيلة بمعاونة البيزمطيين لضرب تلك المحاولات العربيـة الاسلاميـة السياسيـة التوسعية [٩٢] لنشر الاسلام وعقيدة الله الخالدة .

ومن هنا فانه يبقى أن نقول أن معركة تهودة لازالت محاطة بشئ من الغموض فهل تبعتها عملية استدراج من الزعيم البربرى، جعلت عقبة يوزع الجزء الأكبر من قواته فى مهمات عسكرية حسب تعبير الروايات التاريخية؟ أم أن ذلك مجرد خواطر أوردها المؤرخون العرب للتقليل من أهمية القوة القتالية لدى البربر وبالتالى تعليل الهزيمة المدمرة، لان توقيت المعركة في وقت كانت خلافة دمشق تمر فى أصعب مراحلها بعد موت يزيد ابن معاوية بن أبى سفيان واستفحال الصراع بين محورى الشام والحجاز وذلك يدفعنا للتساؤل عن مدى تأثير تلك الجبهة الافريقية وارتباطه بهزيمة عقبة وهل كان لهذه الأحداث الدامية من أثر سلبى على نتائج تهودة وعلى سياسة الفتح فى المغرب بصورة عامة

(91) Gaudel.E.:Les Permieres Invoisions des Arabes dans L'Afrique du Nord.P.86

(٩٢) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٤٥ .

وهل كانت الدولة البيزنطية تمتلك تقييما للأوضاع الداخلية المنهارة فى الخلافة الاسلامية وفى عاصمتها، حيث كانت الخلافة العربية الاسلامية فى دمشق تعانى أسوأ أيامها، فقد اشتعلت ثورة عبد الله بن الزبير فى بلاد الحجاز التى استفحل أمرها بل أنه أرسل ولاته الى الاقاليم ومنها بالطبع ولاته الى مصر حيث وجد أهلها ترحيبا فقد كانت كل هذه الظروف تمنع مصر فى ذلك الوقت من ارسال نجدات عسكرية والخلافة الأموية فى دمشق من ارسال امدادات جديدة الى افريقية وبلاد المغرب حيث أن الظروف لم تكن مناسبة للاستمرار فى ارسال غزوات جديدة الى افريقية فى تلك الظروف التى يسود فيها الانقسام فى الدول العربية الاسلامية .

وهكذا نرى كيف أن تلك الحملات التى أرسلت الى بلاد المغرب التى بدأت فى عام ٢٢هـ/ ٦٤٣م منذ أن قام عمرو بن العاص بحملاته المظفرة الى برقة والاستيلاء عليها وكما انه ضم طرابلس أيضا عام ٢٣هـ ٦٤٤م وكذلك حملات عبد الله بن سعد بن أبى سرج وكذلك غزوات عقبة بن نافع الأولى (٥٠ – ٥٥هـ) وكذلك غزوات معاوية بن خديج التى كانت قد سبقت غزوات عقبة بخمس سنوات ٤٥هـ/ ٦٦٥م ثم حملات أبو المهاجر بن أبى دينار ٥٥هـ/٦٠هـ/٦٧٥م – ٦٨٠م ثم تلك الغزوة النهائية التى قام بها عقبة ابن نافع الفهرى ٦٢ – ٦٤هـ/٦٨١ – ٦٨٣م، وكيف كانت تلك الغزوات الاسلامية مقدمة لحركة اسلامية واسعة استهدفت فى نهاية الأم وضع الأسس المناسبة للفتح والاستقرار النهائى فى أرض المغرب وهذا ماسنراه فى الفصل القادم عن الفتح الاسلامى والاستقرار النهائى وهكذا كانت الأربعين عاما هذه ٢٢هـ/٦٢هـ ما هى الا مقدمات لتثبيت دعائم الدولة الاسلامية القوية فى المغرب.

الباب الثالث

الغزو الاسلامى والاستقرار النهائى

اذا كانت معركة تهودة وانسحاب بقية الجيش العربى الاسلامى الى برقة كارثة جسيمة على العرب الذين فقدوا فى تلك الضربة الصاعقة كل جهود السنوات الطويلة وانكفأت سيادتهم الى نقطة البدء تقريبا، أى أن محاولات أربعين عاما لاقامة حكم عربى ثابت فى المغرب قد أصيبت بالفشل.

الا أنه يمكن القول أن العرب والمسلمين اذا كانوا قد فقدوا أرض المغرب وأحبطت مشاريعهم التوسعية فى تلك الارجاء، فانهم لم يفقدوا الارادة والطموح للعمل من جديد لاستعادة السيطرة على كل أرجاء المغرب، وذلك لأنه لم يعد يعنى لهم ذلك الجهد الضائع فى العمل خلال أربعين عاما سوى الاصرار والعزم على الفتح والاستقرار النهائى، وذلك رغم ظروف الدولة الاموية الصعبة التى لم تكن مؤهلة فى ذلك الوقت للقيام بأى عمل عسكرى فى المغرب للقضاء على ثورة كسيلة، لان الخلافة الاموية فى دمشق لم تكن تعطى الاهتمام الواجب بأمور افريقية أثر مقتل عقبة ابن نافع القهرى واحتلال كسيلة لمدينة القيروان الا بعد مضى وقت طويل على ذلك الاحتلال لان ظروف الدولة لم تكن تسمح بتأديب زعيم البربر واعادة فتح البلاد من جديد، ذلك لان المشاكل الداخلية قد هزمت دعائم الخلافة الأموية بل أن هناك عوامل أضعفت الدولة الاسلامية وأوصلتها الى حافة النهاية [١].

ذلك لانه فى تلك الأثناء وفى نفس العام الذى سقطت فيه القيروان فى قبضة البرانس وقائدها كسيلة كانت أحداث سياسية فى منتهى الخطورة تشهدها دمشق ومكة والكوفة ومناطق أخرى من الدولة، فقد توفى يزيد ابن معاوية وخلفه ابنه معاوية الثانى بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأخذت البيعة له لكن ما كاد الخبر يأخذ طريقه الى

(١) ابن الأثير: مصدر سابق– جـ ٣ ص ١٥٢ .

الانتشار حتى تمرد العراق وكان أول المتمردين وذلك كرد فعل وتعبير عن عوامل السخط المتفاعلة فى نفوس أبنائه منذ انتقال الخلافة الى الشام الأموية. فانفجرت الثورة ملقية أقنعة الصمت فى وجه صانعى مأساة كربلاء وقتله الحسين بن على ابن أبى طالب وأخذت الثورة تشتعل من يد الى أخرى تستمد ضميرها فى هذه الحادثة البشعة فتربك الحاكم الجديد وتضعه فى مأزق [٢] .

وفى مكة المكرمة تأخذ الثورة اطارا تنظيميا أكثر براعة ويستفيد زعيمها عبد الله بن الزبير من كل الظروف التى اتجهت طبقا لمصلحته فنشر سيادته على العراق ومصر فضلا عن الحجاز ولكنه لم يحسن اللعبة السياسية فسقط من القمة بعد أن غزا الأمويون الكعبة [٣] فى العام الثالث من حكم يزيد ابن معاوية أما فى دمشق فكانت المعركة سياسية بكل ملامحها وكادت الخلافة الاموية أن تضيع فى الجدل بين أبناء بنى أمية، لاختلاف الاسرة بعد اقصاء معاوية الثانى أو اعفائه، على البديل، حتى انتصر أخيرا مؤيدو الشيخ المحنك مروان بن الحكم الذى حكم عاما واحدا، والذى فاز بتأييد الحزب اليمنى القوى فى تلك المنطقة فحسم الموقف فى مرج رامط لصالح الفرع المروانى وجئ بزعيمه الى الخلافة عام ٦٥هـ/٦٨٥م ولم يكن فى مقدور النظام الجديد أن يقفز فوق هذه العقبات وأن يعبر حواجز الخطر بهذه السهولة وان استطاع مروان بن الحكم انقاذه من الضياع خلال تلك الفترة الانتقالية القصيرة، فان أبنه عبد الملك بن مروان استطاع أن يلم الشعث ويوحد العالم الاسلامى مرة أخرى ويضمن عمرا جديدا للخلافة الأموية بعد أن كانت هذه الخلافة على وشك الزوال [٤] وهو الذى وقع على كتفيه العبء الاكبر فى استعادة الامور الى نصابها وقد أثبت ذلك الخليفة القوى بأنه رجل المرحلة بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد سياسية، وكان عبد الملك قد شغل باستعادة العراق من عبد الله ابن

(٢) أحمد شلبى: التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . جـ٣ ص ٤٧، الطبرى: مصدر سابق جـ٤ ص ٢٢٥.
(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية. ص ٩٨ .
(٤) الطبرى: تاريخ الامم والملوك . جـ ٤ . ص ١٤٢ .

الزبير بن العوام وهدأت الاحوال شيئا فشيئا من عام ٦٨هـ - ٦٨٧م ويثبت أركان خلافة عبد الملك بن مروان واتسع أمامه الوقت ليقوم بعمل فى أفريقية، حيث هكذا كانت أوضاع الدولة الاموية وهى تلملم نفسها بعد شتات وتفرق فى موج الثورات والصراعات الحزبية، وكلها محصلة لسياسة يزيد ابن معاوية التى نسفت بقلة من السنوات كل مجهودات معاوية، حدث كل هذا وقائد افريقية السابق زهير بن قيس البلوى قابع فى برقة بعد انسحابه من القيروان ينتظر فرصة للعمل من جديد فى أفريقية وبعد نفسه لرد كرامة العرب من مجزرة تهودة وذلك فى انتظار أن تأتيه الامدادات من دمشق لكى ينهض فى فتح افريقية وبقية بلاد المغرب [٥] .

لكن الخلافة الأموية كانت لديها همومها غير الافريقية فى ذلك الوقت فانصرفت بكل طاقتها الى الداخل حتى اذا انتهت الثورة ورأى عبد الملك أن خصمه العنيد ابن الزبير قد فقد جناحيه العراق ومصر وتقوقع فى مكة [٦] أحس بأن االوقت قد حان للاهتمام بسياسة التوسع كانت جبهة المغرب من أكبر الجبهات الاسلامية الهامة والاكثر الحاما حيث فى عام ٦٩هـ/٦٨١م وقبل أربع سنوات من القضاء النهائى على ثورة الحجاز بقيادة عبد الله ابن الزبير، عهد الخليفة الأموى عبد الله بن مروان بقيادة الجيش فى افريقية الى زهير بن قيس البلوى الخبير بشئون هذه البلاد وفى نفس الوقت زوده بعناصر اضافية من الجيش الشامى للاشتراك فى حملة رد الاعتبار للجند العربى الاسلامى والانتصار لروح المجاهد الاسلامى عقبة بن نافع الفهرى .

وقد تم تكليف زهير بن قيس البلوى بقيادة تلك الغزوة المباركة والميمونة بناء على توصية من شقيق الخليفة ووالى مصر فى ذلك الوقت عبد العزيز ابن مروان بن الحكم [٧] وقد عرف عن الأمير عبد العزيز بن مروان اهتمامه الزائد بشئون المغرب حيث كان ذلك

---

(٥) حسين مؤنس: مرجع سابق . ص ٤١ .

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد . جـ ٤ . ص ٤٠٧ .

(٧) ابن عبد الحكم: مصدر سابق . ص ٣٦٩ .

المجهول وراء العمليات المنظمة التى اسفرت عن فتح المغرب نهائيا فى وقت لاحق لاسيما دوره فى اختيار القائد الذى ارتبط اسمه بهذه المنطقة وفضل الاستقرار فى برقة والانتظار حتى تنتهى مشاكل الدولة الاموية الداخلية .

وقد يتساءل الباحث هنا عن الاسباب التى دفعت الخلافة الاموية إلى التفكير فى ارسال حملة زهير بن قيس البلوى وهى لازالت تجاهد فى حل مشاكلها الداخلية والقضاء على ثورة الحجاز بقيادة عبد الله بن الزبير وذلك فى وقت كانت فيه الدولة فى أمس الاحتياج لاستخدام كل طاقتها فى الحرب الأهلية الدامية بدلا من القيام بهذا العمل العسكرى فى افريقية، وللاجابة على ذلك نجد أن حملة زهير لم تكن ضمن أهداف تحركها القيام بالغزو التوسعى وصولا الى طنجة على المحيط الاطلسى بقدر ما استهدفت أولا الامساك بزمام المبادرة فى بلاد المغرب واثبات قوة الخلافة الأموية أمام البيزنطيين والبربر وقدرة الخلافة الأموية فى القيام بعمل عسكرى فى الخارج رغم الحرب الاهلية الداخلية والخلاف بشأن الخلافة الاسلامية (٨) .

وبسرعة نفذ زهير بن قيس البلوى أوامر الخلافة الأموية الجديدة وسار بجيشه متخذا الطريق التقليدى من برقة الى القيروان بقوات الشام وعند اقترابه من مدينة قوينة شعر كسيلة بقدومه فخرج للتصدى له بكل قواته من البرانس ومعه عدد من البيزنطيين معسكرا فى بلدة ممس وهى احدى الوديان الواقعة على مسافة يوم من القيروان (٩) .

وهكذا نرى أنه اذا كان اليأس قد دب فى نفوس من بقى من المسلمين فى المغرب فبادروا باخلاء البلاد حتى برقة الا أن روح العزيمه قد دبت مرة أخرى فى نفوس من بقى من المسلمين الذين كانوا لازالوا يقيمون فى برقة بقيادة زهير وكان لابد من الاستيلاء على البلاد التى عز عليهم أن تضيع هذه الجهود التى بذلت طول أربعين عاما وعلى هذا

(٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٤٨ .

(٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق . ص ٢٦٩ .

كان قرار عبد الملك بن مروان بأعداد هذا الجيش الضخم وتعزيز الجهود لمواصلة الفتح وامداد القوات التى تحتاج اليها الحملة وكذلك أمر عاجلا بالسير الى الفتح غربا والتحرك من برقة فكانت هذه الحملة بداية المرحلة الثالثة من مراحل الفتح وهى مرحلة التصميم على الانتصار والاستقرار وكانت ضخامة هذا الجيش الاسلامى والأموال التى أرسلها له من مصر واليها عبد العزيز بن مروان شقيق الخليفة عبد الملك سببا فى أن يدب النشاط والحمية فى المعسكر الاسلامى فخرج من برقة عام ٦٩هـ – ٦٨٨م [١٠] .

وحملت أخبار الاستعدادات والتقدم الاسلامى الى كسيلة وهو فى القيروان فاستعد لها ورأى أن ينتقل من القيروان الى مكان حصين يتحصن فيه فخرج إلى مكان يقال له ممس بينما دخل زهير بن قيس البلوى الى القيروان وكان طبيعيا أن يلحق زهير بكسيلة، وقد عسكر زهير فى ناحية يطلق عليها اسم قمودة، وهى شبه جزيرة بارزة فى البحر من الساحل الشرقى لتونس الحالية وكان من عادة العرب فى تلك الظروف أن تتحصن جيوشهم فى مثل ذلك الموقع أو فى ثنية من النهر وذلك لقلة أعدادهم وكان كسيلة قد جمع من البربر والروم قوى ضخمة وسار بهم لحرب زهير وفكر زهير فى الانسحاب ولكن قادة الجيش الاخرين شجعوه على الثبات وحفزوه على السير للقاء كسيلة وفعلا تم بين الجانبين لقاء ودارت معركة من أشد ما مر بالعرب فى افريقية الى ذلك الحين فقد فنى فيها الالوف من الجانبين وخرج المسلمون كعادتهم فى ذلك العصر منتصرين وقتل كسيلة ونفر من كبار الروم والبربر وطارد المسلمون خلالها المنهزمين الى مسافات بعيدة [١١] وقد كانت تلك المعركة مقبرة ولكنها رهيبة وتم قتل كسيلة وانهزم من بقى من أصحابه وعاد زهير الى القيروان ويبدو أن هذه المعركة وان كانت قصيرة الا انها كانت حاسمه اذ عرف البربر قوة العرب وتصميمهم على القتال والانتصار فلجأوا الى الحصون يتحصنون بها وكانت هذه الموقعة قد قضت على قوة البربر كما قضت على ما كان قائما

---

(١٠) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٥٤ .

(١١) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤٠ .

بينهم وبين الروم من تحالف ولقد كانت النتائج الاولى المترتبة على هذا الانتصار الباهر استعادة القيروان وتحصينها مجددا ولذا كانت عودة زهير بعد تلك المعركة الى القيروان ليرتب أمورها ويصلح فى أحوال المسلمين بها وبعد أن تم له فى ذلك ما أراد يبدو انه لم يكن مستريحا للمقام فى تلك البلاد وربما لم تكن الخلافة الاسلامية قد حددت سياستها فيما يتعلق بافريقية ومن هنا لم تطل اقامته فى القيروان ثم عاد أدراجه الى برقة ولا نجد تفسيرا لعودة هذا القائد فى هذه الفترة الحرجة سوى أن تكون مهمته قد انتهت عند هذا الحد انسجاما مع العوامل التى أشرنا اليها، وربما قد يكون انصراف زهير عن الاستقرار فى القيروان بعيدا عن الشعور بالحذر من البربر الذين أثبتوا انهم قوة عسكرية فى التصدى لحركة التوسع العربية رغم هزيمتهم شر هزيمة وقتل كسيلة وانفراط عقد بينهم وبين الروم [١٢] .

ولابد أن نذكر أن بلاد افريقية فى ذلك العصر كانت بلادا بعيدة جدا عن نظر العرب خاصة وهى ميدان حرب عنيفة مع البربر من ناحية والروم من ناحية أخرى، لذا قرر زهير العودة وشرع فيها فعلا وعندما خرج زهير عائدا سمع أن الروم عادوا الى طرابلس وأنزلوا قوة بها وكان زهير قد ترك جيشه يسير قطعا صغيرة منسحبا الى مصر وعندما اقترب من طرابلس كان قد بقى سبعون رجلا فقط من خيرة رجاله وهكذا كانت رحله العودة خطيرة جدا اذ فوجئ زهير بحادث لم يكن فى حسابه عندما قطع عليه البزنطيون الطريق عند درنة على مقربة من طبرق، فاراد زهير أن ينتظر حتى يكتمل الجيش المنصرف فى مهمات عدة ليهاجم الروم ولكن شباب المقاتلين حفزوه على الهجوم وعيروه بالجبن عن لقاء الروم فما كان منه الا أن انقض بمن معه على الروم وكانت النتيجة واضحة منذ البداية فقد استشهد هو وكل من معه وهكذا أصيب المسلمون بكارثة ثانية فى فتوح افريقية وانسحب الباقون من رجال زهير الى برقة وأرسلوا يطلبون المدد من دمشق للعودة

(١٢) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤١ .

الى افريقية، وكان البيزنطيون فى القسطنطينية قد رأوا ضياع هذا الملك العريق بعد أن خلص لهم منذ سنين طويلة أمرا صعبا فقامت الامدادات فى حملة بحرية ضخمة نزلت فى طرابلس بقصد قطع الطريق بين زهير وبين مصر التى هى مركز امدادات الحملات فلم يجد زهير بدا من أن يرتد بسرعة وما أن وصل الى درنة حتى وجد الروم قد تجمعوا فأحاطوا به واستهشهد زهير وانهزم المسلمون وكان ذلك فى بداية عام ٧١هـ/٦٩٠م، ولكن ذلك لم يكن معناه ضياع هذه البلاد ومعها الجهود التى بذلت من قبل [١٣] .

كما حدث من قبل فى المرة الاولى عقب مقتل عقبة بن نافع، ومع هذا فان زهير بن قيس البلوى اذ كان قد استشهد على يد الروم الا انه أفلح فى القضاء على قوة البربر بهزيمة كسيلة وأصحابه فى موقعة الممس .

غزوة حسان بن النعمان الغسانى والاستقرار النهائى فى افريقية (٧١ - ٨٥هـ ٦٩٠ - ٧٠٤م) .

سمع عبد الملك بن مروان فى دمشق (٦٥ - ٨٦هـ - ٦٨٥ - ٧٠٥م) بمقتل زهير بن قيس البلوى فجهز جيشا جديدا سيره الى افريقيا بقيادة حسان بن النعمان الغسانى مكونا من أربعين ألف جندى، وذلك بعد أن انتهت فتنة ابن الزبير واستقرار الامر لعبد الملك بن مروان بصورة نهائية فجدد عزمه على مواصلة الفتوح فى ذلك الجناح الغربى لدولة الاسلام ونلاحظ هنا انه فى عصر عبد الملك بن مروان كان هناك تنافس شديد بين العاملين فى الفتوح ففي الشرق كان على رأسهم الحجاج ابن يوسف الثقفى، وكذلك العاملين فى المغرب وعلى رأسهم عبد العزيز ابن مروان شقيق الخليفة وولى عهده واليا على مصر وكان كل من الفريقين يحاول أن يتفوق على الآخر بما يفتح من البلاد وهو تنافس محمود يرجع الفضل فيه إلى ما وفقت فيه البلاد من فتح فى عصر عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وقد كان نتيجة ذلك التنافس فتح بلاد زادت من الأهمية والاتساع

(١٣) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٢٥ .

على كل ما فتحه المسلمون فى العصر الراشدى بعد فتوح ايران، فقد وصل المسلمون الى غربى الصين ودخلوا حوض السند من ناحية الشرق على أيدى الفاتحين الكبار أمثال قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد ابن القاسم، أما فى الجانب الغربى وهو موضوع حديثنا الآن، فقد بدأ عصر جديد من الفتوح بفضل ما قام به عقبة بن نافع ومن جاء بعده من كبار الفاتحين وأول أولئك الفاتحين الجدد حسان بن النعمان الغسانى الذى سيتولى القضاء على المقاومة الفعلية للروم والبربر فى افريقية (*) .

وكان حسان بن النعمان أول قائد من خارج المدرسة التى زودت جبهة المغرب بالقواد فهو لم يعش حياته العسكرية أو جانبا منها فى هذه البلاد أمثال من سبقوه، بل عاش فى الشام على مقربة من أحداثها وقد كان من كبار رجال عبد الملك بن مروان وكان رجلا شريفا ينسب الى بنى غسان ولهذا كان لقبه الغسانى ومع كبر سنه الا أن شخصيته وخبرته وأمانته مكنت له من القيام بهذه المهمة التى وكلته لها الخلافة الاموية، ومن هنا كان اختيار عبد الملك ليكون القائد العام لهذه الجبهة ومعه عدد ضخم من الجند (**) وزيادة عدد القوات يعنى أن الخلافة الأموية قد تخلصت من متاعبها بالقضاء على ثورة ابن الزبير واتجهت إلى المغرب بروح عسكرية اسلامية جديدة ولابد أن عبد الملك كان على معرفة وثيقة بالقائد الجديد وعلى ثقة بقدراته العسكرية فمنحه ثقة كبيرة وصلاحيات مطلقة وقوله له «انى قد أطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك وأخرج الى بلاد افريقية على بركة الله» وتلك هى أقوال عبد الملك ابن مروان لحسان بن النعمان الغسانى بعد تعيينه قائدا عاما على جبهه المغرب (***) .

وتبدو لدا شخصية هذا القائد من خلال كتابات المؤرخين متلاحقة مع أعماله الحربية وهى أعظم صفات قائد عسكرى عليه أن يبدأ من القليل فى أرض يسيطر عليها

(*) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤٥ .

(**) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٦٩ .

(***) ابن عذارى: مرجع سابق جـ ١ . ص ٣٤ .

شعور العداء والرفض لكل ما هو عربى واسلامى بل هى مليئة بالحقد فهناك ثلاثة من القواد الكبار دفعوا حياتهم ثمنا لهذه العلاقة بعد التوسع العربى فى أرض المغرب، ومن هنا فان جبهة المغرب كانت بحاجة الى هذا النوع من القيادة أمثال حسان بن النعمان وهو من الذين تجتمع عندهم القدرة القيادية العسكرية والدبلوماسية وهكذا فان الاستراتيجية التى وضعها حسان كأساس لتحركه الى الغرب هى الوصول الى قلوب البربر وعقولهم ومن ثم اجتذابهم الى جبهة واحدة مع العرب ضد البيزنطيين حلفاء الامس القريب ولا شك انه أصاب فى ذلك نجاحا كبيرا حيث أصبح هذا النهج تقليدا عاما للسياسة الأموية فى بلاد المغرب .

غادر حسان مصر حيث كان مركز تجمع القواد فى عام ٧٤هـ/ ٦٩٣م متخذا الطريق المعروف حتى طرابلس، وذلك لانه استعاد القيروان بغير صعوبة، وكانت قرطاجنة، القاعدة البيزنطية الشهيرة أبرز أهداف هذا القائد حيث كان قد نجح فى الوصول الى القيروان دون أدنى صعوبة ولم يضع القائد وقتا فقد خرج لنوه عازما فسار الى قرطاجة لقتال الروم وكان كما تقول المصادر وكان عليها حاكم من أعظم ملوك الروم ويبدو أنه الحاكم العام لكل افريقية الرومانية، فما أن ظهرت الجيوش الاسلامية حتى أسرع وهرب الى صقلية، فدخل حسان قرطاجة وسبى وقتل عددا كبيرا من سكانها لانها أخذت غصبا لا طوعا حيث رفضت شروط التسليم وأصرت على المقاومة العسكرية للقوات الاسلامية، وكانت قد دارت معركة حامية بالسيوف بل طاحنة بين العرب وبين حاميتها هزم فيها البيزنطيون وأجبروا على مغادرة المدينة مخلفين ورائهم أشلاء عدد كبير من القتلى فذهب فريق منهم الى صقلية وفريق آخر أبحر الى أسبانية [١٤] وكانت أسبانيا فى تلك الأوقات تخضع لسيطرة القوط الغربيين، فكان لجوء تلك القوات الرومانية الى اسبانيا قد أغرى العرب بالاتجاه الى اسبانيا والاهتمام بشأن هذه البلاد وذلك لأول مرة فى تاريخ الفتوحات الاسلامية تظهر أسبانيا أمام العرب أثناء حرب القضاء وتصفية الوجود البيزنطى فى المغرب،

(١٤) ابراهيم حركات المغرب عبر التاريخ ص ١٤٦ .

وقد كان سقوط قرطاجة بالغ الأمر على مسيرة الفتوحات العربية فى المغرب وليس من المستبعد أن يكون الاسطول الأموى قد تدخل فى هذه المعركة [١٥] .

ولكن على جانب آخر نجد آراء تذكر [١٦] أن الاسطول الاسلامى الذى كان يتألف بوجه خاص من سفن مصرية اشترك فى العمليات الحربية ضد البيزنطيين فى ولاية حسان بن النعمان الغسانى، وقد أحرز هذا الاسطول فى مياه قرطاجة انتصارا ساحقا على الاسطول البيزنطى بقيادة البطريق «جان» أعظم قواد «ليونتيوس» وكان هذا الاسطول قد نزل على الشاطئ الافريقى فى عام ٧٩هـ/٦٨٩م [١٧] وفر معظم من كان به من الروم الى صقلية فى حين قتل من بقى منهم بسيوف المسلمين [١٨] . وكان المسلمون قد حاصروا المدينة وأحكموا الحصار حولها واخترق العرب أسوار المدينة بحرأة متناهية وأسفرت هذه العملية عن تدمير القاعدة البيزنطية العريقة بحيث أصبحت اطلالا خربة، وهكذا استطاع حسان الغسانى أن يمهد الطريق ويتابع مسيرته التوسعية على أرض المغرب والاجتياح فى مختلف نواحى المغرب، ذلك لان قرطاجة كانت عقبة كأداة فى وجه الزحف العربى الاسلامى ومركزا قويا من مراكز المقاومة البيزنطية البربرية. بل كانت باستمرار تغذى بالثورة والتآمر ضد الوجود الاسلامى العربى ومن هنا كان تخريبها [١٩] وقد تم هدم كل منشآت هذا الميناء حتى لا تعود اليه أساطيل الروم مرة أخرى وعاد حسان بعد ذلك الى القيروان، بعد أن كان قد تقدم غربا حيث تجمع الروم فى بنزرت فقاتلهم حسان وهزمهم فتقهقروا الى هبيون عنابة حاليا، وتحصنوا بها. وتابع حسان عمليات ضد البيزنطيين الذين كسرت شوكتهم سقوط قرطاجة، فشن سلسلة من الهجمات المتوالية على مواقعهم فى الغرب وذلك على امتداد الساحل الشمالى. فسقطت فى يده بنزرت بعد معركة عنيفة شارك فيها البربر وانسحبت فلولهم مضطربة، حتى انتهى بها الأمر إلى الاعتصام فى اقليم

---

(١٥) سيدة أسماعيل كاشف: الوليد بن عبد الملك . ص ١٢٨ .

(١٦) أحمد مختار العبادى: تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس . ص ٢٧ .

(١٧) البكرى: مصدر سابق . ص ٣٨ .

(18) Charlos, D. : Histioredu Mcyonage. P. 207

(١٩) ابن الأثير: مصدر سابق جـ ٤ ص ١٨ .

«بونة» الى الغرب من هذه المدينة. ولذا فاننا نجد أنه بعد أن ظفر حسان بهذه الانتصارات المتوالية على البيزنطيين والبربر واحراز هذا الانتصار الباهر، فانه يقرر العودة الى القيروان ليأخذ مع جنوده نصيبا من الراحة قبل مباشرة الرحلة الثانية من الفتوحات وتنفيذ خطته وحسم الموقف ضد البربر، ولعل حسان كان يدرك فى ذلك الوقت أن سلاح المحاورة مع هؤلاء البربر قد تكون له نتائجه الممكنة فما كاد يزمع على التحرك من القيروان حتى داهمت الأخبار عن وجود قوات ضخمة من البربر البتر (كسيلة البربر البرانس) الذين تصدوا هذه المرة للعرب بعد نكبة البربر البرانس ومقتل كسيلة فى معركة ممس وكانت هذه الحشود وتلك المرة تحت قيادة امرأة صلبة من قبيلة جراوة معروفة لدى العرب باسم الكاهنة. وقد كان اسمها الحقيقى داهية بنت مانية بن تيفان .

وندرك مرة أخرى هكذا كانت مدينة القيروان هى الأساس الهام الذى تنبعث منه محاولات عبد الملك بن مروان لاتمام فتح هذه البلاد فأرسل الى أشراف العرب ليحشدوا اليه الجند فى الشام وأقبل الناس على الانحراط فى سلك المجاهدين واستطاع عبد الملك بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية كلها أن ينصرف كلية الى فتح افريقية، فأعاد الكرة مرة أخرى عام ٧٦هـ بقيادة حسان بن النعمان الغسانى وكانت الخطة التى التزمها هذا الفاتح تدل على تطور هام فى الحملات العربية فى شمال افريقية [٢٠] فقد انصرف العرب الى مهاجمة القلاع الساحلية كما سبق أن ذكرنا مثل قرطاجة وهذا يدل على نمو البحرية الاسلامية نموا جعلها تقدم على المخاطرة باقتحام ميدان المغرب بمساعدة القوات البحرية الاسلامية المصرية [٢١] وهكذا ندرك أن دخول البحرية الاسلامية المصرية بلاد المغرب يعتبر طليعة الجهود الحقيقية التى ستبذل لقهر الروم واتمام فتح البلاد وكان من نتيجة ذلك أن فتحت مدينة قرطاجة [٢٢] معقل المقاومة وقاعدة الاسطول البيزنطى بعد مقاومة عنيفة ونضال مستمر وهزمت البحرية البيزنطية وأحرز الاسطول العربى المصرى

(٢٠) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب . ص ١١٨ .

(٢١) حسن محمود: مرجع سابق . ص ٩٤ .

(٢٢) الدباغ: معالم الايمان جـ ١ ص ٤٢ .

الناشئ أول نصر له فى هذا الميدان وكانت معركة افريقية معركة البحرية الاسلامية الناشئة وتستطيع أن نقول أن فتح افريقية قد تم بعدها، وأراد حسان بن النعمان الغسانى أن يثبت أركان هذا النصر ويضع حدا لمحاولات الروم البحرية فأنشأ قاعدة للاسطول الاسلامى فى مدينة تونس، واذا كانت القيروان قد أصبحت حصن البلاد من الداخل ومعسكرا للقوات البرية فقد أصبحت تونس قاعدة للاسطول العربى. وكان حسان موفقا كل التوفيق حين اهتم بتعمير هذه المدينة وجلب لها بعض الاسر المصرية القبطية (٢٣) المشتغلة بصناعة السفن لتدريب العرب وتمكين العرب وأهل البلاد من البربر من ركوب البحر وكانت الخطة الثانية التى اعتمد عليها حسان بن النعمان الغسانى هى التقرب الى أهل البلاد من البربر وتقرب الفاتحين اليهم بتولية المسلمين البربر منهم فى وظائف الولاية الافريقية وتمتعهم بالمساواة الكاملة مع العرب الفاتحين لهذه البلاد وهكذا أدرك أهل البلاد الفرق الواضح بين السياسة العربية والسياسة البيرنطية القديمة فاشتد ساعد الاسلام وأقبل عليه البربر منذ ذلك الوقت اقبالا عظيما ساعد على طبع البلاد بالطبيعة العربية الاسلامية (٢٤) .

لكن فتوحات حسان النعمان قد صدمت هذه المرة بالكاهنة وهى زعيمة بربرية ظهرت فى الميدان العسكرى على أرض المغرب تتحدى الزحف العربى الاسلامى ويطلق العرب عليها الكاهنة وقد يكون ذكر اسمها داهية بنت نامية بن تيفان، ليس الاسم الصحيح على وجه الدقة فان بعض المؤرخين يسميها أيضا داهية بنت داهيا وليس مانية وربما تكون هذه التسمية مأخوذة من القصص الشعبى ولا شك فقد ظهرت هذه المرأة فى جبال الاوراس على رأس قبيلة من أكبر قبائل البتر الزناتية (زنانة) تسمى قبيلة جراوة ووقفت تعاند التقدم الاسلامى وأعلنت أنها لن تستريح حتى يخرج العرب نهائيا من بلاد افريقية. ويبدو أن هذه المرأة عندما رأت أن العرب قد كسروا شوكة البرانس بالقضاء على قوتهم بقيادة كسيلة، قررت أن دورها قد جاء فرأت أن تبادر العرب قبل أن يبادروها، وتصور العرب هذه المرأة فى صورة أقرب الى شخصيات الاساطير. فنجد المؤرخين العرب

---

(٢٣)ابن ابى دينار المؤنس فى أخبار افريقية والمغرب ص ٨ .

(٢٤) حسن محمود: مرجع سابق ص ٩٥ .

يذكرون أن الكاهنة هذه شخصية ساحرة شديدة السحر فى حوالى الخمسين من عمرها وهى امرأة ذات شخصية خلابة ولها قدرة على الاتيان بالسحر. والكهانة والتنبؤ بما سيحدث وبطبيعة الحال كان ذلك الخبر مفاجأة لحسان ولكنه بما عرف عنه من البسالة وبعد النظر عرف أن هذه المرأة من الممكن تسبب للعرب متاعب كبيرة لانها متحصنة فى جبال الاوراس وفى الطرف الشرقى لجبال الاطلس بجمهورية الجزائر فى اقليم قسنطينه وما يليها شمالا وجنوبا وكان الممكن أن تكون عقبة فى سبيل تقدم العرب (٢٥) .

ويبدو انها كانت تتصف بنفس الكهانة وتمارس نفوذا روحيا على جماعاتها فضلا عن نفوذها السياسى الواسع وهى تختلف عن كسيلة زعيم البرانس الذى كان يدين بالنصرانية على الارجح، ومن المعروف أن الديانات السماوية قد أخذت طريقها الى المغرب مع الدول التى كانت تجتاحه بين الحين والحين، فانتشرت المسيحية بصفة خاصة فى المدن والمناطق الساحلية أى فى مناطق استقرار البربر والبرانس، أما اليهودية فكانت أكثر توغلا نحو الداخل حيث كانت عقيدة البربر البتر (٢٦) (آراء بعض الغربيين ولاسيما المؤرخون اليهود ومن سار فى فلكهم) الا أن الوثنية كانت اكثر أنتشارا بين البربر البرانس والبتر، ولم تستطع المسيحية أو اليهودية الثبات وسط معارك الاضطهاد وتمسك البربر بالوثنية والتى كانت أكثر شيوعا بين البتر منهم والبرانس .

وعلى الرغم من المفاجأة التى أحدثها تحرك الكاهنة فأن القائد العربى لم يفقد زمام المبادرة السريعة، بل تحرك لاعتراضها فى «باغية» ولكن الكاهنة كانت أكثر سرعة بدخولها الى المدينة والاعتصام بها حيث وقعت معركة عنيفة جدا على مقربة منها فى مكان يعرف بنهر «نينى» فهزم العرب وفقدوا عددا من جنودهم بين قتيل وأسير غير أن الهزيمة لم تكن ساحقة على غرار الهزائم السابقة فقد استطاع حسان بن النعمان أن ينجو بنفسه ويضطر للارتداد ويقود عملية ناجحة للارتداد والانسحاب الى برقة للمرة

---

(٢٥) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب الاندلسى ص ٤٣ .

(26) Vasiliev' B. : Byzante Cfles Aradee'. P.24

الثالثة منذ معركة تهودة ومقتل [٢٧] عقبة بن نافع حيث أخرجته الكاهنة من أفريقية (تونس) وطرابلس وهناك فى برقة تحصن حسان وبنى بيونا تسمى قصور حسان وأرسل للخليفة بطلب المدد، أما الكاهنة فقد اطمأنت إلى أن العرب قد ابتعدوا عن بلادها فعادت الى مواطنها وظنت أن العرب لايطلبون من هذه البلاد الا المغانم فى حين أن حقيقة الغزو الاسلامى نشر عقيدة الخلود عقيدة الاسلام ورفع لواء الاسلام وراية لا اله الا الله محمد رسول الله فقررت تخريب الطريق الذى يسلكه العرب حتى لايبقى لهم مطمع فى افريقية مرة ثانية فأمرت رجالها بقطع الاشجار وتهديم القرى واحراق المزارع وطمس الآبار، فكان لعملها هذا أسوء الأثر لان أصحاب الأشجار والمزارع والقرى والآبار كانوا من البربر البرانس، نفروا منها نفورا شديدا وأرسلوا إلى حسان بن النعمان يستغيثون به وكانت الكاهنة قد أسرت نفرا من رجال المسلمين من بينهم رجل يدعى «خالد بن يزيد» فتبنته واتخذته رجلها الاول بل مستشارها [٢٨] .

وهكذا تصاب مرة أخرى جهود العرب فى المغرب بضربة أخرى فيعجزوا عن تثبيت أقدامهم فى تلك الافصاح ولكن هزيمتهم هذه المرة لم تعن خسارة كل شئ لان حملة حسان بن النعمان الأولى استطاعت بدون شك أن توقع الضربة القاضية بالنفوذ البيزنطى فى المغرب وتقضى على قوة البربر البرانس بقيادة كسيلة ومن هنا لم يتبق أمام الوجود الاسلامى لتوطيد نفوذه فى أرض المغرب غير كسر شوكة البربر البتر، وبعد انسحاب حسان الى برقة أثر الهزيمة هذه ومقتل عدد كبير من القوات الاسلامية فان حسان كتب الى عبد الملك بن مروان بطلب المدد بينما بقيت الكاهنة تحكم كل الشمال الافريقى، فى حين نجد البيزنطيين قد عادوا مرة أخرى الى قرطاجنة الا أن نفوذهم قد زال فعليا منذ هزيمة حسان لهم، وفى نفس الوقت لم تنجح الكاهنة بعد انتصارها على العرب فى اقناع

---

(٢٧) ابن عبد الحكم: مصدر سابق . ص ٢٧

(٢٨) حسن مؤنس: مرجع سابق ص ٤١ .

كافة البربر بزعامتها المطلقة حيث خرج البربر البرانس عن طاعتها وأرسلوا إلى حسان يطلبون منه العودة ، ولعل سياستها فى اتباع سياسة الأرض المحروقة قد أثارت عليها سخط البربر البرانس، وذلك لاعتقادها أن الحملات العربية الاسلامية كانت تستهدف المدن العامرة بما فيها من خيرات ومغانم وهكذا كان الوقت حليفا للعرب خلال السنوات التى قضاها حسان ابن النعمان فى برقة منتظرا جولته الثانية مع الكاهنة (٢٩) .

وفى نفس الوقت فان حسان قد صمم على الانتصار، كذلك فان الخليفة عبد الملك بن مروان كان هذه المرة ماضيا فى اتمام فتح المغرب مهما تكن الصعاب والمعوقات، لذا نجد انه لم يرسل الى حسان مددا الا بعد مرور خمسة أعوام قد اكتملت على الاستقرار العربى الاسلامى، مما جعل حسان يمضى هذه السنوات الخمس فى برقة فى منطقة عرفت فيما بعد باسم قصور حسان (٣٠) ولكن هذا الاستعداد لغزو افريقية لم يكن السبب الوحيد لهذا التأخر الذى استمر خمس سنوات، بل كانت الخلافة الأموية فى دمشق مشغولة بأمر الخوارج الذين قاموا بالثورة والمشرق وكانت ثورتهم قد اشتدت هذه المرة استدادا كبيرا حتى احتاجت الخلافة الأموية أن تحشد كل قواتها فاذا تمكنت الدولة من التغلب عليهم كان أمر تسيير القوات والحملة الاسلامية الى المغرب لنجدة حسان بن النعمان (٣١) .

وهكذا كانت الجولة الثانية مع الكاهنة ذلك لانه فى نفس الوقت لم تفقد الخلافة فى دمشق ثقتها فى القائد حسان بن نعمان الغساني فأعطته فرصة جديدة وحيث وصلت الامدادات الى حسان عام ٧٩هـ/ ٦٩٨م فنهض للقاء الكاهنة ولانقاذ المسلمين فى افريقية وكذلك كان لاعانة البربر الذين استنجدوا به أهمية بالغة فزادت الكاهنة من عمليات التخريب حتى جعلت افريقية (تونس) خرباويسمى المؤورخون ذلك بخرب افريقية

(٢٩) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٧٣ .
(٣٠) زاهر رياض: مرجع سابق ص ٣٥ .
(٣١) البلاذرى: فتوح البلدان . ص ٢٣١ .

الأول حيث سيكون هناك خراب ثان لافريقيا (تونس) على يد العرب الهلالية فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى [٣٢]. (أقوال غير صحيحة عن الهلاليين) (أنظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة به باب كامل عن العرب الهلالية) .

وهناك آراء تذكر أن حسان توجه للمرة الثانية الى الكاهنة عام (٨١هـ/٧٠٠م) لاستئناف عملياته التوسعية فى المغرب والقضاء على زعيمة البربر والواقع أن الظروف كانت ملائمة أكثر هذه المرة عندما وجد حسان أن حكم الكاهنة قد استنفذ نفسه وأن عدد كبيرا من البربر البرانس كان تواقا للخلاص منه بعد تسلط وحكم البربر البتر واستبداد الكاهنة الذى جر معه الخراب الى بلادهم وأقاليمهم الساحلية [٣٣] .

وهكذا سلك حسان الطريق التقليدى ومعه قواته الكثيرة التى أمدتها به الخلافة الأموية فى دمشق ووصل فى تقدمه حتى مدينة (قابس) الى الجنوب الغربى من صفاقس ومن هناك انعطف شرقا عبر الطريق الصحراوى الى حصون الكاهنة فى الاوراس ويبدو أن جانبا كبيرا من قبائل البربر قد وقف موقف الترحيب من حملة حسان اذ أدرك أن العرب مصرون على المضى فى عملياتهم العسكرية فى المغرب حتى النهاية ولم يكن أمام حسان مجال للتردد فى اختيار الموقف، حيث كان اللقاء الحاسم بين حسان والكاهنة وسط جبال الاوراس وكان خالد بن يزيد (الأمير العربى) يراسل حسان ويبلغه سرا بأحوال الكاهنة وتذمر الناس من أعمالها وأحست هى بأنها لن تستطيع الصمود أمام العرب مرة أخرى وتنبأت بأنها مقتولة، وهكذا لم تكد تظهر طلائع الحملة العربية حتى تغيرت الصورة واستبدل العداء بالترحاب ودخلت أفواج من البربر تقاتل الى جانب العرب [٣٤] معلنة بداية الانقلاب الجذرى فى تاريخ المغرب وارتباط العرب والبربر بمصير واحد وقضية واحدة

---

(٣٢) حسين مؤنس: مرجع سابق ص ٤٤ .

(٣٣) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٥٣ .

(٣٤) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٧١ .

مشتركة، وهكذا نرى أن تعزيز الجيش العربى الاسلامى وتطعيمه بعناصر من البربر كانوا على معرفة جيدة بطبيعة الأرض ومتقنة كل الاتقان لأساليب حرب الجبال من العوامل المشجعة للاندافاع العربى، كما انه ترك انعكاسه السلبى على الكاهنة، بعد أن شعرت باختلال الموازين العسكرية لصلح العرب، وهكذا ما أن وصلت الامدادات حتى خرج حسان وسار غربا ودار القتال فانتصر حسان وانهزم البربر وتعقبهم حسان واسترد القيروان واتخذها قاعدة لعملياته الحربية وتقدم نحو الغرب فاستولى على قفصة واتخذها بلاد الجريد كما استولى على قسطنطينية وكانت الكاهنة قد انسحبت نحو الجنوب بعد أن خربت البلاد تخريبا تاما. وربما فعلت ذلك ليأسها من الانتصار فى معركة حربية ضد العرب المسلمين هذه المرة، وهكذا كان حسان فى نفس الوقت يتابع تقدمه المظفر فى أقاليم المغرب الأوسط متعقبا فلول الكاهنة على أن زعيمة البربر تشأ أن تتابع لعب الفرار حتى نهايتها، فأرادت أن تضع حدا لها بالعودة الى قتال العرب وهكذا تعقبها حسان حتى التقى بها واجبرها الى الدخول معه فى معركة حاسمة عند بئر الكاهنة (٣٥) والتى يعتقد انها أحد المعاقل فى منطقة الاوراس وتسمى كذلك لانها كانت تعسكر حولها. وتنتهى بهزيمة مدمرة للكاهنة وقتلها فى عام ٨٣هـ/٧٠١م وهكذا قتلت الكاهنة فلم يجد البربر بدا من التسليم على أن يكون منهم جنود من البربر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألف بقيادة العربى المسلم خالد بن يزيد الذى كانت الكاهنه قد أسرته فأجابهم حسان إلى ما يريدون، وكانت الكاهنة قد طلبت من خالد بن يزيد أن يستأذن لولديها عند حسان وفعل خالد بن يزيد ذلك أما هى فصمدت وقالت انها لابد أن تحارب حتى الموت لان الملوك لايستسلمون، وهكذا كانت بئر الكاهنة هى نهاية المعركة التى قضى فيها العرب ببسالتهم المعروفة على جيش الكاهنة وقتلوها وقضوا بذلك على المقاومة الفعلية للبربر فى ذلك الجزء الغربى من الدولة الاسلامية (٣٦) .

(٣٥) ابن عبد الحكم: مصدر . ص ٢٧١ .

(٣٦) حسين مؤنس: مرجع سابق . ص ٤٥ .

وكان انضمام البربر إلى المسلمين يعنى بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بينهم وبين العرب وهى مرحلة التعاون التام بين الفاتحين وأهل البلاد بعد أن أيقنوا انه سيكون لهم ما للعرب من حقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات وهى سياسة أخوة وتحالف، تخالف ما جرى عليه الأمر بين العرب وغير البربر فى البلاد المفتوحة .

وبهذه المعركة نستطيع القول أن عملية فتح المغرب قد دخلت مرحلة جديدة من مراحلها الصعبة الطويلة فمن الآن أصبح التقدم فى شتى الاقاليم ممكنا بل سهلا دون أدنى صعوبة أو وجود أى نوع من المفاجآت بعد أن تم احتواء كل من البربر البرانس بمقتل كسيلة والبربر البتر بمقتل الكاهنة وطرد البيزنطيين من أراضى المغرب، صحيح أن الفتح الاسلامى لم يكتمل نهائيا للمغرب بعد، لان جيوبا من المقامة البيزنطية وبعض البربر لاتزال بحاجة الى تصفية الا أن الموقف العام فى المغرب قد اتضحت صورته بعد مقتل الكاهنة، مما لا يدع مجالا للشك بعد ذلك فى تحرك القائد العربى المسلم حسان بن النعمان الغسانى، بسرعة لينتقل الى جبهةثانية ضد البيزنطيين الذين كانوا قد استعادوا قرطاجنة بعد أعقاب هزيمة حسان على يد الكاهنة وانسحابه الى برقة، وكان الامبراطور البيزنطى اليونيتوس Leonitus ، قد أرسل حملة بحرية نجحت فى السيطرة على المدينة عام ٧٩هـ/ ٦٩٨م وذلك فى غياب الوجود الاسلامى، غير أن حسان تمكن من استردادها وتخريب كل ما عمره البيزنطيون وقد أدى سقوطها هذه المرة الى زوال كل أثر للسيادة البيزنطية على السواحل الشمالية للمغرب [٣٧] .

وكانت الخطة الاسلامية هى القضاء على كل أثر للوجود البيزنطى وتحطيم كل معاقل لهم حتى لا يكون هناك مجال أمامهم للعودة الى هذه البلاد مرة أخرى، وليس ذلك فقط انما الشروع فى انشاء قاعدة عسكرية بحرية على مسافة قريبة من قرطاجنة حيث اتخذت مدينة تونس البلدة القديمة مركزا بحريا لها. وكان ذلك اجراء فى وقت

(٣٧) المالكى: رياض النفوس . ص ٣٣ .

انتشرت فيه السيادة العربية فوق هذه الرقعة الواسعة من أرض المغرب حفاظا عليها وسياجا لها من غزوات البيزنطيين الذين ما انفكوا يحتلون المرتبة الأولى فى السلاح البحرى على المستوى العالمى وبذلك تظهر نواة البحرية العربية الاسلامية فى المغرب لتصبح بعد قليل فى سنوات معدودة قوة فاعلة لاقادرة فقط على حماية الشواطئ المغربية وانما التوغل فى عرض البحر وشن الغارات على الجزر المنتشرة هنا وهناك (٣٨) .

انشاء الأسطول المغربى

وهكذا نرى أن العرب الفاتحين لافريقية لم يؤسسوا دارا لصناعة السفن والأسطول البحرى الا بعد حملة حسان بن النعمان الغسانى الثانية ولم يصبح للمغرب الاسلامى أسطوله الخاص به الا فى عام ٨٩هـ وكان العرب الفاتحون لافريقية يعتمدون فى غزواتهم البحرية فى عام ٢٨هـ الى عام ٨٩هـ على سفن مصر التى كانت تغزو جزر صقلية وسردانية وتقفل بعد ذلك عائدة الى قواعدها فى مصر، وقد تبين لولاة العرب فى افريقيا أهميه انشاء دار صناعة للانشاء البحرى القوى فى احدى المدن الساحلية لتزويد الجيش البحرى بأسطول مستقل عن أسطول مصر ينفرد بتحركاته فى البحر لغزو صقلية وغيرها من قواعد البيزنطيين البحرية التى كانت تشكل خطرا ماثلا أمام السواحل التونسية ويقوم بحماية هذه السواحل والدفاع عنها ضد غارات البزنطيين (٣٩) .

وإلى حسان بن النعمان يرجع الفضل فى انشاء دار الصناعة بتونس بتشجيع من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وانشاء بحرية اسلامية فى المغرب حيث أبدى عبد الملك بن مروان اهتماما كبيرا بالقوة البحرية وذلك بسبب ماتعرضت له البلاد الاسلامية فى بداية خلافته من غارات الروم والمردة وقد اختلف مؤرخو العرب فى اسم مؤسس دار صناعة تونس فبعضهم ينسبها الى حسان بن النعمان وبعضهم ينسبها الى موسى بن نصير

---

(٣٨) عبد العزيز السيد سالم ومختار العبادى: تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس . ص ٢٨ .

(٣٩) ابن عذارى المراكش: مصدر سابق جـ ١ ص ٤٨ .

ويعضهم الى عبد اللّه بن الحبحاب غير أن عمل ابن الحبحاب لم يكن يعدو ترميم بناء دار الصناعة وتجديدها [٤٠] ولذلك فان الخلاف يصبح منحصرا بين حسان بن النعمان وبين موسى بن نصير وللتوفيق بين الاثنين نرى أن حسان بن النعمان هو الذى شرع فى انشاء دار الصناعة بتونس وذلك بعد أن أجرى البحر بين مرسى رادس وموقع دار صناعة السفن الواقع إلى الشرق من تونس [٤١] ثم استكمل موسى بن نصير بناء ما بعده، ولو أن موسى بن نصير هو الذى أسس تونس ودار صناعتها فكيف نعلل مقاطعة حسان بن النعمان لعبد العزيز بن مروان والى مصر واتصاله مباشرة بعبد الملك بن مروان فى دمشق والذى أمر أخاه عبد العزيز تسيير أقباط مصر الى تونس [٤٢] .

ويذكر المؤرخون أن حسان بعد أن تغلب على الكاهنة فى عام ٨٢هـ وقضى على كل أثر للمقاومة فى افريقية اتجه الى قرطاجنة ولكنه كان يخشى أن يفاجئه البيزنطيون بغزوها من البحر مرة ثانية فرأى أن يقيم تجاهها مدينة عربية اسلامية، فاختار لذلك الغرض موقعا قديما يقال له ترشيش، وكانت مجرد قرية صغيرة تقع بجوار بحيرة الى الجنوب من مرسى رادس وعلى بعد نحو اثنى عشر ميلا شرق قرطاجنة وكان يصلها بها طريق رومانى قديم فنزل حسان بترشيش التى عرفت فيما بعد باسم جماعة من المسلمين ومضى إلى القيروان، فأغار البيزنطيون عليهم من البحر ولم يكن يحميهم عنهم سور أو حصن فتعرضوا لسيوف البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ولما بلغ حسان بذلك أرسل الى عبد الملك ابن مروان [٤٣] وفدا من أربعين رجلا من أشراف العرب لاطلاعه على ما يعانيه المسلمون هناك من غارات أساطيل البيزنطيين وكتب اليه معهم رسالة وضح له فيها أهمية انشاء دار صناعة للسفن فى تونس فطلب منه أن يبعث اليه جماعة من أقباط مصر يتولون

---

(٤٠) ابن أبى دينار: مصدر سابق ص ١١ .

(٤١) البكرى: مصدر سابق . ص ٢٩ .

(٤٢) عبد العزيز السيد سالم: مرجع سابق . ص ٣١ .

(٤٣) عبد العزيز السيد سالم: المغرب الكبير . ص ٢٥٠ .

انشاء دار صناعة للسفن فى تونس وذلك لشهرة الأقباط فى صناعة السفن (٤٤) .

وعظم على عبد الملك بن مروان ذلك وعز عليه وكان رجلا مجاهدا شارك فى فتوح افريقيا فى حملة معاوية بن خديج ان يتعرض المسلمون لهذه الأخطار المتواصلة فى افريقية فعمل على تحقيق رغبة حسان ونصحه اثنان من الصحابة هما أنس بن مالك وزيد بن ثابت بامداد هذه البلاد ونصرة أهلها وبينا له فضل المرابطة فيها فكتب عبد الملك الى أخيه عبد العزيز بمصر أن يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده (٤٥) وأن يحملهم فى مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى تريشنش وهى تونس وكتب الى ابن النعمان يأمره أن يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وأن يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر وأن يضع بها المراكب ويجاهد الروم فى البر والبحر وأن يقروها على ساحل الروم (٤٦) فوفد القبط عليه وهو مرابط فى تونس فجعل معظمهم فى رادس ووزع الباقين على مراسى افريقية ثم أجرى فى البحر من رادس الى موقع دار الصناعة واستقدم البربر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن وأمر القبط بعمارتها فى الميناء المتصل بالبحيرة وأصبحت البحيرة متصلة بالبحر وتحولت تونس على هذا النحو الى قاعدة بحرية هامة لمهاجمة الجزر البيزنطية وفى مقدمتها صقلية وسردانية وصارت تونس ميناء رئيسة تأوى اليها السفن فى فصل الشتاء. وتحتمى فى مرساها عندما تهب العواصف والانواء ودار صناعة فسيحة للمسلمين والسفن والآلات وقد كان لهذه المدينة أن تصبح أعظم ثغور أفريقية بعد ذلك بثلاثين عاما على أيدى عبد الله بن الحبحاب (١١٦ – ١٢٢هـ) وثغرا للجهاد الاسلامى والغزو البحرى (٤٧) .

ومن خلال ذلك أراد حسان أن يضع حدا لمحاولات الروم استعادة البلاد ففكر ألا يكتفى باحتلال الداخل بل فكر فى أن ينشئ على الساحل وهو مكان قدوم الروم محرسا

---

(٤٤) التيجانى: الرحلة ص ٦ .

(٤٥) البكرى: مصدر سابق . ص ٢٨ .

(46) Charlès. D. : OPCIT : P . 93

(٤٧) عبد العزيز السيد سالم: تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس . ص ٣٣ .

قويا حصينا يصد الروم اذا حاولوا النزول وليبنى أسطولا يغير به على سواحل الروم فيشغلهم عن الاغارة على افريقية وهكذا كان اختيار تونس وكانت الى الداخل قليلا يفصلها عن البحر بحيرة ضحلة فأخذ بخط المدينة ويحفر قناة تصل البحيرة بالبحر وبذلك أصبحت هذه البحيرة مسرحا آمنا تقى المدينة من أمواج البحر واجتمعت تونس والقيروان وأصبحتا مدينتين اسلاميتين وكان من نتيجة ذلك أن أخذ المسلمون فى الاطمئنان فى أماكنهم الجديدة وأخذ البربر يختلطون بهم .

وهكذا نجد القائد حسان بن النعمان الغسانى بعد تصفية المراكز البيزنطية والقضاء على شوكة البربر يعود الى عاصمته القيروان لان مهمات أخرى على جانب من الأهمية كانت فى انتظاره لتكون آخر الصفحات فى عملية الاستقرار النهائى المنتظم فوق أرض المغرب، لانه ليس معنى قتل الكاهنة كان آخر لقاء بين العرب والبربر لانه بقيت أمام المسلمين فصول طويلة من الصراع فى المغرب حتى تستمر سيادة العرب والاسلام على الجناح الغربى لدولة الاسلام وهكذا عاد حسان بعد ذلك السفر الى القيروان وقد حزم أمره على أن يتم عمله بالقضاء على كل بقية للروم فى افريقية [٤٨] فاستولى على كل مكان وصلت اليه قواته .

وهكذا بعد أن أتم حسان بن النعمان فتح افريقية والمغرب الأوسط ورأى أن عليه قبل أن يسترسل فى الأعمال العسكرية أن ينظم شئون هذه البلاد الواسعة التى دالت للاسلام بعد ما يقرب من ستين عاما (٦٠ سنة) من الصراع الدموى فقد بدأ فتح المغرب على يد عمرو بن العاص عام ٢٢هـ/ ٦٤٣م وها نحن مع حسان بن النعمان فى عام ٨٢هـ/٧٠١م . لذا نجد حسانا ينصرف إلى معالجة الشئون الادارية المتعلقة بالدواوين والخراج والجيش والشرطة [٤٩] وغيرها من الاجراءات التقليدية التى تتخذ عادة فى البلاد

(٤٨) ابراهيم بيضون: مرجع سابق . ص ٥٤ .

(٤٩) ابن عبد الحكم: مصدر سابق ص ٢٧١ .

المفتوحة فضلا عن الاهتمام بنشر الدعوة الاسلامية واعداد الدعاة والفقهاء ورجال الدعوة للتوغل بين القبائل الوثنية عملا على نشر دين الله الخالد ونشر الدين الاسلامى الحنيف واللغة العربية فى صفوفهم . وقد أعطت هذه السياسة الحكيمة ثمارها السريعة وكان الفضل فى ذلك يعود إلى هذا القائد المجاهد الذى استطاع بجرأته وتسامحه اخراج البربر من عزلتهم التاريخية وادخالهم فى بوتقة الحكم العربى الاسلامى فكان لهم دورهم الفعال فى استكمال عمليات الفتح فى المغرب بشكل نهائى ومن ثم استئنافها على الضفة الأخرى من المضيق حيث كانت طلائع هذه العمليات فى غالبيتها من البربر (٥٠) .

ومن الضروري الاشارة إلى أن بعض العوامل التي كان لها دور ايجابي في تغيير الاتجاه العام لحركة التوسع وتحقيق هذه الانتصارات في المغرب هي أن المقاتل العربي صهرته الحروب في هذه الجبهة وأكسبته خبرة بطبيعة البلاد الجبلية مما يعنى استحداث فنون جديدة في القتال في ضوء خبرات البربر فى هذا المجال كما أن شخصية القائد حسان الذى اكتسب بدوره تجارب سابقة فى فهم العقلية البربرية ساهمت فى تعديل الموقف لمصلحة العرب فقد اتبع هذا القائد سياسة جديدة فى التودد إلى البربر واحترام استقلالية قبائلهم وهكذا نجد قبائل البربر لها مصلحة مع قدوم العرب وما يحملوه من عمران وتمدن ، وهذا كله كان له بالغ الاثر فى تاريخ الثقافة العربية الوافدة إلى افريقية فقد نعمت البلاد بالهدوء والطمأنينة وأمنت من الغزو البيزنطي وتم التحالف الوطيد بين العرب والبربر (٥١).

---

(٥٠) ابراهيم بيضون: مرجع سابق ص ٥٥ .

وكان معنى هذا كله استقرار الأمور الداخلية، فأخذت مدرسة القيروان الناشئة ترسخ قدمها ويشتد ساعدها، وكثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء الوافدين من مصر وأصبح جامع عقبة بالقيروان مدرسة إسلامية يؤمها الناس من كافة البلاد وخاصة البربر أهل البلاد الأصليين الذى أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة العربية الإسلامية وانتشر صيت القيروان حتى عم إفريقية كلها وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد(٥٢) وهكذا .. سطعت القيروان التى اتخذت طابعاً عسكرياً محصناً منذ أيام مؤسسها عقبة بن نافع القهرى، لتأخذ دورها السياسى والروحى كعاصمة للمغرب أو الولاية الإفريقية حيث التعبير الإدارى فى ذلك الزمن ففى أقل من ثلاث سنوات دأب خلالها حسان ابن النعمان فى إظهار هذه المدينة بالمظهر اللائق الذى يطمع إليه، وهكذا .. كان استئناف الفتح بعد ذلك هو إعلاء لنفوذ القيروان السياسى والعسكرى ولنفوذها الثقافى والروحى؛ فإن فتح المغرب الأقصى سيتم بفضل أهل إفريقية لنرى كيف امتد نفوذ القيروان حتى شمال المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى، والعامل الحاسم فى قصة امتداد النفوذ العربى إلى المغرب الأقصى هو انتشار الإسلام بين البربر

---

(٥١) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٥.

(٥٢) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٦.

في إفريقية والتقارب بين العرب والبربر والاعتماد على إفريقية نفسها كقاعدة عسكرية لإتمام فتح البلاد. وهذه القاعدة العسكرية لايمكن أن تكون ذات أثر فعال إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم؛ ثم إن الاعتماد على الإمدادات العربية وحدها فى فتح هذه البلاد من الناحية العسكرية أمر غير مرغوب فيه، سبب قلة أعداد العرب بعد تفرقهم فى الأمصار وطول خطوط المواصلات نفسها واستحالة الاحتفاظ بها سليمة دون أن يصيبها عدوان، وكان جهود حسان بن النعمان وسياسته التى أشرت إليها محققة لهذه الأهداف لكنها قد مهدت لامتداد الثقافة العربية إلى آفاق جديدة [٥٣].

أعمال حسان بن النعمان الإدارية :

وتذكر بعض الآراء أنه بعد تنظيم مدينة القيروان وإعادة بناء مسجدها وتوسيعها على نحو يتسع معه لجموع العرب والمسلمين التى سكنتها نظر حسان فى موضوع التنظيم الإدارى والمالى، وهنا واجه حسان مشكلة لم يواجهها غيره من حكام المسلمين الذين فتحوا البلاد قبله حتى الآن، ذلك لأن الذين فتحوا مصر مثلاً أو فارس أو غيرها من أقطار الشام قد دخلوا بلداً منظماً بالفعل من الناحية الإدارية مقسماً إلى عدة كور أى أقاليم أو أقسام فما كان على الولاة ألا يدخلوا من تعديل إلا التى تكون إليه حاجة ماسة من نظم نام أو تقسيمات أو تعديلات وتعريب الدواوين والنظم دون صعوبة تذكر، هكذا فعل الذين فتحوا العراق أو فارس أو بلاد الشام أو مصر أو غيرها من البلاد ذات التنظيمات الإدارية والمالية المتوارثة القديمة.

أما فى المغرب فقد وجد العرب أنفسهم فى بلاد لم يسبق تنظيمها إدارياً أو مالياً، كذلك لم يسبق لها أو لأهلها أن عرفوا شيئاً يسمى تنظيماً من أى نوع لأن أساس أى تنظيم من هذا النوع كان على الوحدات الإدارية القديمة وعواصمها وما جرت به

(٥٣) حسن مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٣٦٠.

العادة قبل الفتح الإسلامى فى تيسير أمور البلاد والناس والدولة أما فى طرابلس وأفريقية والمغرب الأوسط فما كان هناك تنظيم بالمعنى المفهوم إلا على مدن وبلاد الساحل، أما العرب فقد أوغلوا فى البلاد وفتحوا مواطن البربر فى داخل البلاد وهم قبائل، والقبائل لا تعرف العواصم ولا الضرائب، لأن القبائل بطبيعتها لايمكن ضبطها كما يضبط أهل الأراضى الزراعية، وهنا نجد حسان يلجأ إلى ما لجأ إليه المسلمون فى تنظيم الجزيرة العربية، فهذه أيضاً بلاد كانت قبائل، وإذا كانت الوحدات الإدارية والمالية فى بلاد المغرب هى الكور أو المديريات وعواصمها وما يتبع كل عاصمة من زمام أو حوز .. فإن الوحدة فى بلاد البدو أو القبائل من القبيلة ونظامها ومجالها الحيوى، لأن القبائل تعيش فى صحارى ولكل منها مجالها الحيوى، والمجال يتحدد بموارد المياه ومواقع البلاد التى توجد فى هذا المجال والقبيلة تتحرك طوال العام فى مجالاتها حسب نظام معروف من الحياة البدوية، وهى ليست حياة فوضى وبدائية مطلقة وإنما هى حياة منظمة وفق النظام المعروف فى كل مناطق البدو.

لهذا .. نجد أن الفاتح العربى حسان بن النعمان الغسانى للمغرب رأى أن أحسن الطرق لتنظيم هذه البلاد هو أن يعتمد على الخطوط الرئيسية للتنظيم السياسى القديم الذى لا يشمل إلا جزءاً صغيراً على الساحل فأقر تنظيمه على ما جرى الأمر عليه مع تعديل طفيف اقتضته ظروف الدولة مثل العاصمة قرطاجنة إلى القيروان، ثم بعد ذلك قسم العرب الذين يقطنون الداخل من البلاد على أساس منازل القبائل أى اعتبار مجال لكل قبيلة كبيرة قسماً إدارياً والإتفاق مع رؤساء القبائل على مقادير الجبايات ومواعيدها وتكليف أولئك الرؤساء بحماية القضاء والموظفين الآخرين الذين ترسلهم الدولة ومعاونتهم على تنفيذ أحكامهم والقيام بمسئوليات وظائفهم، وبطبيعة الحال فى بلاد مثل بلاد المغرب تنقسم طبيعياً إلى أشرطة أو مناطق عرضية موازية للساحل تقريباً

وكان لابد من اتخاد بعض المدن والقرى الصغيرة الداخلية القائمة فى هذه النطاقات أساساً من أسس التنظيم أى اعتبارها قواعد إدارية لما يحيط بها من الأراضى وعلى هذا الأساس فإن حسان بن النعمان قسم بلاد المغرب كلها إدارياً كما يلى :

١ – إقليم برقة :

ويسمى حالياً إقليم بنى غازى، هذا الجزء اعتبر تابعاً لمصر من الناحية الإدارية والمالية، ولكننا لا نلاحظ أثر لذلك فيما يمر بنا من أحداث الفتح وعصر الولاه، بمعنى أن برقة أصبحت إقليماً فى الظل يختفى فى معظم الأحيان ولا يظهر إلا فى مناسبات قليلة ولا نكاد نسمع به إلا ابتداءً من الغزوة الهلالية وما كان لبعض بطون الهلالية وحلفائهم من شأن بها، ومن الثابت أنها كانت وحدة سياسية قائمة بذاتها والأرجح أنها كانت مستقلة عن كل سلطان خارجى إن لم يكن لدينا تاريخ لها فى تلك العصور الإسلامية الأولى وكانت تمتد من ساحل البحر المتوسط إلى زويلة فى المداخل الشرقية لأقليم فزان، وكانت قاعدته الأساسية مدينة برقة وهنا عاشت قبائل لواتة وهوارة ومن نزل بلادهم من مهاجرة العرب وقد هاجرت مع الفتح جماعات من لواتة وهوارة (٥٤).

٢ – إقليم طرابلس :

وهى تلى إقليم برقة غربًا وتشمل المساحة الممتدة من إقليم سرت إلى صبرة قرب الحدود التونسية الحالية وعاصمة هذا الجزء الذى يسمى طرابلس، وينقسم إقليم طرابلس بصفة عامة إلى الأقسام الإدارية التالية، وهى عدة أعمال إلى صرت، طرابلس، صيرة، جبل نفوسة، وقد كان جبل نفوسة جبلاً مسكونًا كثير الزروع والمراعى وكانت تسكنه قبيلة نفوسة وهى أكبر القبائل البربرية فى ذلك الإقليم وسيكون لها دور كبير

(٥٤) حسن مؤنس : مرجع سابق، ص ٤٧.

فى تاريخ المغرب الإسلامى وخاصة فى تاريخ دولة بنى رستم الخارجية لأن قبائل نفوسة دخلت ذلك المذهب وثبتوا عليه وكان لهم فيه تاريخ طويل.

٣ - إقليم فزان :

وهو إقليم فى الداخل على بعد نحو ثمانمائة كيلو متر (٨٠٠ كيلو متر) من الساحل ويمتد هذا الإقليم حتى يتصل بإقليم صحراوى آخر خارج عن بلاد المغرب هو إقليم كوار وهو إقليم واحات يصل المغرب العربى بإفريقية المدارية عند إقليم تشاد الحالى، وكانت فزان إقليما دائماً عامراً بالواحات والمدن والقرى والمياه، وسيهتم به العرب اهتماماً هاماً وينشرون فيه الإسلام وسيكون له تاريخ مجيد فى العصور الإسلامية.

٤ - إقليم إفريقية :

وعاصمته القيروان ويبدأ عند بلدة قابس ويمتد غرباً حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم باسم ولاية قسنطينة الحالية، ولكن مصطلح تقسيم إفريقية من الناحية الإدارية للنظام العربى ينقسم إلى ثلاثة أقسام أولها طرابلس ثم إفريقية الذى يقابل بلاد تونس حالياً ويلى ذلك شرقاً إقليم الزاب وهو الجزء الشرقى من جمهورية الجزائر الحالية وحده الغربى يجرى نهر شلف وهو نهر صغير ينبع من جبال الأوراس جنوبى مدينة الجزائر الحالية، ثم يسير شمالاً حتى إذا اقترب من البحر قرب موقع مدينة الجزائر انحرف إلى الغرب وسار بمحاذاة الساحل حتى يصب فى البحر المتوسط قرب وهران الحالية والمجرى الأعلى لنهر شلف الذى يسير من الجنوب إلى الشمال (هو الذى يمثل الحد الفاصل بين إقليم إفريقية بأقسامه الثلاثة (طرابلس - وافريقية - والزاب) والمغرب الأوسط.

٥ – إقليم المغرب الأوسط :

ويشمل المساحة الممتدة من المجرى الأعلى لنهر شلف إلى مجرى نهر المولودية، وهو نهر ينبع من جبال الأطلس جنوبى المغرب الأقصى ثم يتجه شمالاً حتى يصب فى البحر المتوسط إلى الشرق من ميناء مليلة الحالية (لازالت تخضع للحكم الأسبانى حتى الآن) وهو الحد الفاصل الطبيعى بين المغربين الأوسط والأقصى وإن كانت الحدود السياسية للمغرب الأقصى تسير اليوم شرق هذا النهر فتدخل فيه مناطق وجدة وجراوة وتاوربرت، أى أنها تمتد اليوم مسافة قليلة شرق مجرى نهر المولودية.

٦ – إقليم المغرب الأقصى :

وهو ما يلى المغرب الأوسط إلى الغرب وحتى المحيط الأطلسى ويطلق عليه إقليم المغرب الأقصى وقد اعتبر حسان بن النعمان، القبائل التى تعيش فى هذا الإقليم وحدات إدارية، أى أنه قدر الأموال فيها على أساس القبائل النازلة فيها فكل قبيلة عليها قدر من المال تؤديه وكان يدفع فى الغالب عيناً وجرت العادة فى ذلك العصر أن تقدم القبائل مقاتلين ينضمون إلى القوات والعسكرية العاملة فى المغرب ويعتبر ذلك العمل وهو تقديم المقاتلين جزءا من المال المقرر على القبيلة ونتيجة لذلك كثر انضمام البربر إلى الجيوش العربية والنتيجة أن الجيش العربى الإسلامى العامل فى المغرب قد تضخمت أعداده بهذه الجموع البربرية وكان الذى يدخل الجيش الإسلامى من البربر يعتنق الإسلام ولهذا كان ذلك من أكبر العوامل فى إسلام أهل المغرب ونقطة البداية هى القوة التى انضمت إلى حسان مع ولدى الكاهنة وعددها اثنا عشر ألف رجل تولى قيادتهم أبناء الكاهنة.

ثم بعد ذلك رأى حسان أن يتم فتح إفريقية فور إزالة قرطاجنة فلم يعد لها بعد ذلك شيء يذكر، ورأى حسان أن المغرب أو إفريقية لا تستغنى عن ميناء جديد كبير

لأن إفريقية إقليم بحرى وسواحله الشرقية والشمالية مليئة بالموانىء الطبيعية الصغيرة والكبيرة، ولهذا .. كان لابد لحسان أن ينشئ لأفريقية ميناء يحل محل ميناء قرطاجنة الذى تلاشى أمره فى تاريخ إفريقية والمغرب فكان قرار إنشاء مدينة تونس [٥٤].

إذا كنا قد تحدثنا فى صفحات سابقة عن إنشاء الأسطول المغربى إلا أن من الأعمال الهامة التى قام بها حسان بن النعمان الغسانى أيضاً إنشاء الميناء الجديدة تونس لكى يكون أكبر قاعدة بحرية فى المغرب؛ حيث كان حسان قد اختار لإنشاء الميناء الجديد الإسلامى موضعاً يقع إلى الجنوب الغربى من قرطاجنة ونظر إلى أن العرب كانوا ينشئون المدن على أساس صحراوى تقريباً، أو أنهم كانوا يشترطون فى المدينة التى ينشئونها أن تكون وسط إقليم مراعى لحاجة الخيل والجمال، إلا أن حسان وجد نفسه مضطراً إلى مخالفة التقليد العربى عندما أراد إنشاء الميناء الجديد، حيث كانت هذه هى أول مرة يقوم فيها العرب بإنشاء ميناء وجمعا بين ما يتطلبه إنشاء ميناء جديد من ضرورة وجوده على الساحل وبعدها عنه فى نفس الوقت اختار حسان موقع سبخة تقع على الساحل وبعدها عنه فى نفس الوقت اختار حسان موقع سبخة تقع على الساحل والسبخة وهى منطقة رملية ولكن رملها ليست سائلة بل رمال ثابتة متماسكة بفعل الرطوبة كانت هذه السبخة تمتد من الساحل إلى مسافة كبيرة فى الداخل، فرأى حسان أن موقعها يصلح لإنشاء ميناء واختار موقعا وشق فى رمال السبخة قناة واسعة عميقة تمر فيها من ساحل البحر إلى نهايتها عند التقائها بالأرض الصلبة وجعل القناة من السعة بحيث تسمح بدخول عدد من المراكب وخروجها وبذلك أصبحت الميناء آمنة من الهجوم من ناحية البحر لأن بينها وبين البحر هذه السبخة التى تشقها القناة وقد بدأ حسان بإنشاء دار الصناعة التى تصنع بناء السفن

(٥٤) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٤٨-٤٩.

ومساكن العمال النجارة (النجارين) حول السبخة.

وبإنشاء ذلك الميناء والقضاء على قوة الروم وميناءهم دخل تاريخ إفريقية الإسلامية في طور جديد، ولهذا يعتبر حسان بن النعمان الغسانى من أكبر بناة الدولة الإسلامية، فهذا التنظيم الإدارى والمالى الذى وضعه لإفريقيا حول هذه الناحية أو هذه الولاية الجديدة إلى قاعدة إسلامية ينطلق منها العرب إلى ما يلهيا غرباً، ثم أن ميناء تونس فتح أبواب إفريقية من جديد لتستعيد مركزها القديم فى البحر المتوسط.

وأثناء قيام حسان بهذه الأعمال حدثت تغيرات إدارية مفاجئة فى الدولة أدت إلى تنحية حسان عن ولاية المغرب وهو يعد فى قمة مجده السياسى فغادر القيروان فى عام ٨٥هـ على الأرجح وغاب فى النسيان وتنطوى بذلك صفحة من صفحات تاريخ المغرب تألق فيها أحد قواده الكبار الذين تابعوا مسيرة فتح المغرب، أما السياسة العامة المالية الإدارية والتنظيمية التى وضع ملامحها القائد حسان بن النعمان، فلم تمس أو يحدث فيها تغيير، ومن الواضح أن الحاكم الأموى فى مصر عبد العزيز بن مروان شقيق عبد الملك بن مروان كان يقف وراء قرار العزل [٥٥] وكان قرار العزل هذا قد جاء بعد أربع سنوات من قضائه على الكاهنة، وبعد سنة واحدة من إنشاء مدينة تونس ولكن عزله لم يكن عن قلة كفاية، وإنما كان السبب أن والى مصر عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده، عندما رأى ازدهار إفريقية وتحولها إلى قطر غنى فيه إمكانيات واسعة للفتوح، طمع فيها لنفسه وكان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يدارى أخاه لأنه كان يرجو منه أن يتنازل عن ولاية العهد لإبنه الوليد بن عبد الملك[٥٦].

---

(٥٥) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٥٦.

(٥٦) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٠.

لذلك عندما عزل عبد العزيز بن مروان حسان بن النعمان لم يتيقن الخليفة من الأمر وتلقى حسان قرار العزل بنفس طيبة وإن كان ذلك قد أغضبه وعاد إلى مصر وهناك حاول عبد العزيز بن مروان أن يسترضيه ويطيب خاطره فرفض ذلك، وعرض عليه عبد الملك بن مروان أن يرده إلى ولايته فأبى وأقسم ألا يلبى لبنى أمية عملاً بعد ذلك، وعلى كل حال فقد كان حسان فى تلك الأوقات شيخاً كبير السن، ولم يكن يعنيه كثيراً أن يدخل فى مناقشات تفسد الأمر بينه وبين بنى أمية وهكذا عاد حسان إلى قومه فى الشام ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك رغم العمل الكبير الذى قام به فى سبيل توطيد دعائم الدولة الإسلامية فى المغرب وقد لايكون عندك نوع من الاستغراب إذا أدركنا عمق العلاقة التى ارتبط بها الحاكم الجديد (حسان بن النعمان الغسانى) للمغرب بالبيت المروانى خاصة وإلى مصر (عبد العزيز بن مروان) الذى اختاره لهذه المهمة عن سابق تصميم وثقة كبيرة بأنه رجل المرحلة القادمة لإتمام فتح المغرب [٥٧] وقد كان من الطبيعى ألا تنجح الجهود العديدة التى بذلت لفتح هذه البلاد وإدخالها فى نطاق السيادة العربية إلا باستخدام السياسة التى وضع أساسها حسان بن النعمان، والتى أثرت فى أفريقية تلك الجهود والثمار الرائعة التى أتت أكلها فى عهد سلفه موسى بن نصير؛ حيث استقامت الأحوال لحلفاء بنى أمية واستطاعوا فى عهد عبد الملك بن مروان أن يقضوا على الفتنة الداخلية [٥٨].

موسى بن نصير : الفتح الأخير والاستقرار والتوسع (٨٦ – ٩٥هـ – ٧٠٥ – ٧١٤م) :

كان الرجل الذى اختاره عبد العزيز بن مروان لكى يخلف حسان ابن النعمان فى ولاية إفريقية شخصية فريدة فى بابها من كل ناحية ذلك هو موسى بن نصير

(٥٧) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٥٦.
(٥٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٨.

والذى كان والده موسى أحد أبناء نصير الذى كان من أسرى بلدة صغيرة فى بادية الشام شرق العراق تسمى عين التمر حيث كان طفلا فى أحد الأديرة، واستطاع أن يأسره خالد بن الوليد حيث أسلم على يديه وأصبح من رجاله وهكذا نشأ ابنه موسى فى جو عربى إسلامى فنجده يستعرب ويأخذ كل الأخلاق العربية حتى حسبه المؤرخون من حملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم وهو نفسه موسى المنتسب إلى الأنصار، إلا أن أصله غير العربى يتلاشى أمام شخصيته العربية التى ظهر بها فى التاريخ الإسلامى حيث عمل فى خدمة بنى أمية ويشترك فى الإدارة والسياسة؛ حيث تولى رياسة حرس معاوية بن أبى سفيان ثم نراه مرة أخرى فى خدمة عبد الملك بن مروان؛ حيث يرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذى تولى ولاية البصر، وكان بشر بن مروان شاباً صغيراً تولى إمارة البصرة رغم احتجاج الحجاج بن يوسف الثقفى ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمه بأنه يمد يده إلى أموال الدولة وفى يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب من العراق ولجأ إلى مصر حيث كانت تربطه صلة بواليها عبد العزيز بن مروان، الذى أدى عنه جزءاً كبيراً من هذا المال وقربه إليه واستعان به ثم كان قرار تعيينه واليًا على إفريقية خلفاً لحسان بن النعمان، ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان أنكر هذا التعيين ولم يوافق عليه، لكن عبد العزيز بن مروان أكد لأخيه الخليفة أن موسى يفوق على حسان بن النعمان ومن سبقه من قواد فى النشاط والقدرة القيادية والعسكرية والمالية [٥٩] ومن ناحية أخرى نجد موسى يتعهد لعبد العزيز بأن يكون عند حسن ظن هذا الاختيار.

حيث أنه كان يشتغل المستشار لحاكم مصر (عبد العزيز بن مروان) والمرشح للخلافة بعد أخيه عبد الملك، وكانت تربط الرجلين بعضهما بالبعض علاقات وطيدة، فموسى بن نصير كان يستمد هذا الشعور من ولاء أسرته القديم للأمويين منذ عهد

(٥٩) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥١.

معاوية بن أبى سفيان، وعبد العزيز بن مروان كان يحفظ تقديراً ومودة لهذا الرجل الذكى المنحدر من قبائل بكر بن وائل، ملك القبيلة التى أنجبت عدداً من القواد الذين شهدت لهم جبهات الفتوح فى كل مكان لاسيما الجبهة العراقية [٦٠] .

وهكذا .. فإن ولاية المغرب سوف تعرف قائداً عسكرياً من طراز جديد يختلف عن كل الذين مروا فى تاريخ المغرب منذ أكثر من نصف قرن أو يزيد حيث شهد عشرة قواد ولكنه تميز عن كل هؤلاء بإجادته الحرب البحرية منذ وقت مبكر إلى جانب اتقانه فنون الحرب البرية فضلاً عن شخصية جدية وتجربة طويلة فى عالم السياسة حيث عمل بها منذ بداية حكم بنى أمية (معاوية بن أبى سفيان) ذلك أنه عاش عن كتب مشاكل الدولة الأموية فاكتسب منها الخبرة والمعرفة فلا عجب أن يوصف موسى أنه من أقدر رجالات الدولة الأموية والمعهم ذكاء فى تلك الفترة [٦١] ومن هنا كان تعيين موسى بن نصير بداية مرحلة من مراحل فتح إفريقية وهى مرحلة الاستقرار والتوسع، ذلك لأن موسى قام بنشاط واسع من الناحية العسكرية فى إفريقية قد لا تكون هناك حاجة ضرورية للقيام بتلك الأعمال ذلك لأن الناس فى المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول فى الإسلام دون حرب ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى بن نصير إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على مجد عسكرى ولهذا .. فإن أعمال موسى بن نصير فى جملتها كانت كثيرة جداً فى إفريقية ولقد كان الهدف الأساسى منها تقوية مركزه الشخصى فى الدولة بالعمل المتوالى وإرسال مقادير ضخمة من الغنائم والأموال التى يتم الحصول عليها.

---

(٦٠) إبراهيم العدوى : موسى بن نصير، ص ١٤.
(٦١) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٤٦.

والذى كان والده موسى أحد أبناء نصير الذى كان من أسرى بلدة صغيرة فى بادية الشام شرق العراق تسمى عين التمر حيث كان طفلا فى أحد الأديرة، واستطاع أن يأسره خالد بن الوليد حيث أسلم على يديه وأصبح من رجاله وهكذا نشأ ابنه موسى فى جو عربى إسلامى فنجده يستعرب ويأخذ كل الأخلاق العربية حتى حسبه المؤرخون من حملة العرب ونسبوه إلى قبيلة لخم وهو نفسه موسى المنتسب إلى الأنصار، إلا أن أصله غير العربى يتلاشى أمام شخصيته العربية التى ظهر بها فى التاريخ الإسلامى حيث عمل فى خدمة بنى أمية ويشترك فى الإدارة والسياسة؛ حيث تولى رياسة حرس معاوية بن أبى سفيان ثم نراه مرة أخرى فى خدمة عبد الملك بن مروان؛ حيث يرسله مساعداً لأخيه الأصغر بشر بن مروان الذى تولى ولاية البصر، وكان بشر بن مروان شاباً صغيراً تولى إمارة البصرة رغم احتجاج الحجاج بن يوسف الثقفى ولهذا كان الحجاج يكره موسى بن نصير ويتهمه بأنه يمد يده إلى أموال الدولة وفى يوم من الأيام طالبه الحجاج بمبلغ ضخم واتهمه بخيانة الدولة فهرب من العراق ولجأ إلى مصر حيث كانت تربطه صلة بواليها عبد العزيز بن مروان، الذى أدى عنه جزءاً كبيراً من هذا المال وقربه إليه واستعان به ثم كان قرار تعيينه والياً على إفريقية خلفاً لحسان بن النعمان، ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان أنكر هذا التعيين ولم يوافق عليه، لكن عبد العزيز بن مروان أكد لأخيه الخليفة أن موسى يفوق على حسان بن النعمان ومن سبقه من قواد فى النشاط والقدرة القيادية والعسكرية والمالية [٥٩] ومن ناحية أخرى نجد موسى يتعهد لعبد العزيز بأن يكون عند حسن ظن هذا الاختيار.

حيث أنه كان يشتغل المستشار لحاكم مصر (عبد العزيز بن مروان) والمرشح للخلافة بعد أخيه عبد الملك، وكانت تربط الرجلين بعضهما بالبعض علاقات وطيدة، فموسى بن نصير كان يستمد هذا الشعور من ولاء أسرته القديم للأمويين منذ عهد

(٥٩) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥١.

معاوية بن أبى سفيان، وعبد العزيز بن مروان كان يحفظ تقديراً ومودة لهذا الرجل الذكى المنحدر من قبائل بكر بن وائل، ملك القبيلة التى أنجبت عدداً من القواد الذين شهدت لهم جبهات الفتوح فى كل مكان لاسيما الجبهة العراقية (٦٠) .

وهكذا .. فإن ولاية المغرب سوف تعرف قائداً عسكرياً من طراز جديد يختلف عن كل الذين مروا فى تاريخ المغرب منذ أكثر من نصف قرن أو يزيد حيث شهد عشرة قواد ولكنه تميز عن كل هؤلاء بإجادته الحرب البحرية منذ وقت مبكر إلى جانب اتقانه فنون الحرب البرية فضلاً عن شخصية جدية وتجربة طويلة فى عالم السياسة حيث عمل بها منذ بداية حكم بنى أمية (معاوية بن أبى سفيان) ذلك أنه عاش عن كتب مشاكل الدولة الأموية فاكتسب منها الخبرة والمعرفة فلا عجب أن يوصف موسى أنه من أقدر رجالات الدولة الأموية والمعهم ذكاء فى تلك الفترة (٦١) ومن هنا كان تعيين موسى بن نصير بداية مرحلة من مراحل فتح إفريقية وهى مرحلة الاستقرار والتوسع، ذلك لأن موسى قام بنشاط واسع من الناحية العسكرية فى إفريقية قد لا تكون هناك حاجة ضرورية للقيام بتلك الأعمال ذلك لأن الناس فى المغرب كانوا مستعدين كافة للدخول فى الإسلام دون حرب ولكن ذلك لم يكن يحقق أطماع موسى بن نصير إذ أنه كان يحول بينه وبين الحصول على مجد عسكرى ولهذا .. فإن أعمال موسى بن نصير فى جملتها كانت كثيرة جداً فى إفريقية ولقد كان الهدف الأساسى منها تقوية مركزه الشخصى فى الدولة بالعمل المتوالى وإرسال مقادير ضخمة من الغنائم والأموال التى يتم الحصول عليها.

---

(٦٠) إبراهيم العدوى : موسى بن نصير، ص ١٤.
(٦١) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٤٦.

واتجه موسى بن نصير إلى القيروان ومعه أبناؤه الأربعة عبد الله، عبد العزيز، عبد الملك، مروان الذين سيكونون معه فى تلك الغزوات الكبرى فى المغرب والأندلس حيث سيكونون يده اليمنى فى كل هذه المهمات التى تقع على عاتقه، أما تاريخ ذلك الوصول إلى القيروان فغير محدد أو معروف بالدقة لأن كثيراً من مصادر المؤرخين ليست متفقة على تحديد السنة التى تم بها انتقال موسى بن نصير إلى مركزه الجديد فى القيروان فنجد ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر والمغرب [٦٢] يتأرجح فى ذكر عام توليه فى عام ٧٩هـ أو ٨٦ هـ بينما نجد ابن الأثير يحدد ولاية موسى فى عام ٨٦هـ، بينما نجد الدكتور حسين مؤنس يذكرها عام ٨٥هـ، بينما يراه البعض عام ٨٩هـ، ولكن من المرجح أن قرار تعيينه ووصوله إلى القيروان كان عام ٨٥هـ أى قبيل وفاة والى مصر عبد العزيز بن مروان التى صادفت تلك السنة، سواء تم ذلك قبل وفاة والى مصر أم بعده .. فإن والى مصر الجديد عبد الله بن عبد الملك، الذى خلف أخاه عبد العزيز فى ولاية مصر قد أكد هذا التعيين دون أدنى اعتراض وبموافقة الخلافة الأموية مسبقاً حيث كان موسى بن نصير كان قد تم تجهيزه فعلاً للإنطلاق إلى بلاد المغرب من مصر إلى القيروان ولعل ذلك التضارب فى تحديد السنة التى غادر فيها موسى بن نصير إلى بلاد المغرب كانت فترة مليئة بالأحداث الهامة فى تاريخ دولة بنى أمية حيث كان موت والى مصر عبد العزيز بن مروان ثم موت الخليفة أخيه عبد الملك بن مروان بعد ذلك بسنة واحدة ثم مجىء الخليفة الجديد إلى الخلافة (الوليد ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم ٨٦هـ/٧٠٥م) ومهما كان الاختلاف فى ذلك المجال .. فإن الخليفة الجديد لم يحدث تغييراً فى الإجراءات التى تم اتخاذها فى المغرب أثناء خلافة أبيه وعلى العكس من ذلك فقد بادر الوليد بن عبد الملك إلى تثبيت موسى بن نصير فى مركزه لحكم إفريقية وإعطائه صلاحيات مطلقة كما بادر بتعيين عمه عبد

(٦٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٢٧٤.

الله بن مروان والياً على مصر، ولذلك .. فإن بعض المؤرخين يتصور أن اختيار موسى بن نصير لحكم المغرب قد تم فى عهد الوليد بن عبد الملك لكثرة ما ارتبط الإسمان ببعضهما خلال تلك المرحلة المثيرة من تاريخ الدولة الأموية (٦٣).

وكان موسى وهو فى طريقه إلى مركز عمله بالمغرب تنازعه عدة أفكار وتصورات عن عمله الجديد كونها عبر معايشته المعايشة الطويلة لفتوح المغرب لاسيما أثناء عمله فى مصر متشبعاً باهتمام نشاط القائد السابق حسان بن النعمان الغسانى ولقد أدرك موسى بن نصير أن السبب الرئيسى وراء تعثر محاولات الاستقرار العربى فى المغرب إنما تعود إلى ضعف السلاح العربى البحرى وعدم وجود القوة البحرية الإسلامية اللازمة (٦٤) وأن اعتماد شواطئ المغرب فى حمايتها على السفن المصرية لا يوفر لها الحماية الكافية واللازمة والجاهزة فى الموانى المغربية، لذا .. كان فى ذهنه العمل على سد هذه الثغرة بالسرعة القصوى، كذلك فإنه رأى القواد الذين سبقوه منذ عقبة بن نافع الفهرى لم يساهموا فى تحصين مدينة القيروان التحصين اللازم بحيث تصبح قوة حصينه، بل القلعة الكبيرة فى قلب إفريقية، وذلك مما أدى إلى حدوث هذه الانتكاسات العربية السابقة، وكذلك افتقار المدينة إلى وجود قوات عربية إسلامية كافية لتوفير الحماية اللازمة وصد أى هجوم مفاجئ من قبل الأعداء، وكان ذلك النقص يجعلها غير مؤهلة لصد أدنى هجوم أو توفير الحماية اللازمة للدفاع عن نفسها، ومن ناحية ثالثة وجد موسى بن نصير أن أحسن وسيلة لضمان ولاء البربر وتقربهم إليه وإلى العرب هو التعاون معهم والترابط وذلك فى الإطار الذى وضعه ونفذ أسسه القائد السابق حسان بن النعمان الغسانى ولهذا كان يعمل على أن يستوعب الحكم العربى كل القبائل البربرية بحيث يتعايش العرب معهم فى السلم أو فى الحرب وقد بلغت تلك

(٦٣) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٥٧.
(٦٤) أرشيباليد، لويس. القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ص ١٠٢.

السياسة وتلك العلاقة ذروتها من النجاح فى عهده وفى واقع الأمر.. فإن المغرب لم يكن قد أسلم القيادة نهائياً للوجود العربى الإسلامى فلا زالت بالمغرب الأقص على وجه التحديد مواقع مهمة خارج دائرة النفوذ العربى الإسلامى بحيث لم تكن السيادة الإسلامية قد فرضت وجودها إلا فى المغرب الأوسط (٦٥).

ومن هنا .. فإن الأمر كان يتطلب اتخاذ بعض الإجراءات التأديبية ضد الهاربين من البربر المعتصمين بهذه البلاد، فما كاد موسى يصل إلى إفريقية حتى أخذ يوطد النفوذ الإسلامى، فأخذ يهاجم بقايا القبائل البربرية التى لم تدخل فى دائرة النفوذ الإسلامى، ومن هنا فإن موسى باشر فوراً فى توزيع قواده تبعاً للحاجة الملحة للقضاء على أدنى مقاومة من القبائل البربرية فكانت أول حملة تشق طريقها غرباً إلى (زاغوات) حيث كانت تلك الحملة تحت قيادة عبد الله بن الخشينى (٦٦) وهى قلعة جبلية بين تونس والقيروان وقد أسفرت تلك الحملة عن إسقاط القلعة والسيطرة الكاملة على المنطقة المحيطة بها وهذه الحملة مع حملات أخرى أمكنها تطهير المغرب الأوسط دون أدنى صعوبة أو وجود مقاومة حقيقية وأشهر تلك الحملات، تلك التى قادها موسى بنفسه إلى منطقة «مسجوما» التى تقع فيها تهودة حيث سقط عقبة بن نافع الفهرى قبل نحو ربع قرن، وقد شاركه فى تلك الحملة أحد أبناء عقبة وهو عياض بن عقبة بن نافع الفهرى كقائد على المقدمة وتأخذ عمليات المصاردة المستمرة للمتمردين البربر فى الاتساع حتى أقليم السوس الأقصى ووادى درعة فى أطول امتداد للعرب فى عمق المقرب وكانت حملة السوس بقيادة مروان بن موسى بن نصير تضم لأول مرة هذا العدد من البربر الذى وصل إلى أكثر من ألف مقاتل إلى جانب ألف وسبعمائة من العرب (٦٧) وقد حققت هذه الحملة نجاحًا كبيراً فى السوس الأقصى إلى

---

(٦٥) ابن عذارى : مصدر سابق، ج١، ص ٤١.
(٦٦) ابراهيم العدوى، مرجع سابق، ص ٢٨.
(٦٧) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٤٩.

السوس الأدنى المجاور لأقليم طنجة حيث قاد موسى بنفسه القوات الإسلامية إلى العاصمة المهمة الواقعة تحت حكم يوليان البيزنطى الذى تمتع بنفوذ شبه استقلالى فى تلك المنطقة الشمالية ولم يجد موسى بن نصير عناء فى السيطرة على المدينة التى تحولت إلى مركز عسكرى لتموين حملات العرب فى تلك الجهات.

ومع أن تلك الضربات انتهت آخر الأمر بإتمام فتح المغربين الأوسط والأقصى إلا أنها تسببت بعد ذلك فى أضرار كثيرة للدولة الإسلامية فى عصر الولاة، فقد رأى البربر أن العرب ليسوا قوماً قساة أصحاب مطامع مالية ومادية وما كانوا حاشا لله كذلك إنما كانوا رجال الدعوة الإسلامية وأصحاب المبادئ والفضيلة ولكن كيف كانت عاقبة سلوك موسى وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب الفتنة البربرية الكبرى التى ستقوم قرب نهاية العصر الأموى فى أيام هشام بن عبد الملك بن مروان إذ بدأ موسى بن نصير بتوجيه ضربة شديدة إلى جماعة من البربر كانت تسكن فى منطقة حصينة إلى الغرب من تونس الحالية شمال جبل زغوران وهناك أنزل مذبحة بالناس وأسر ألوفا من الرؤوس كما تقول النصوص، وأرسل موسى بعد ذلك تلك الغنائم إلى عبد الله بن مروان والى مصر الجديد وقد كانت هذه الضربة القاضية قد أقنعت عبد الله بن مروان بأن هذا الوالى الجديد كفء وقدير للولاية كما تحدث عنه عبد العزيز بن مروان إلى أخيه عبد الملك فى هذا الشأن [٦٨].

وقد شجع ذلك العمل موسى فأخذ يرسل أولاده فى حملات من الجند تنزل بالخارجين على النفوذ الإسلامى والسلطة الإسلامية ضربات كهذه التى كان يقوم بها رجال موسى، ثم سار موسى بقواته فى اتجاه الغرب حتى وصل إلى بلدة تسمى «سجوما» على مقربة من تطوان الحالية، وكانت هذه البلدة هى مفتاح الطريق وبعد الاستيلاء على سجوما انفتح الطريق إلى طنجة وسبتة فدخل المسلمون هاتين المدينتين

(٦٨) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٢.

اللتين تعتبران مفتاح البحر الأبيض المتوسط وهذه هى المرة الثانى التى يصل فيها المسلمون إلى شاطئ الأطلس حيث كان قد سبق لهم أن وصلوا إلى تلك المنطقة فى عهد ولاية عقبة بن نافع الفهرى الثانية (٦٢ – ٦٤هـ / ٦٨١ – ٦٨٣م) وكان موسى قد عهد بقيادة تلك الحملة إلى تلك الأنحاء إلى ابنه مروان ثم إلى طارق بن زياد أحد القواد البربر الأقوياء فى جيش موسى بن نصير[٦٩].

والذى شارك بدور فعال فى عدد من المهمات العسكرية التوسعية فى المغرب بعد أن خضعت له جميع أقاليمه، وإن كانت هناك آراء تذكر أنه استثنى مدينة سبتة عاصرة يوليان الحاكم فالحاجة إلى إخضاعها لم تكن ملحة لأن ظروفاً استجدت بعد سقوط طنجة ومحاولة اكتشاف المجهول عبر ذلك الحاجز الضيق الفاصل بين سبتة واسبانية وسيكون لسبتة دورها الفعال فى تعديل الخطة العربية وتشجيع العرب على القيام بدور عسكرى على الجانب الآخر حيث اسبانيا وهناك آراء تذكر أن اختيار طارق بن زياد قد سهلت له جنسيته البربرية عمله فى كل المناطق التى كان يذهب لغزوها حيث أيقن البربر أنهم لن يخضعوا لغريب عنهم وإذ كان موسى بن نصير قد تحول إلى مهادنة البربر .. فإن العرب أخذوا يتقربون إلى البربر بوضعهم فى مراكز الولاية كما كان اشتراكهم فى الجيش يشعرهم بأنهم لن يعودوا محكومين بقوة أجنبية وكانت سلطة موسى مطلقة فى أن يقوم بما يريد من المشروعات التى تحقق مصلحة البلاد [٧٠] .

وفى سبتة التقى المسلمون مرة أخرى بليليان وكما قلنا فإن ذلك الاسم كان تسمية عامة أطلقها المسلمون على حاكم هذه المنطقة أياً كان، على أى حال تفاهم المسلمون مع يليان فهادنهم أو حالفهم وعاونهم بإمدادات عسكرية قليلة، هنا فى البلاد

(٦٩) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٢٧٥.
(٧٠) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٢٧.

المغربية أنشأ موسى بن نصير ولايتين إسلاميتين جديدتين الأولى فى المغرب الأوسط وتبدأ من نهر شلف إلى نهر المولوية وسميت بالمغرب الأوسط وأقيم عليها والٍ يحكمها وقاعدته إقليم تلمسان ومعه حامية عسكرية من العرب والبربر والثانية تمتد من نهر المولوية غرباً إلى ساحل المحيط الأطلسى وتمتد جنوباً إلى وادى أم الربيع وتسمى بالمغرب الأقصى وولاية طنجة وقاعدتها طنجة ويقيم فيها والى ومعه قوة عسكرية عربية وبربرية وقد أقام موسى ابنه مروان والياً على أقليم طنجة، ثم بعث حملات أخرى غزت المناطق الواقعة جنوبى «وادى أم الربيع» ووصل إلى سلطان المسلمين إلى أقصى أنحاء المغرب من ناحية الجنوب وهنا أنشئت ولاية جديدة اسمها ولاية السوس أو سجلماسة وعاصمتها سجلماسة وهى واحة كبرى تتكون منها مجموعة صغيرة من الواحات يطلق عليها فى مجموعها اسم نافيلالت ويتكون منها إقليم زراعى خصيب وافر المياه على أبواب الصحراء الكبرى وبعدها مباشرة نجد الصحراء التى لا تنتهى إلا عند حوض السنغال (٧١) وهناك كانت تقوم مدينة تمى أودغست وكلا البلدين كان محطة تجارية كبرى لمن يقطعون الصحراء الكبرى فى هذه الناحية الساحلية مأهول إذ ذاك بقبائل وهى خليط من البربر وسكان أفريقيا المدارية وهذه القبائل كانت تدخل ضمن المجموعة الصنهاجية (٧٢) .

وهنا أى فى منطقة السوس أنشأ موسى الولاية الإسلامية الجديدة الثالثة التى تسمى السوس أو سجلماسة وعاصمتها عند منابع نهر المولودية وقد ولى موسى على هذه الولايات الجديدة فى بادئ الأمر طارق بن زياد الفورفجوس وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها باسم ذلك الرجل الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ الإسلام عندما يتولى فتح الأندلس(٧٣) .

---

(٧١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٣، لسلطنة سنغاى.
(٧٢) عبد الفتاح مقلد : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى (رسالة دكتوراه)، ص ٧٧ .
(٧٣) إبراهيم العدوى : مرجع سابق، ص٦٨ .

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعد أن حقق الفصل الأخير من أطول مهمة عسكرية خاضها العرب على مدى سبعين عاماً ذاقوا خلالها ألواناً من شتى الهزائم والانتصارات إلى أن جاء موسى بن نصير فقطف جهود السابقين وأضاف إليها جهوده الخاصة ليدخل التاريخ من أوسع أبوابه. وفى عاصمته شرع أمير القيروان بإعادة تنظيم المدينة، وذلك بعد أن وضع الأساس الإدارى للمغرب الإسلامى وتنظيمه، ففى عاصمة كل ولاية من هذه الولايات أقيمت قاعدة عربية إسلامية عليها والى واستقرت جماعات من العرب فيها لتعلم أهل ذلك الإقليم قواعد الإسلام وفى نفس الوقت أخذت العربية فى الانتشار بين البربر، وذلك على الرغم من تلك الأعمال العسكرية العنيفة التى قام بها موسى بن نصير وأولاده الأربعة وقواده إلا أن البربر شعروا بقيمة الإسلام فأقبلوا عليه ووجدوا فى قرآنه وتعاليمه مكاناً واسعاً للعمل وبعد أن كانوا قبائل تعيش على هامش التاريخ دخلت ميدانه من أوسع الأبواب، وأصبح رجال القبائل البربرية أعضاء فى الجماعة الإسلامية العربية وبدأ التاريخ الحقيقى لشعب البربر الكبير بعد إسلامه وتعربه.

وهكذا تحولت القيروان من قاعدة عسكرية فقط إلى مركز إدارى وسياسى وثقافى منافس المراكز الشهيرة فى المشرق العربى ولا شك فى أن القيروان اتخذت سماتها الجديدة التى أعطتها شهرتها الذائعة فى التاريخ على يد موسى بن نصير(٧٤).

ولكن الهاجس الأكثر إلحاحاً فى حياة أمير القيروان فى ذلك الحين كان العمل على تنفيذ القوة البحرية التى كانت نقطة ضعف الولاية المهددة سواحلها بالغزو البيزنطى وهنا تكمن نظرة موسى البعيدة عندما بذل أقصى جهوده لصنع قوة بحرية واتخاذ تونس القاعدة العربية الجديدة مركزاً له (٧٥) وفى ذلك الحين كان موسى بن

(٧٤) إبراهيم العدوى: مرجع سابق، ص ٦٨.
(٧٥) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٦٠.

نصير قد قارب السبعين من عمره ولكنه كان قويًا نشيطًا فأعاد بناء ميناء تونس واهتم بدار صناعتها وهى الميناء ومكان بناء السفن. ومن هذا الميناء لم يمض سوى قليل من الوقت حتى ظهر إلى الوجود أسطول عربى إسلامى بحرى قوامه مائة سفينة، وعلى هذا.. فإنه من هذا الميناء بدأ المسلمون غاراتهم على صقلية وسردانية وكانت غارات سريعة كانت بداية تحول نشاط المسلمين الواسع فى الحوض الغربى للبحر المتوسط الذى كاد أن يتحول إلى بحيرة إسلامية (٧٦) شيئًا فشيئًا وخاصة بعد فتح الأندلس.

وقد ورثت تونس بغير جدال قرطاجنة قاعدة البيزنطيين القديمة وتفوقت عليها استراتيجيًا فهى محمية أكثر من الأخيرة بابتعادها عن الساحل بنحو اثنى عشرة ميلا ومتصلة به عبر قناة تلجأ إليها السفن عند الحاجة (٧٧) ومن تونس قامت سلسلة العمليات العسكرية البحرية التى استهدفت جزر صقلية وسردانية وما بورقة.

وكان كما سبق القول أن موسى عين ابنه مروان على طنجة وعين طارق بن زايد على إقليم السوس ولكن مروان بن موسى بن نصير سئم المقام فى طنجة فنقله أبوه منها وولى مكانه طارق بن زياد وحيث تم نقله من إقليم السوس فى أقصى الجنوب إلى طنجة فى أقصى الشمال استقر طارق فى طنجة على رأس حامية إسلامية غالبيتها من البربر وهكذا نجح الإسلام فى تأمين جناحه الغربى بقوة من البربر أنفسهم ولم يكونوا عربًا، بل مسلمين منذ فترة قصيرة وهذا شأن التعاون فى الإسلام وعدم تفضيل عربى على أعجمى إلا بالتقوى.

---

(٧٦) عبد الفتاح مقلد : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا، ص ١٣٦ .

(٧٧) ابن قتيبة : الأمانة والسياسة ، جـ٢ ، ص ٥٦.

نهاية موسى بن نصير :

بينما كان موسى بن نصير يتم فتح شبه جزيرة أيبريا والأندلس وقع خلاف بينه وبين طارق بن زياد وبلغ ذلك الأمر إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، فاستدعاهما معًا وعاد طارق وعاد موسى ذلك الشيخ الفريد من أقصى جليقة (جالمسبيا) وهو الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة ايبريا (يلاحظ أن ذلك الجزء هو الذى سوف يقود معركة إخراج المسلمين من الأندلس فيما بعد). وكان قد تحرك دون فتح عندما استدعى الوليد موسى بن نصير وطارق بن زياد حيث عادا إلى الشرق حيث الخلافة الأموية فى دمشق، وفى أثناء عودته إلى الشرق حيث عسكر فى أشبيلية والقيروان وتلمسان والفسطاط كان يقابل مقابلة القائد العظيم وسيد الفتوحات الإسلامية حتى وصل إلى غزة ومعه طارق، وهناك جاء رسول من قبل ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب منه التريث قبل السير إلى دمشق لأن الخليفة الأموى الوليد كان مريضاً مرض الموت وكان خليفته وولى عهده (أخوه سليمان) يريد أن يستقبل موسى وطارق للفصل فى النزاع، ولكن موسى بن نصير ذلك المغامر الشيخ غامر بحظه السعيد مرة أخرى وأسرع المسير إلى دمشق وكانت الميتة قد سبقته إلى الوليد بن مروان بن عبد الملك وخانه الحظ مرة ثانية فعندما وصل إلى دمشق وجد الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦ – ٩٩هـ/ ٧١٥-٧١٧م) فاستقبله شر استقبال، ومضى ذلك الرجل الذى أضاف إلى دولة الإسلام المغربين الأوسط والأقصى ثم شبه جزيرة أيبريا يسأل القبائل لكى يحصل على الفدية، وكان فى حوالى السابعة والسبعين من عمره ولكن سليمان عفا عنه وقربه إليه ولكن موسى بن نصير لم يسعد مع سليمان.

وهكذا كانت فترة ولاية موسى بن نصير هى فترة نهاية الفتح والاستقرار النهائى للوجود الإسلامى فى بلاد المغرب الإسلامى وهى فترة طويلة تزيد عن سبعين عاماً

حيث كان فتح المغرب قد بدأ عام ٢٢هـ/٦٤٣م فى عهد عمرو بن العاص ثم استمر بعد ذلك فى محاولات القواد تثبيت دعائم الإسلام فى ذلك الركن الغالى من أرض العروبة والإسلام حتى كان عام ٩٥هـ/٧١٤م فترة نهاية الفتح الإسلامى فى تلك الاصقاع، ولذا .. فإن فتح المغرب يختلف عن غيره من الفتوحات الإسلامية؛ حيث أننا نجد فتح مصر مثلاً استغرق عامين فقط وفتح كل إقليم الشام استغرق أربعة أعوام، وفتح العراق وإيران يستغرق ثمانية أو تسعة أعوام، فى حين أن فتح المغرب استغرق أكثر من ثلاثة وسبعين عاماً.

وهذا هو الفصل الأخير فى فصول فتح المغرب العربى الذى استشهد فى سبيله وفى سبيل نشر الإسلام والعروبة فوق أرضه ثلاثة من أكبر قواد المسلمين كان عقبة بن نافع الفهرى أحدهم ثم زهير بن قيس البلوى، دينار بن أبى المهاجر.

وهكذا .. تنتهى صفحة من صفحات الجهاد العربى الإسلامى فى المغرب لكى نبدأ صفحة أخرى من صفحات العمل من أجل صبغ البلاد بالصيغة العربية الإسلامية وإيصال الماضى بالحاضر الإسلامى؛ حيث صلة الدم بين العرب والبربر ساعدت على ظهور المغرب بذلك الوجه العربى الإسلامى فى أشرف صوره.

* * *

الباب الرابع

ولاة المغرب حتى ظهور الدول المستقلة

يطلق عصر الولاة فى التاريخ الإسلامى على الفترة التى كان يقوم فيها والى ويعلن استقلاله عن الخلافة الإسلامية سواء الأموية فى دمشق أو العباسية فى بغداد وذلك أثر انتشار الإسلام فى الأقطار العديدة وظهور حركة الفتوح الواسعة فى مشارق آسيا ومغارب أفريقيا والأندلس ولقد ظهرت حركة استقلال الولاة عن الخلافة الأم فى العديد من الأقطار العربية الإسلامية وفى فترات زمنية متباينة ففى مصر مثلاً نجد ظهور أول ولاية عربية مستقلة عن الخلافة العباسية كانت هى دولة بنى طولون منذ أعلن أحمد بن طولون قيام الدولة الطولونية فى مصر عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م ومع أن ابن طولون لم يعلن استقلاله نهائياً عن الدولة العباسية، إلا أنه من وجهة النظر الرسمية فإن مصر لم تعد ولاية عباسية تخضع كل الخضوع للدولة كما كانت قبل استقلال أحمد بن طولون بشئون البلاد. وقد استقلت الدولة الطولونية عن الخلافة العباسية فى الفترة (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م)(١) حيث عادت مصر لحكم الدولة العباسية المباشرة على يد القائد العباسى محمد بن سليمان عام ٢٩٢هـ/٩٠٥م.

أما من ناحية تقييم عصر الولاة بالنسبة لتاريخ المغرب .. فإن اتساع المغرب بأقسامه المتعددة التى قسمها حسان بن النعمان الغسانى ومن بعده موسى بن نصير قد أدت إلى ظهور عدة دويلات إسلامية فى أجزاء متعددة من المغرب وفى فترات تاريخية مختلفة، كل منها كانت تعلن استقلالها عن الخلافة العباسية وأحياناً تقتطع أجزاء من الإمارة المستقلة عن الدولة الأم (الخلافة العباسية) لتعلن هى نفسها قيام دويلات صغيرة سواء فى المغرب الأوسط والأدنى أو المغرب الأقصى افريقية (تونس) فنجد مثلاً

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان، ص ١٢١.

انتهاء عصر الولاة التابعين للدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م ومن بعدها الدولة العباسية بقيام بعض الإمارات المستقلة ذات السيادة الكاملة والتى كانت تدير شئونها بعيداً عن سيطرة الخلافة العباسية فى بغداد أو القاهرة.

فمثلاً انتهى عصر الولاة فى المغرب الأوسط (تلمسان) بقيام الدولة الرستمية الخارجية الأباضية عام ١٦٤هـ/٧٨١م وكذلك قيام دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى عام ١٧٢هـ/٧٨٨م وقيام دولة الأغالبة فى تونس (إفريقية) عام ١٨٤هـ/٨٠٠م [٢].

ولقد دخلت على المغرب العربى الكثير من التغيرات بعيدة المدى خلال مراحل الفتح المختلفة التى بدأت منذ قام عمرو بن العاص بغزو برقة وطرابلس وانتهى بعصر موسى بن نصير حين احتوى على كل أراضى المغرب حتى ساحل المحيط الأطلسى غرباً والصحراء الكبرى جنوباً تحت لواء الراية الإسلامية، وأننا نلحظ فى تلك الفترة دخول الكثير من البربر فى الدين الإسلامى، بل أكثر من ذلك انضموا إلى جيوش المسلمين يحاربون ويجاهدون ويغزون تحت لواء الراية الإسلامية كما حدث فى فتح الأندلس. ومن هنا أصبح لهؤلاء البربر كل حقوق العرب المجاهدين فى سبيل الله وفى سبيل نشر دينه، كما أن فترة الاستقرار النهائى واستتباب الأمن وإقبال المغاربة على الدخول فى الدين الإسلامى قد شهدت انتقال العرب من القبائل والجماعات العربية إلى أرض المغرب التى استقرت فى نواحيها واختلطت بأهله وصاهرتهم وبهذا بدأ يظهر جيل بربرى عربى مسلم مستعرب [٣] تطلع إلى أن يكون له نصيب فى إدارة شئون البلاد، كل هذه التطورات كانت تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح لأن المغرب الذى عرفه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذى عرفه موسى بن نصير ومن جاء بعده من الولاه.

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٧.
(٣) حسين سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر، ص ١١٢.

وفى المغرب العربى نلاحظ أننا أمام شعب يختلف كل الاختلاف عن كل ما واجهه المسلمون (العرب) فى غيره من البلاد التى فتحوها، فهنا شعب شبيه العرب من حيث التكوين الاجتماعى والذهنى فهنا قبائل ورجال وشيوخ وقبائل كما هو الحال فى جزيرة العرب والتفاهم هنا يختلف عن طبيعة التفاهم بين الحاكم والمحكوم فى مصر، كذلك فإن الصراع فى مركز الدولة (لمدينة المنورة، مكة المكرمة، الكوفة، دمشق) على الحكم كان له أثر بعيد جداً على الأوضاع فى الأقاليم فالمنهزمون فى الصراع من أجل الوصول إلى السلطة كانوا يفرون إلى الأقاليم البعيدة عن مركز الحكم حيث يكونون بعيدين عن متناول يد الدولة أو بطش رجالها، وذلك لأن البلاد المفتوحة البعيدة كان يجد فيها هؤلاء المنهزمون مجالاً واسعاً للعيش، وكانت بداية حركة الهجرة الواسعة ما قام به الأنصار فى المدينة عقب هزيمتهم فى شقيقة بنى مساعدة عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حيث خرج العديد منهم فى هجرات جماعية إلى الأقطار المفتوحة، ثم توالت الضربات على أهالى المدينة المنورة من قبل خلفاء بنى أمية ولاسيما ما أصاب المدينة المنورة فى فترة حكم عبد الملك بن مروان؛ حيث نتج عن ذلك هجرة جماعية من المدينة إلى الأقاليم المفتوحة، كذلك ما أصاب العلويين من نكبات مما أدى بهم إلى الهجرة إلى الأقطار البعيدة ولا سيما أراضى المغرب؛ حيث يكونون فى مأمن من مطاردة رجال الدولة، وكذلك الخوارج الذين وجدوا فى أرض المغوب متنفسا لهم لنشر مبادئهم وأفكارهم[٤].

ولقد كانت كل هذه الجموع عندما تستقر فى تلك الأقطار تمثل جبهة معارضة للدولة المركزية ولسلطة الخلافة، بل إنهم كانوا يجتهدون فى إثارة المشاكل ضدها وتشويه سمعتها، وكان أكثر العاملين فى ذلك الميدان هم الخوارج لأنهم كانوا موتورين من الدولة ولديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم وهؤلاء كانوا لايكفون عن

(٤) أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ٥٦٣.

تحريض الناس على الحكومة المركزية الأموية واطلاع القوم على أحكام القرآن الكريم كما يفسرونها هم ولقد كان تفسيرهم يناسب آراء أهل الولايات ويرضى مطامعهم وذلك لأنه فى حالة ما إذا كان رجال الخوارج يتحدثون عن شئون الحكم .. فإن ذلك الحديث كان يتحول إلى تمرد عسكرى وخروج على سيادة الدولة والسلطة فى دمشق(٥).

ولاة المغرب بعد موسى بن نصير :

قام الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك بن مروان أثر عزل موسى بن نصير وتعيين عبد الله بن عبد الملك والياً على مصر خلفاً لعمه عبد العزيز بن مروان الذى توفى قبل والده بعام واحد، بتعيين يزيد بن أبى مسلم. وكان يزيد هذا الذى اختاره الخليفة سليمان بن عبد الملك الذى خلف أخاه الوليد، رجلاً عربياً مر مدرسة الحجاج بن يوسف الثقفى وأراد يزيد بن أبى مسلم أن يسير فى المغرب وحكمه وإدارة شئونه كما كان الحجاج يحكم أهل العراق، ناسياً أنه فى المغرب يتعامل مع قوم يختلفون كل الاختلاف عن أهل العراق وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى دفعت البربر إلى الثورة على يزيد بن مسلم والقيام بقتله وواجهت الدولة ثورة فى أقليم من أقاليمها الكبرى (المغرب) ولم تكن الدولة تريد الدخول فى صراع مع سكان المغرب فلجأت إلى معالجة الأمر باللين والسياسة وعدم الالتجاء إلى استخدام أسلوب القوة، فوافقت على التنازل عن طلب أخذ الثأر من قتلة الوالى المقتول وتركت أهل إفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤقتاً.

وكان أن تولى الخلافة الأموية بعد وفاة سليمان بن عبد الملك، الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) وقد كان عمر بن عبد العزيز

(٥) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٠.

لايريد هذا الأمر سواء سراً أو علانية [٦] وسارع عمر فخلع الولاة الظالمين والعمال القساه فعزل أسامة بن يزيد التنوخي عن صدفات مصر وكان غاشماً ظلوماً كثير الاعتداء، وكان قد أصدر قرار عزله ليزيد بن أبى مسلم عن إفريقية حيث تم قتله على أيدى الثوار قبل أن يصل إليه قرار العزل، وعزل صالح بن عبد الرحمن عن العراق والحارث بن عبد الرحمن الثقفى عن الأندلس[٧] .

وأوقف عمر بن عبد العزيز الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة كما حاج المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والاقتناع وقد انتصر عمر بن عبد العزيز والمسلمون وانتصر فى دعوة غير المسلمين للإسلام وانتصر فى مناظرته مع الثائرين من المسلمين وقد سمى عصره عصر إسلام البلاد المفتوحة [٨].

وقد قام الخليفة عمر بن عبد العزيز بتعيين إسماعيل بن عد الله بن أبى المهاجر بن دينار والياً على إفريقية خلفاً ليزيد بن أبى مسلم، وقد رتب الخليفة عشرة فقهاء من أعيان التابعين لإرشاد البربر وتعليمهم اللغة العربية والدين الإسلامى وقد قدم هؤلاء الفقهاء إلى إفريقية ومعهم الوالى الجديد عام ١٠٠هـ.٧١٨م وانتشروا فى جهات الولاية ونتيجة لمساعيهم وجهودهم أسرع الناس فى دخول الإسلام طواعية وتذوقوه حتى أخذ عدد كبير منهم ينبغ فى العلوم الدينية، وقد عمل إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر على نشر الإسلام وأمده الخليفة بطائفة من كبار التابعين انتشروا فى أنحاء البلاد يحضون الناس على الدخول فى الإسلام وينشرون الثقافة العربية الإسلامية [٩].

---

(٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٣١.
(٧) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٣٥.
(٨) أحمد شلبى : مصدر سابق، ص ٨٦.
(٩) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٩.

وكما كان استقرار الأمور فى عهد هذا الوالى وتعريب إفريقية ودخول أهلها فى الإسلام تمهيداً لانتشار الإسلام وثقافة العرب فى المغرب الأقصى وانضمام البربر إلى العرب عاملاً حاسماً فى اندفاع الإسلام وثقافة العرب إلى بلاد الأندلس وهكذا نرى أن إسماعيل بن عبد الله لم يكن عاملاً على المغرب فحسب بل داعية إلى الإسلام بالدعوة السليمة والحجة والاقناع، والمؤرخون يردون إليه الفضل فى إتمام ما بدأه أسلافه فى تثبيت العقيدة فى نفوس المسلمين، وهكذا أخذ التابعون الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز يعلمون الناس أصول الدين ويبصرونهم بقواعد الإسلام وأصوله وأقام الكثيرون منهم فى مدينة القيروان أو غيرها من المدن المغربية وأقاموا المساجد وجعلوها مدارس للإسلام يقصدها البربر من كافة أقاليمهم وقد أخذ عن هؤلاء التابعين كثيرون من أهل البلاد، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان عادوا إلى بلادهم لمتابعة الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون يدورهم على نشر الإسلام وثقافته العربية [١٠] وهكذا .. استقرت الأمور بعض الشيء وقد تابع ولاة المغرب بعد موسى بن نصير سياسة الغزو البحرى والجهاد ضد البيزنطيين فقد غزا إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر أمير إفريقية (١٠٠-١٠١هـ) بحر إفريقية مع أبى عقيل زهرة بن سعيد بن عبد الله التميمى وأبى عبد الرحمن الحبلى [١١].

وفى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان (١٠٥-١٢٥هـ/٧٣٣-٧٤٣م) فقد تولى إمارة إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السامى عام ١١٠هـ، وقام هذا الوالى بمحاربة الروم فى البحر، فبعث المنتصر الحارث الحريثى غازياً إلى صقلية وعند قفوله (عودته) من غزوته ثار البحر فغرقت سفنه بمن فيها من المسلمين ولم ينج من تلك

(١٠) ابن عذارى : البيان المغربى، جـ١، ص ٣٤.
(١١) المالكى : مصدر سابق، ص ٩٠.

الغزوة إلا المنتصر الذى قذفته الرياح إلى سواحل طرابلس وبلغ ذلك عبيدة، فأمر عامله فى طرابلس يزيد بن مسلم الكندى بالقبض عليه وشد وثاقه وإرساله إلى القيروان ففعل ذلك، فلما وصل إلى القيروان أمر به عبيده فجلدو طيف به فى المدن على إتان (حمار) ثم ألقى به فى السجن فظل به حتى أفرج عنه الوالى الجديد (١١).

وفى عام ١١٤هـ/٧٣٢م عزل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وتولى إفريقيا أيضاً فى عهد هشام بن عبد الملك عبد الله بن الحيحاب وهذا الوالى ينسب إلى اليمينية، وقد كان من أهل الحكمة والمعرفة بتدبر الأمور ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير على رجل واحد أياً كان وضعه قادراً على مجابهة هذه المشاكل، ومن هنا كانت تولية عبد الله بن الحيحاب كل أقاليم غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر غرباً إلى جبال البرت المعروفة بالبرانس بين أسبانيا وفرنسا مسئولية ثقيلة وضخمة مهما كانت خبرة ذلك الرجل، فهو لن يستطيع معالجة الموقف. خاصة إذ علمنا أن وراءه فى دمشق خلافة ضعيفة، ذلك لأنه فى عهد هشام بن عبد الملك خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف وذلك سبب قيام العصبية بين غرب الشمال وغرب الجنوب وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى ساعدت أعداء الدولة الأموية على تحقيق انتصارات جديدة فى تلك البقاع (١٣).

ولهذا .. فإننا نجد أنه فى أثناء ولاية عبد الله بن الحبحاب يتحول غضب الشعب المغربى على الحكم العربى إلى إرادة والإرادة تحولت إلى ثورة لأنه وجد من يقود الناس، كما أن مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليمنيين أو قبس وكليب «القبسية والكلبية» هذه المشكلة، مشكلة القبسية والكلبية أو القبسية والسبائية لم يعرفها العرب

(١٢) عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى : مرجع سابق، ص ٣٩.
(١٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، جـ٢، ص ٣٧٩.

قبل الإسلام ولكنها نشأت من طبيعة الظروف السياسية التى سادت دولة بنى أمية فى الشام؛ حيث قربوا إليهم عرب الشام القبسية.

بوادر ظهور الدويلات المستقلة :

عندما تم افتتاح المغرب كانت المشاكل قد بدأت تتوالى وتتكاثر على الدولة الأموية حيث أنه من عام ١٠٠هـ/٧١٨م كانت الدولة تعانى تغير حاسماً فى أوضاعها فى الداخل وفى علاقاتها برعاياها فى مركز الدولة والأقاليم، ذلك لأن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد غير الوضع الحالى فى الدولة تغييراً كاملاً، إذ خفض عمر بن عبد العزيز من أثقال الخراج الذى يؤخذ من النصارى وأوقف أخذ الجزية ممن دخل الإسلام منهم. فانهال الناس على الإسلام أفواجاً وكتب له أحد عماله يقول. أن هذا يضر بالجزية، فتلقى من عمر الجواب الآتى : قبح الله رأيك. ارفع الجزية عمن أسلم؛ فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً لعمرى لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه (١٤).

ولقد نتج عن ذلك أن الإدارة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة الوضع الجديد ولكن الخلفاء الذين تولوا بعده يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) وهشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) وغيرهما من ولاة بنى أمية كانوا أبعد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق، وكان أن لجأ الحكام الذين تولوا من بعده إلى القوة، ومن المعروف أن القوة تزيد المشاكل سوءاً ونادراً ما تنجح فى حل هذه الأمور.

وقد كان بنو أمية لكى يضمنوا الاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيحابون القيسية على السبائية مرة ويجابون السبائية على القيسية مرة أخرى

(١٤) الطبرى : مصدر سابق، جـ٥، ص ٣١١.

ومن هنا فإنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على نطاق أوسع، ففى العصر الجاهلى كانت العصبيات عدوات قبائل، أى أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال.

كما أننا لا ننسى أثر الخوارج ومن انضم إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على الدولة العاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتهم على الحكومة وفى النهاية فإنه يجب الإدراك أن هذه المشاكل عندما استع مجالها، كان العصر الذهبى للدولة الأموية قد ولى وأصبحنا أمام خلفاء لا يتميزون بأى قدرة، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين، هشام ابن عبد الملك وقد بذل ما يستطيع لإصلاح الناحية المالية، ثم مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد فوات الأوان فلم يستطيع أن يفعل شيئاً (١٥).

وقد كان مروان بن محمد عظيماً شجاعاً صاحب دهاء ومكر وكانت له خبرة واسعة فى الحروب ومن أهم ما يقال عنه أنه وضع خطة لإعادة تنظيم القوات الإسلامية فبدلاً من تقسيم الجيش إلى فرق تنتسب كل منها إلى قبيلة رأى تأليف جيش نظامى يخدم أفراده برواتب معينة يأمره قادة محترفين ينقسم الجنود المجندين للخدمة العسكرية إلى فرقة قليلة العدد تفوق فى سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب (١٦).

وتلك كانت هى الخلفيات التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال الحاسم من بنى أمية إلى بنس العباس.

وفى المغرب نجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنفا

---

(١٥) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٢.
(١٦) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ١٠٦.

وأهم هذه العوامل هم الخوارج.

والخوارج هم الإسم الغالب على هذه الطائفة وقد اشتق هذا الإسم من الفعل خرج : لأنهم خرجوا على على بن أبى طالب بعد أن كانوا ضمن أتباعه وهم يطلقون على أنفسهم الشراة أى الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم ومن الأسماء التى تطلق عليهم المحكمة أى الذين يقولون لا حكم إلا لله (١٧).

وهم الذين انهزموا فى قلب الدولة وقتل منهم الألوف بسيوف رجال مثل الحجاج بن يوسف الثقفى والمهلب بن أبى صفرة من الازد والذين اضطرهم إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تدركهم فيها يد الدولة وخاصة المغرب وعمان واليمن(١٨).

ولئن عادى الخوارج عليا وكرهوه فقد كانت عدواتهم لبنى أمية أشد وأعمق ولذلك نجد صراعهم يطول فى عهد الدولة الأموية ونجدهم فى كثير من الأحيان يظفرون ويكونون لأنفسهم سلطة ونفوذاً، ولقد توالت ثورات الخوارج فى عهد معاوية بن أبى سفيان (١٩).

وهؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة دولة غاضبة هى وكل من أيدها فالمزارع أو التجار الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر خارجاً عن الإسلام مثل الخليفة وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق الذين أعلنوا الحرب على الدعوة الإسلامية وجماعة المسلمين جملة ودعوة هؤلاء تلقى قبولاً فى ناس مثل البربر وخاصة بربر المغرب الأقصى الذين كانوا

(١٧) الشهرستانى : الملك والنحل، جـ١، ص ١٠٥.
(١٨) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٢.
(١٩) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ٢٣٤.

يعيشون ربما فى بعض الأوقات خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية ولكن دعوة نافع بن الأزرق المتطرفة لم تلق قبولاً من جبهة واسعة لأنها دعوة لكل إنسان بأن يحمل السلاح فى وجه النظام القائم، لكن مذهب «عبد الله بن أياض» لقى قبولاً أكثر ولكن كان لايدعوا إلى القيام على الدولة، إنما يدعو الناس الذين يؤمنون بآراء أصحابه إلى إقامة نظام سياسى لهم فى النواحى التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها وهم يأذنون لاتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى إلى يومنا هذا المذهب الأباضى لقى قبولاً بين الناس وهو الوحيد من مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا؛ حيث يتخذ مذهباً فى العديد من البلاد والأقاليم الإسلامية الأباضية قريبون جداً فى فهمهم للشريعة من السنة، ولهذا .. يحسبون عادة ضمن السنة وأنه على أساس المذهب الخارجى الأباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب وهى دولة عبد الرحمن بن رستم أو الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط أو ما يعرف حالياً بإسم الجمهورية الديمقراطية الشعبية الجزائرية [٢٠].

(راجع الجزء الثانى من هذه الموسوعة به باب من عدة فصول عن هذه الدولة).

الفتنة الكبرى فى المغرب (١٢٢هـ - ٧٤٠م) :

بدأت الفتنة الكبرى أو الثورة الأولى فى إقليم المغرب الأقصى وبالتحديد فى إقليم طنجة المطل على المحيط الأطلسى ومدخل جبل طارق، حيث اشتدت تلك الثورة فى أواخر أيام هشام بن عبد الملك وقبل وفاته بثلاث أعوام ١٢٥هـ حيث أن الدولة فى عهد هشام بن عبد الملك قد أخذت تخطو خطوط واسعة نحو الضعف وكانت بدايتها تلك الثورة العنيفة فى المغرب الأقصى [٢١] وقد انتشرت تلك الثورة فى بادئ الأمر بين

(٢٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٣.
(٢١) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ٩٩.

قبائل بربرية عديدة تسكن تلك المنطقة الواقعة فى المغرب الأقصى والى بها قبيلة برغواطة وغمارة وتولى زعامتها رجل يسمى ميسرة الفقير (٢٢).

لكن بعض المؤرخين فى العصر الأموى والذين يمثلون تيار الدولة السياسى فى ذلك الوقت كانوا يحرفون اسم الفقير في وجهة نظرهم ويبدلونه إلى لفظ الحقير ويتهمونه بالخروج عن الإسلام وعن سيادة الدولة.

والعجيب أن أغلب المؤرخين المحدثين من مسلمين أو مستشرقين تلقوا ما كتبه المؤرخون الأوائل التى تعتبر كتبهم كمصادر للتاريخ الإسلامى على أنها حقائق تاريخية ثابتة فجاءت أكثر الدراسات الحديثة بعيدة عن الإنصاف (كما حدث فى تشويه سمعة المجاهد الإسلامى المغربى «ميسرة الفقير») وذلك مما ادعو أنه ابتكر قرآناً وكفر بالله إلى آخر هذه الدعاوى التى يبقى أن نأخذها بكل حذر لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة (الدولة الأموية) ولكن ذلك لا يمنع القول بأن مثل هذا الرجل الذى تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة أصبح إماماً لجموع غفيرة من بربر المغرب ولكن تلك الثورة التى قادها ميسرة الفقير ضد الدولة الأموية لم تكن تضم بين صفوفها بربر فقط بل كانت هناك مجموعات عربية غاضبة على الدولة الأموية يريدون إنهاء الظلم الواقع على الشعب المغربى بفئتيه العربى والبربرى ولقد كان معظم العرب الذين انضموا إلى الفتنة الكبرى وإذكاء تار الثورة هم من الخوارج، ومن هنا .. فإن القول الصحيح أن الثورة المغربية الأولى عام ١٢٢هـ لم تكن ضد الوجود العربى فى المغرب كما صور ذلك بعض كتاب الغرب الأوروبيون لكنها كانت ثورة ضد النظام القائم لرفع المظالم عن كاهل الشعب المغربى؛ فهى ليست فتنة بربرية ضد الوجود العربى، إنما هى ثورة داخلية فى داخل الدولة الإسلامية وكانت أهدافها هى أهداف

(٢٢) لفظ فقير لفظ أطلقه ميسرة على نفسه لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المجاهد الذى لا يمطمع فى شىء من متاع الدنيا.

إسلامية تريد أن تضع كل التعاليم الإسلامية موضع التنفيذ، فقد أصبح البربر مسلمين ولهم كل الحقوق ومساواتهم مع العرب؛ فهذه دولته والدين الإسلامى هو دينه والقرآن الكريم هو قرآنه، وعلى هذا .. فإنه من الغريب حقاً أننا نلاحظ فى أكثر من مناسبة أن المسلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويتهمون العرب أنفسهم حملة راية الإسلام بفتح بلاد العالم بالإنصراف عن سبيله ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام لفتح بلاد العالم بالإنصراف عن سبيله ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام ويحتجون عليهم بنصوص القرآن الكريم، لا لأن العرب لم يكونوا لا يذكرون نصوص القرآن الكريم؛ بل لأن ما كان القرآن يطلبه منهم لا يطبقونه كاملاً، ومن هنا كان لابد من مواجهة ذلك الأمر بالثورة كما حدث للبربر [٢٣].

مواجهة الثورة ضد الدولة الأموية :

عندما قامت الثورة ضد الدولة الأموية كان والى المغرب فى ذلك الوقت من قبل هشام بن عبد الملك، هو «عبد الله بن الحيحاب» والذى كان عليه أن يواجه هذه الثورة حتى لا يستفحل أمرها وتنتشر فى كل أنحاء المغرب ومحاولة حصارها فى قبائل المغرب الأقصى وفى إقليم طنجة مركز الثورة بوجه خاص؛ حيث أن الثورة فى بدايتها كانت تأخذ مظهر ثورة إقليمية بربرية ضد مظالم الدولة الأموية ولكن سرعان ما انضمت إليها بعض الفئات العربية وبدأت تأخذ الطابع العام للفتنة الكبرى، وكانت الدولة الأموية لاسيما فى أواخر عهد «هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم» تواجه صعوبات جسيمة وبدأت بوادر الضعف تظهر فى جسم الدولة، ومن هنا .. لم يجد «عبد الله بن الحيحاب» جنداً كافياً ليواجه الثوار وثورتهم [٢٤].

وكان الثوار قد تقدموا فى ثورتهم شرقًا فى اتجاه عاصمة الحكم فى المغرب؛

(٢٣) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٩.
(٢٤) ابن أبى دينار : مصدر سابق، ص ٣٩.

حيث كانت القيروان هى العاصمة السياسية، ومن هنا فقد استطاعوا الوصول إلى قرب نهر «شلف» بزعامة «ميسرة الفقير»، وهنا تردد ميسرة الفقير فى لقاء القوات التى أرسلها «عبد الله بن الحيحاب» بقيادة أحد رجاله وهو قائد جند الدولة الأموية (خالد بن حبيب) وهنا قام أنصاره بقتله لأنهم كانوا يرون أن التردد فى مقابلة قوات الدولة عار عليهم وذلك أخذاً برأى الخوارج الذين ربما كانوا قد انضموا إلى قوات «ميسرة الفقير» لكن بعد مقتل ميسرة تولى أحد الثوار قائد عليهم يدعى «خالد بن يزيد الزناتى» ومن اسمه يعرف أنه من قبلية زناته البربرية، والذى رأى أن تتراجع قواته غرباً إلى قرب أسوار طنجة، ومن ذلك المكان دارت معركة عنيفة وشرسة؛ حيث التقى الجيش العربى بقيادة «خالد ابن حبيب» مع جيش «خالد بن يزيد الزناتى» وانهزمت قوات الدولة الأموية والعرب، وقتل عدد كبير من أشراف العرب فى تلك المعركة، ومن هنا سميت تلك المعركة بإسم معركة الأشراف [٢٥].

وبعد انهزام القوات العربية .. فإن أحداثًا قد حدثت فى العاصمة القيروان حيث تمردت القوات العربية على «عبد الله بن الحيحاب» واتهمته بالإهمال وعدم القدرة على مواجهة الموقف، مما قد سبب حرجاً للوضع العربى فى المغرب فما كان من الخليفة «هشام بن عبد الملك» أن قام باستدعاء «عبد الله بن الحيحاب» درءا للمخاطر ومحاولة حصار الثورة والقضاء عليها، ومن هنا .. فإننا نجده يقوم بإرسال جيش عربى مكون من سبعة وعشرين ألف جندى يضم مجموعة قوية وكبيرة من الفرسان بقيادة الوالى الجديد («كلثوم بن عياض القشيرى» ١٢٣هـ/٧٤١م) ومعه ابن أخيه «بلج بن بشر القشيرى».

وهناك أقوال تذكر أن تلك الثورة البربرية التى ظهرت فى إقليم طنجة قد غذتها الفرق الدينية التى ظهرت فى ذلك العصر فى بلاد المغرب مثل الشيعة والخوارج؛

---

(٢٥) ابن عذارى كالمراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢، ص ٦٨.

حيث انتقلت هى الأخرى إلى المغرب بفرار بعض الدعاة حيث تصادف دعوتهم أرضا خصبة بين القبائل وكان ظهور حركات الخوارج سريعاً فى المغرب؛ حيث اندلعت نيران تلك الثورة عام ١٢٢هـ[٢٦] وهذا دليل على تفاعل البربر تفاعلاً كاملاً مع الحياة الإسلامية بل كان دعاة الشيعة وثوار الثورة من الخوارج عاملاً هاماً من عوامل انتشار الثورة.

وتقدمت قوات الدولة الأموية نحو الثوار بقيادة «كلثوم بن عياض القشيرى» وتدعمه قوات العرب الأفارقة بقيادة «حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى» وربما يكون قد حدثت بعض المنازعات بين القوات الشامية بقيادة «كلثون بن عياض» وقوات حبيب بن أبى عبيدة مما أدى إلى حدوث بعض الانقسام قبل عملية الهجوم على قوات البربر بقيادة «خالد بن زيد الزناتى» مما أدى إلى هزيمة تلك القوات وهى تضم هذا العدد الضخم من القوات العربية وينتهى الأمر بمقتل «كلثوم بن عياض القيشرى» وحبيب بن أبى عبيدة بن عقبة وتفر بعض القوات بقيادة «بلج بن بشر القشيرى» ابن أخ كلثوم حيث تتحصن هذه القوات العربية الفارة من أرض المعركة فى مدينة سبتة وتتحصن بها ويعتصمون بأسوارها بضعة شهور[٢٧] لكن والى الأندلس «عبد الملك بن فطين الفهرى»، يراسل بلج بن بشر القشيرى وقواته من أجل عبور المضيق إلى الأندلس وذلك لمساعدته فى ثورة قام بها بربر الأندلس ضد نظام الدولة وضرورة القضاء عليها حيث كانت ثورة بربر الأندلس امتداد لثورة بربر المغرب، وذلك لأن بربر الأندلس كانوا أشد سخطاً على الدولة الأموية أكثر من بربر المغرب، وكذلك على من معهم من عرب الأندلس لأن ع ب الأندلس كانوا أشد تعصباً من عرب المغرب وهكذا تركت ثورة المغرب دون مواجهة حاسمة بعد تلك المعركة إلا أن يتدخل

(٢٦) ابن خلدون : العبر ديوان المبتدأ والخبر، جـ٦، ص ١١٠.
(٢٧) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٤.

الخليفة هشام بن عبد الملك فى أمر تلك الثورة وضرورة القضاء عليها (٢٨).

لكن الخلافة الأموية فى دمشق لم تستسلم لهذه الهزائم المتكررة لقواتها على أيدى ثوار البربر، ومن هنا نجد الخليفة «هشام بن عبد الملك» وهو فى أواخر أيامه يبادر بإرسال قوات عربية كثيفة مجهزة بأحسن الأجهزة القتالية فى ذلك العصر حيث كانت تلك الغزوة تضم بين قواتها أغلب قوات الفرسان العربية التى حشدها هشام لأداء ذلك الدور ووضع تلك القوات تحت قيادة رجل مشهود له بالفروسية وقوة العزيمة والصبر على مواجهة الشدائد والقدرة على دك الحصون ذلك القائد هو «حنظلة بن صفوان الكلبى»، أحد رجال الشام الموالين أشد الولاء لبنى أمية ووصلت قوات الخوارج الأباضية عليها، لكن الظروف قد ساعدته فى ذلك إذ انقسم الخوارج على أنفسهم مما ساعد على إنقاذ المدينة من سقوطها، وكان عرب القيروان بما فيهم العلماء ورجال الدين وعامة الشعب قد خرجت لتدافع عن المدينة؛ حيث وزع حنظلة السلاح وذلك للدفاع عن مدينتهم وقاعدتهم فى إفريقية وموطن المذهب المالكى فى أرض المغرب واستطاع حنظلة القضاء على قوة الخوارج بفرقهم وطوائفهم المختلفة فى أوائل عام ١٢٤هـ/٧٤٢م، وهكذا هزم رجال الخوارج بقيادة «عكاشة بن أيوب الغزارى» «وعبد الواحد بن يزيد الهوارى» وهكذا أنقذت هاتان المعركتان مصير السنة فى المغرب وأفريقية فثبتت أقدامها بعد ذلك(٢٩).

وكانت تلك المعركة قد دارت فى منطقة يطلق عليها الأصنام وهى فى موقع يبعد أربعين كيلو متر غرب القيروان وهكذا انتصر العرب بمساعدة قوات عرب إفريقية السبائية وسيطرت الدولة على المغرب، وهكذا انتهى الصراع الدموى فى إقليم طرابلس وتونس والجزائر وإقليم الزاب والسهل الشمالى للمغرب الأقصى، وهكذا كان العصر

---

(٢٨) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، ص ١٢٤.
(٢٩) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٠٥.

الذهبى لبنى أمية وقوات الجيش الشامى الموالى لهم قد بدأ نجمها فى الأفول؛ حيث انتهى ذلك العصر بوفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ-٧٤٣م وهو آخر الشخصيات القوية في بنى أمية؛ حيث لم يبقى من عمر الدولة الأموية بعد ذلك إلا سبع سنوات؛ حيث انتهت الدولة عام ١٣٢هـ-٧٥٠م [٣٠] .

وكانت القيروان قاعدة المغرب الإسلامية قد تحولت إلى مركز إشعاع إسلامى وقامت فى مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية وبدأ الجو الثقافى والعلمى فى البلاد يأخذ بعداً جديداً وطابعاً أخر بتأثير الإسلام والعروبة، ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً إسلامياً، ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد، كأنه نقطة البداية بتغير عام فى أوضاع المدن فى إفريقية والمغرب كله. هكذا جاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وآمالها، فأخذ الكثير من قوى ومدن المغرب طوره بتحويل إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد وكتاتيب لتدريس اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر قواعد الإسلام[٣١] .

وفى هذا الجو الذى بدأت فيه بوادر سقوط الدولة الأموية خلا المغرب العربى للعرب السبائية؛ حيث لم يعد هناك تفوق لعرب الشام وكذلك خلا للبربر ليمارسوا دورهم فى حكم بلادهم وقد تقاسموا أقاليم المغرب المختلفة فيما بينهم فنجد عرب القيسية البلديون الذين واستوطئوا فى إفريقية منذ بداية الفتح العربى عام ٢٣هـ-٦٤٣م قد سيطروا على إقليم إفريقية (تونس دولة الأغالبة) أما البربر فقد سيطروا على ما عدا ذلك من أقاليم المغرب المختلفة، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج (الدولة الرستمية) الزناتية، أما بربر البرانس، أهل الاستقرار وهم معظم سكان المغرب فلم يمتد إليهم لهيب الفتنة بنفس المدى الذى امتدت به إلى قبائل الزناتية لكن بربر البرانس

---

(٣٠) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص ١١٧ .
(٣١) عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية، ص ١٣١-ص١٣٥ .

سوف يدخلون تاريخ المغرب بإنشاء دولة الأدارسة، ثم الدولة الفاطمية، ودولة بنى زيرى، ثم دولة المرابطين فقد أنشأ دولتهم بربر المصامدة وهم بربر جبال أطلس الكبرى[٣٢].

ظهور الإمارات المستقلة

إذا كانت الخلافة الأموية فى دمشق بقيادة هشام بن عبد الملك بن مروان قد استطاعت عام ١٢٤هـ-٧٤٢م القضاء على الفتنة الكبرى التى قام بها بربر المغرب فى ذلك الوقت بقيادة أحد رجالها الأقوياء حنظلة بن صفوان بن الكلبى إلا أن ذلك الانتصار الذى تحقق للخلافة لم يكن له أن يلاقى أدنى نجاح لولا المساعدة القوية التى قدمت له من جانب العرب المحليون الذين قطنوا تلك الديار منذ الفتح العربى الإسلامى للمغرب والذين مضى على وجودهم ما يقرب من مائة عام والذين قاموا بنصيب كبير فى استخلاص إفريقية من الثائرين على الخلافة والذين لولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذى قضى على ثوار البربر ومن سار فى فلكهم من عرب الخوارج.

وبهذا فإنه يمكن القول أن الذين حققوا ذلك الانتصار ونجحوا فى القضاء على الفتنة الكبرى ساعدهم العرب الذين نشأوا على أرض المغرب؛ حيث كانت لهم قوة النفوذ، بل يكاد أن يكون لهم السلطان الفعلى على أرض المغرب حيث كانوا يعيشون جماعات متماسكة فى المدن وحولها بصورة خاصة بالإضافة إلى أنه كانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية الذين كانوا قد دخلوا فى عقيدة الإسلام وتعربوا لساناً بل استعربوا وأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها ألف حساب فى أى صراع قادم على السلطة وكانوا يتمركزون فى القيروان وتونس والمسيلة وأقليم الزاب؛ حيث كانوا يشاركون العرب معيشتهم بعد أن اختلطوا معهم وصاهروهم وتزوجوا منهم وحدث ذلك

(٣٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٥.

الذهبى لبنى أمية وقوات الجيش الشامى الموالى لهم قد بدأ نجمها فى الأفول؛ حيث انتهى ذلك العصر بوفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ-٧٤٣م وهو آخر الشخصيات القوية فى بنى أمية؛ حيث لم يبقى من عمر الدولة الأموية بعد ذلك إلا سبع سنوات؛ حيث انتهت الدولة عام ١٣٢هـ-٧٥٠م [٣٠] .

وكانت القيروان قاعدة المغرب الإسلامية قد تحولت إلى مركز إشعاع إسلامى وقامت فى مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية وبدأ الجو الثقافى والعلمى فى البلاد يأخذ بعداً جديداً وطابعاً أخر بتأثير الإسلام والعروبة، ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً إسلامياً، ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد، كأنه نقطة البداية بتغير عام فى أوضاع المدن فى إفريقية والمغرب كله. هكذا جاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وآمالها، فأخذ الكثير من قوى ومدن المغرب طوره بتحويل إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد وكتاتيب لتدريس اللغة العربية وتحفيظ القرآن الكريم ونشر قواعد الإسلام[٣١] .

وفى هذا الجو الذى بدأت فيه بوادر سقوط الدولة الأموية خلا المغرب العربى للعرب السبائية؛ حيث لم يعد هناك تفوق لعرب الشام وكذلك خلا للبربر ليمارسوا دورهم فى حكم بلادهم وقد تقاسموا أقاليم المغرب المختلفة فيما بينهم فنجد عرب القيسية البلديون الذين واستوطنوا فى إفريقية منذ بداية الفتح العربى عام ٢٣هـ-٦٤٣م قد سيطروا على إقليم إفريقية (تونس دولة الأغالبة) أما البربر فقد سيطروا على ما عدا ذلك من أقاليم المغرب المختلفة، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج (الدولة الرستمية) الزناتية، أما بربر البرانس، أهل الاستقرار وهم معظم سكان المغرب فلم يمتد إليهم لهيب الفتنة بنفس المدى الذى امتدت به إلى قبائل الزناتية لكن بربر البرانس

---

(٣٠) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص ١١٧.

(٣١) عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية، ص ١٣١-ص١٣٥.

سوف يدخلون تاريخ المغرب بإنشاء دولة الأدارسة، ثم الدولة الفاطمية، ودولة بنى زيرى، ثم دولة المرابطين فقد أنشأ دولتهم بربر المصامدة وهم بربر جبال أطلس الكبرى[٣٢].

ظهور الإمارات المستقلة

إذا كانت الخلافة الأموية فى دمشق بقيادة هشام بن عبد الملك بن مروان قد استطاعت عام ١٢٤هـ-٧٤٢م القضاء على الفتنة الكبرى التى قام بها بربر المغرب فى ذلك الوقت بقيادة أحد رجالها الأقوياء حنظلة بن صفوان بن الكلبى إلا أن ذلك الانتصار الذى تحقق للخلافة لم يكن له أن يلاقى أدنى نجاح لولا المساعدة القوية التى قدمت له من جانب العرب المحليون الذين قطنوا تلك الديار منذ الفتح العربى الإسلامى للمغرب والذين مضى على وجودهم ما يقرب من مائة عام والذين قاموا بنصيب كبير فى استخلاص إفريقية من الثائرين على الخلافة والذين لولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذى قضى على ثوار البربر ومن سار فى فلكهم من عرب الخوارج.

وبهذا فإنه يمكن القول أن الذين حققوا ذلك الانتصار ونجحوا فى القضاء على الفتنة الكبرى ساعدهم العرب الذين نشأوا على أرض المغرب؛ حيث كانت لهم قوة النفوذ، بل يكاد أن يكون لهم السلطان الفعلى على أرض المغرب حيث كانوا يعيشون جماعات متماسكة فى المدن وحولها بصورة خاصة بالإضافة إلى أنه كانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية الذين كانوا قد دخلوا فى عقيدة الإسلام وتعربوا لساناً بل استعربوا وأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها ألف حساب فى أى صراع قادم على السلطة وكانوا يتمركزون فى القيروان وتونس والمسيلة وأقليم الزاب؛ حيث كانوا يشاركون العرب معيشتهم بعد أن اختلطوا معهم وصاهروهم وتزوجوا منهم وحدث ذلك

(٣٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٦٥.

التقارب الاجتماعى والوحدة العربية الإسلامية؛ حيث صحب ذلك العصر تطور مماثل صحب انتشار الإسلام وبهذا فإنه يمكن القول فى اطمئنان أن القرن الثانى الهجرى قد شهد إظلال المغرب بالظل الإسلامى فقد أصبحت تلك الأرجاء قطراً عربياً إسلامياً ينفعل مع التفكير الإسلامى الذى شاع فى العصر الأموى (٣٣) وذلك بفضل استقرار العرب السبائية أو ما يطلق عليهم العرب المحليون.

أما عرب الشام فقد كانوا يمثلون رجال الحكومة أو الخلافة الأموية فى دمشق وكانوا يعيشون فى معسكرات الجند بالقرب من العاصمة القيروان وكانوا فى نواحى أقليم إفريقية وتونس وطرابلس وإقليم الزاب، وكانت أقوى عناصرهم فى أقليم القيروان وتونس وكانوا يعتمدون أساساً على الدولة الأموية فى أواخر سنواتها (٣٤) وبقيام الدولة العباسية فإنهم نقلوا ولاءهم لها ظاهرياً.

ولقد كانت الشخصية العربية القوية التى تتزعم الوجود العربى بعيداً عن سلطة الدولة الأموية فى فترة الضعف التى استمرت سبع سنوات بعد وفاة هشام بن عبد الملك (١٢٥هـ-٧٤٣م) والذى حكم أثناءها الوليد بن يزيد (١٢٥-١٢٦هـ)، يزيد بن الوليد، ١٢٦هـ، إبراهيم بن الوليد ١٢٦هـ ثم كانت نهاية الدولة الأموية على يد محمد بن مروان (١٢٧-١٣٢هـ) حيث قتل فى قرية اسمها أبو صير من قرى صعيد مصر (٣٥)، هو عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيده بن عقبة بن نافع الفهرى والذى كان والده حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى قد قتل مع كلثوم بن عياض القشيرى وهو يقاوم انتشار ثورة البربر التى قادها ميسرة الفقير ثم تولى قيادتها من بعده خالد بن يزيد الزناتى، وكان عبد الرحمن هذا يمثل بيتاً عربياً طالت إقامته فى أرض المغرب حيث أقام فى تلك الديار جده الكبير نافع ومعه جده عقبة الذى لم

(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٢.
(٣٤) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ١٠٧.
(٣٥) عبد الفتاح مقلد : الإسلام والعروبة فى السودان، ص ١٤٦.

تكن سنه قد تجاوزت العاشرة من عمره؛ حيث قضى جزءا كبيرا من عمره فى نواحى زويلة قرب فزان، وبذلك فقد صار عبد الرحمن من أهل المغرب؛ حيث كانت الزعامة فى هذا البيت نظراً للدور الذى قام به والده حبيب وجده عقبة بن نافع، وكذلك جده الأكبر نافع الفهرى الذى اشترك فى الحملة الأولى التى قادها عمرو بن العاص لفتح المغرب (٣٦).

كما يجدر الذكر أن كثيراً من كبار القواد الذين اشتركوا فى فتح المغرب قد تركوا ذرياتهم وأحفادهم يعيشون على أرض المغرب حيث أنه من المعروف أن تحركات القواد العربية للفتح والغزو كانت تصحبهم أسرهم فى هذه التحركات ومن هنا كان هؤلاء الأبناء والأحفاد يشبون على الأرض المفتوحة ومن هنا كان أشهر هذه البيوت العربية فى المغرب هو بيت عقبة بن نافع الذى استشهد فى سبيل توطيد دعائم الإسلام على أرض المغرب والذى شارك بغزوتين كبيرتين فى سبيل الجهاد من أجل رفع راية الإسلام (٣٧)، وقد كان عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وأخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر دينار يمثلون تلك القيادة العربية الأصيلة فى أرض المغرب ورغم أن كل بيت كان له اتجاهه إلا أن بيت عقبة بن نافع الفهرى كان هو البيت الوحيد الذى كان قد اتخذ السياسة منها جاله وبدأ يمارس دوره على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب أما بيت أبى المهاجر دينار فقد اتجهوا للفقه والعلوم الإسلامية ونشر الثقافة العربية الإسلامية وأما بيت موسى بن نصير فقد أولو جل اهتمامهم للعمل فى مجال المال والتجارة وشئون الاقتصاد (٣٨) ومن هنا وقع الدور على آل عقبة بن نافع والذى تمثل فى عهد عبد الرحمن بن حبيب لكى يلعب دوراً سياسياً نشطاً واسعاً فى عهد الفوضى ما بين سقوط الدولة الأموية أو فترة ضعفها أو فترة قيام الدولة العباسية

(٣٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩١.
(٣٧) ابن عذارى : البيان المغرب، جـ١، ص ١٢.
(٣٨) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٧.

لبسط نفوذها على المغرب بعد أن تخلصت من متاعبها فى الشرق الإسلامى، وكان عبد الرحمن بن حبيب يعتمد على سمعة جده الفاتح العظيم المجاهد عقبة بن نافع لكن عبد الرحمن كان على خلاف جده، إذ أنه كان له طموح سياسى وكان رجلاً أنانياً اتجه إلى محاولة الاستقلال بالمغرب عن السلطة الأموية والعباسية على الرغم من أنه لم يكن يتمكن من الثبات وتنظيم أمور الدولة؛ حيث أن الفرصة كانت مواتية له كى ينشئ سلطاناً عربياً إسلامياً مستقلاً عن الدولة الأموية حيث أن سلطان الدول كان قد بدأ يتلاشى والبلاد المغربية تعمها الفوضى والشغب وفى أمس الحاجة إلى قائد مخلص يخلصهم من هذه الفوضى، إذ كان فى إمكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أن يقيم دولة عربية مستقلة على أرض المغرب، كما فعل عبد الرحمن بن معاوية الداخل فى الأندلس (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م)؛ حيث كان معاصراً له أو بعده بقليل، لكن عبد الرحمن بن حبيب لم يحاول فى بدء تحركه فى القيروان أن يكسب إلى جانبه صف الشرعية فى إعلان ولائه للدولة العباسية الجديدة والدخول فى طاعتها، بل إنه لم يحاول أن يكسب إلى جانبه القبائل العربية المنتشرة فى أرض المغرب والتى تمركزت منذ فترة طويلة، بل إنه لم يحاول الاستعانة بالبربر ولو على الأقل بالبربر الزناتية الذين اختلطوا بالعرب وتعايشوا معهم وجمعتهم وحدة اجتماعية وصلة نسب ومصاهرة، بل على العكس إننا نجد أنه قام من نفسه بإعلانه أمير على القيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل وأثر سقوط الخلافة الأموية، وإن كان بعد فترة قد أعلن الولاء والدخول فى طاعة الخلافة العباسية الجديدة فى بغداد وبعد ذلك أعلن التبعية إلى أبى جعفر المنصور، وقد قام أبو جعفر المنصور فى ذلك الوقت يطالبه بمال الدولة الذى كانت تحتاج إليه الخلافة الناشئة لتدبير أمورها والقدرة على مواجهة الصعاب التى تقف فى طريقها حتى تمكن لنفسها بدلاً من الخلافة الأموية التى انهارت (٣٩) وفى ذلك الوقت فإن الأمور فى المغرب تعيش فى فوضى ولم يكن الأمر قد استتب بعد

لعبد الرحمن بن حبيب الفهرى فى أنحاء المغرب وقد أخطأ المنصور فى ذلك لأن أبا جعفر المنصور لم يكن يعلم حقيقة الأوضاع فى بلاد المغرب وأنه لم تعد هناك أموال فى بلاد المغرب من جراء الفتنة الكبرى فى ذلك الحين والجباية معطلة فى البلاد، ومن هنا .. لم يكن أمام عبد الرحمن بن حبيب إلا أن يرسل إلى أبى جعفر المنصور رداً قاسياً يسبه فيه سباً لاذعاً ويعلمه بالخروج عن طاعته، وقد كان إعلان عبد الرحمن بالخروج عن طاعة الخلافة العباسية بشكل فى ذلك فكرة لاتقبلها الناس؛ حيث أن الولاء للدولة الإسلامية العباسية أو الخلافة كان يمثل عنصراً هاماً فى نفوس الشعب فى المغرب، لكن جماهير المسلمين لم تكن لتستقبل بمنتهى البساطة أن تكون إمارة المغرب أو على الأقل القيروان حيث المغرب الأوسط (إفريقية) مستقلة لا تجد أدنى تأييد ولو أسمى من الخلافة ولم يكن لها أدنى سند شرعى تقوم عليه ولاية عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى ومن هنا .. فإنه عندما انفصل عبد الرحمن وطرح جانباً الولاء للدولة العباسية فإن حكمه لم يعد له سند فى حين إننا نجد زميل مرحلته عبد الرحمن بن معاوية الداخل يقيم فى الأندلس دولته فى قرطبة فى ظل الخطبة للدولة العباسية وذلك رغم ما بينه وبين الخلافة العباسية من عداء دفين لاسيما لما قاموا به من أعمال جند آل أمية وما ارتكبوا بشأنهم من مذابح ومن هنا كان الولاء الأسمى للدولة العباسية هو الذى أكسبه الشرعية الدستورية أو القانونية فى نظر عامة الشعب فى الأندلس لكى يحكم البلاد ومن ثم اكتسب الشرعية وأعلن بعد أن ثبت دعائم حكمه الانفصال عن الخلافة العباسية وأقام دولته المستقلة فى الأندلس (٤٠).

ومن هنا .. فإن خروج عبد الرحمن بن حبيب الفهرى على سلطة الخلافة العباسية فى أول الأمر وقبل أن يستتب له الأمر كان دافعاً قوياً لعدم التفاف القبائل حوله لاسيما أنه لم يكن يملك القوات العسكرية اللازمة لإخضاع هذه القبائل

---

(٣٩) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٥٧.

بجانب استخدام أسلوب العنف والقوة فى إخضاع أهل البلاد وقد أدى ذلك إلى نتائج عكسية؛ حيث أن البربر بطبيعتهم ينفرون من أسلوب القوة، وقد استطاع عبد الرحمن أن يستمر فى الحكم فترة ليست بطويلة وكذلك استعانته بأخيه إلياس بن حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع، والذى كان قائداً عسكرياً ناجحاً وذا شخصية قوية استطاع أن يضم إلى جانبه طبقة من الفرسان والمقاتلين وأن يكسب ولاءهم وحسن طاعتهم وقد يكون ذلك من العوامل التى ساعدت عبد الرحمن على إعلان عدم ولائه للدولة العباسية وسبه للخيفة أبى جعفر المنصور بجانب أنه كان يتخوف من أخيه إلياس ويتعامل معه بحذر (٤١) ومن هنا كان الشك يساوره فى ولاء أخيه ولكن الأمر يكون قد اختلف بشأن ظهور تلك الإمارة العربية لو وضعت القيادة فى يد إلياس بن حبيب بدلاً من أخيه عبد الرحمن الذى كان يفتقد إلى جوانب كثيرة لاتساعده على بناء دولته فى إفريقية ولو أن عبد الرحمن كان يتمتع بجانب من الكياسة والفطنة والحكمة والكفاية القيادية والإدارية لتغير وجه التاريخ فى تلك المنطقة لكنه لم يكن محبباً من العوام، فقد كان غير ثابت، سريع الحركة غير واضح السياسة، ومن هنا .. فإن كل هذه الأمور باعدت بينه وبين القوم سواء كانوا عربا أو بربر ونفروا منه نفوراً عظيما، ومن هنا تصدى له قوم من أنداده من بيوتات العرب الكبيرة التى كانت قد استقرت منذ فترة طويلة فى أرض المغرب وأصبحوا يتمتعون بمكانة عالية بين قبائلهم وأقوامهم، ومن هنا ثارت المشاكل وتعقدت الأمور بينه وبينهم ولم يعد أمامهم سبيلاً سوى الاحتكام للسلاح لحسم مثل هذه الأمور التى استعصى حلها ودارت الحروب بينهم.

وبينما الأطراف الأخرى مستعدة لخوض المعركة الفاصلة مع عبد الرحمن بن حبيب نجد أنه يقع فى خطأ جسيم إذ أنه دون سابق إنذار يقوم بعزل أخيه إلياس عن

---

(٤٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٨.

(٤١) السلاوى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى، جـ٢، ص ٥١.

قيادة الجيش وولاية العهد ويعين إبنه حبيب بن عبد الرحمن بدلاً من أخيه وهنا تدور الدائرة بين الطرفين الأخوين؛ حيث يتم مقتل عبد الرحمن ويتولى إلياس إدارة شئون المغرب الأوسط فى القيروان [٤٢].

ولقد كانت العقبة الكبرى التى واجهت عبد الرحمن بن حبيب فى تنظيم الدولة هى مشكلة الخوارج واللذين كانت قواتهم قد تجمعت إلى الشرق من القيروان؛ حيث جبال نفوسة فى طرابلس وكان يتولى زعامتهم زعيم خارجى ممن تلقوا تعاليم المذهب الخارجى الأباضى فى البصرة على أكبر شيوخ المذهب الأباضى فى ذلك الوقت وهو الشيخ مسلمة بن سعيد وكان أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى قد وصل إلى تلك الأرجاء؛ حيث تجمع القوم حوله وكان عالمًا فى المذهب الخارجى الأباضى وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن بن رستم[٤٣].

وقد كانت قوة الخوارج الأباضية من أهم الصعوبات التى واجهت عبد الرحمن بن حبيب ثم أخيه إلياس فى تدعيم نفوذهم فى تلك الأرجاء بجانب حدوث انقسام بين الطرفين ومقتل عبد الرحمن الأمر الذى دفع ابنه حبيب بن عبد الرحمن بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى إلى أن يسير مع جماعات التفت حوله من البربر ويدخل القيروان ويهرم بقتل عمه إلياس انتقاماً لمقتل أبيه ويتولى إدارة دفة الحكم من القيروان، لكن حكمه لم يدم طويلاً إذ أننا نجد أحد أعمامه لمحاولة ويدعى عبد الوارث ابن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ينقلب عليه ويقوم بهجوم على العاصمة مما يضطر حبيب إلى الفرار غرباً تاركًا البلاد والإلتجاء إلى قبيلة بربرية أخرى هى قبيلة (ورجونة) وهى قبيلة طارق بن زياد صاحب الفتوحات الشهيرة فى الأندلس والمغرب

(٤٢) عبد العزيز السيد سلام : المغرب الكبير، جـ٢، ص ٥١.
(٤٣) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٨.

ووضع نفسه تحت حماية زعيم هذه القبيلة الذى كان يدعى عاصم بن جميل؛ حيث يقوم الآخر بحشد قوات من البربر وسار بهم إلى القيروان وكان ذلك الرجل ومن معه من الخوارج الصفرية الذى ينتسبون إلى زياد بن الأصفر أو إلى عبد الله بن الصفار والذين كانوا ينتسبون كذلك إلى الصفرية لأن أصحابها أصفرت وجوههم من طوال العبادة وكثرة الصوم وهى كما يقول الطبرى بأخذ النساك بحيث يصفر وجه صاحب عبادة [٤٤] وكان من أهم رجاله شبيب بن يزيد الشيبانى الذى يوضع فى عالم البطولة مع نافع بن الأزرق، وكانت الطريقة الصفرية قد انتشرت بين هؤلاء القوم ومن هنا تحركوا نحو القيروان حيث قام عاصم بن جميل باقتحام القيروان عنوة والقضاء على حكم آل حبيب نهائياً، وأقام حكماً خارجياً فى هذه البلد الذى كلف العرب جهوداً جبارة وضخمة لأجل فتحه بل وإتمام فتحه والذى دام أكثر من ثلاثة وسبعين عاما، وهكذا نجد أن عاصم بن جميل يؤكد احتقاره لمذاهب السنة فيقوم بإدخال رجاله بخيلهم إلى المساجد والجوامع الكبيرة فى القيروان وربطوا خيولهم فيه، وهكذا .. انتهت القيروان بعد عناء لتكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية [٤٥].

ولقد كان هذا الموقف الذى حدث فى القيروان دافعاً قوياً لكى يتحرك الخوارج الأباضية بزعامة الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذى بنتسب الى قبيلة المعافرة فى غرب اليمن بالتوجه الى القيروان والسيطرة على جبال نفوسة وناحية طرابلس وطرد الخوارج الصفرية من القيروان، ومن هنا انتقلت إفريقية من سلطة الصفرية إلى سلطة الفرقة الأباضية للخوارج، ولقد كانت هذه الأمور التى تدور رحاها على أرض إفريقية من الأسباب القوية التى دفعت أبا جعفر المنصور الذى قامت دولته العباسية على الجماعة والسنة بأن يصدر الأوامر لواليه على مصر «محمد بن الأشعث»

(٤٤) الطبرى : مصدر سابق، جـ٥، ص٥٠.
(٤٥) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٨.

بأن يتحرك إلى إفريقية لطرد الخوارج الأباضية من القيروان وتم له الأمر واستتب الحال لرحال السنة فى القيروان وتم طرد الخوارج الأباضية الذين فروا بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط بينما فر الباقون إلى جبال نفوسة للاحتماء بها ومحاولة توحيد صفوفهم لمرحلة أخرى قادمة يستطيعون من خلالها إقامة دولة لهم فى المغرب الأوسط.

المغرب فى ظل الدولة العباسية

كان اهتمام أبو جعفر المنصور بالأمور فى المغرب دافعاً قوياً لإرساله محمد بن الأشعث والى مصر وإمداده بقوات عربية كبيرة لإنهاء وجود الخوارج الأباضة فى القيروان ومن ثم استطاع محمد بن الأشعث أن يطرد الخوارج من القيروان وأن يجعلهم يتركون المدينة إلى جبال نفوسة أو يتحركون غرباً إلى المغرب الأوسط، وبهذا فقد استتب الأمر للدولة العباسية فى المغرب (إفريقية) وباستقرار محمد بن الأشعث فى القيروان واجتهاده فى إقرار الأمن وبذل الجهود الجبارة لعودة الحياة الطبيعية إلى مجراها وإن كان الخوارج لازالوا يشكلون عنصراً خطيراً على الدولة العباسية ومن هنا أصبحت المغرب تشكل مشكلة كبيرة للخلافة العباسية نظراً لبعدها عن مقر الخلافة ببغداد، بالإضافة إلى أن المذاهب الدينية الإسلامية قد وجدت فيها أرضاً بكراً لكى تنشر أفكارها كالشيعة والخوارج، إضافة إلى أنه تعيش فيه جماعات عربية متعادية متحاربة بعضهم من أهل السنة والبعض الآخر من الخوارج وكذلك بعضهم عرب وبربر وعرب قيسية وسبائية ومن هنا كان لابد للخليفة العباسى أبو جعفر المنصور أن يضع حداً لهذه الأمور المعقدة وأن يجد سبيلاً لحلها فكان لما انتهت ولاية محمد بن الأشعث فى عهده أن اختار لولاية إفريقية زعيما من زعماء العرب المقيمين فى المغرب وتربوا وأنشئوا فى تربيتها وعرفوا أمورها.

كان ذلك الذى اختارته الخلافة العباسية فى بغداد وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمى وهو من زعماء العرب المقيمين فى مصر والذين كان لهم دراية وإلمام بأمور إفريقية وكان فارساً شجاعاً متمرسا بفنون القتال والحروب، وسار الأغلب إلى إفريقية ومعه قومه وأهله ومن بينهم ابنه إبراهيم والقوات العربية التى صحبته من مصر وجهزتها له الخلافة العباسية ووالى مصر فى ذلك الوقت، واستطاع الأغلب أن يدخل إفريقية ويتخذ من القيروان عاصمة له وبدأ يمارس شئون الولاية منها وينظم أمور الولاية

ويعمل جاهداً على استتباب الأمر[٤٦] ودرء المخاطر عن ولايته وإذ به يفاجأ بقيام الخوارج وظهورهم بقوة وعنف ومن جديد على مسرح الأحداث فى إفريقية وبقيادة رجل غير السابقين؛ فهو أبو حاتم حيث تمكن أبو حاتم من مهاجمة القيروان وقتل الأغلب بن سالم بن عقال والسيطرة على القيروان وإفريقية لكن إبراهيم بن الأغلب استطاع أن ينجو بنفسه ومعه بعض قوات أبيه؛ حيث يتحرك غرباً إلى إقليم الزاب ويستعد لجولة قادمة ضد الخوارج الذين قتلوا أباه وفى تلك الأحوال يستقر رأى القيادة السياسية في بغداد حيث مقر الخلافة ويتخذ الخليفة قراره باختيار أحد رجاله بل من كبار رجال الدولة المشهود لهم بالكفاءة والخبرة ومنحه كل الصلاحيات الممكنة لعلاج الأمور فى إفريقية وإنقاذها من الفوضى والخلل ووضع الأمور فى نصابها، لذلك الرجل من بنى المهلب بن أبى صفرة وهو أبو حفص عمر بن قبيص الذى عرف بالمهلبى، وهو من المهالبة من الأزد الذين سكنوا أرض عمان ولذلك يعرفون بازد عمان، وقد كان ذلك الرجل قد عاش وتولى العديد من الأعمال في عصر الدولة الأموية[٤٧].

وكان أبو حفص قد وصل إلى إفريقية عام ١٥١ هـ ـ ٧٦٨م وبدأ بذلك عصراً جديداً فى ولاية إفريقية إذ شهدت نوعاً من الاستقرار النسبى، وكان ذلك الرجل قد صحب معه بعضاً من قومه من آل المهلب عندما قدم بهم ومعهم إلى إفريقية وكذلك صحب قوة عسكرية كبيرة وبذلك. . فإن فترة حكم هؤلاء القوم سوف تكون حاسمة في تاريخ المغرب وافريقية كولاية إسلامية ومركزاً من مراكز العروبة والإسلام المغرب.

ولقد وضع أبو حفص نصب عينه ضرورة مواجهة الخوارج الذين قتلوا أبا

(٤٦) صلاح العقاد: المغرب العربى، ص ١٥٨.
(٤٧) ابن أبى دينار: مرجع سابق، ص ٤٣.

الأغلب، بزعامة أبو حاتم وتمكن أبو حفص عمر من الانتصار عليهم فى بادئ الأمر لكن أبو حاتم استطاع فى عام ١٥٤هـ/٧٧١م وبعد مرور ثلاث سنوات على استقرار الأول في القيروان أن يهزمه ومن ثم قتل فى تلك المعركة أعداد كبيرة من قوات المهلبى والتى أثبت الخوارج فيها أنهم قوة فعالة فى المغرب ولهم دوراً لا يقل شأناً عن أى قوة إسلامية على أرض المغرب [٤٨].

وإزاء هذا الموقف .. فإن الخليفة العباسى أاو جعفر يأمر واليه فى مصر يزيد بن حاتم المهلبى ابن عم الوالى القتيل السابق أبى حفص فأمره بالسير إلى إفريقية حيث تم تعيينه والياً عليها فى عام ١٥٥هـ-٧٧٢م وبدأ فى تاريخ افريقية عصراً من الاستقرار والأزدهار، وكان الوالى الجديد من آل المهلبى معه جند كثير من آل الأزد عرب عمان، والذين استعان بهم فى استقرار الأمور فى القيروان؛ بحيث لم يطمئن إلى قوات من الجند الفرسان الذين كانوا فى ذلك الوقت عماد القوة العسكرية، ولكن على الرغم من سواء القوات الخراسانية التى صحب يزيد بن حاتم، إلا أنه بذل قصارى جهده حتى استطاع بكفاءته الشخصية أن يقر الأمور فى إفريقية وأن يقيم حكماً عربياً إسلامياً عادلا زاهراً دام فترة تزيد عن خمسة عشر عاماً (١٥٥-١٧١هـ/٧٧٢ - ٨٨٧م) من الهدوء والاستقرار.

وهكذا حكم يزيد بن حاتم فترة الخمسة عشر عاماً التى تعد من أحسن سنوات الحكم القليلة فى تاريخ إفريقية؛ حيث شهدت بعداً جديداً من الأزدهار والتقدم والرخاء ودرت العديد من الفوائد على البلاد فقد كان يزيد بن حاتم سيداً عربياً يتميز بكل ما يميز سادة العرب فى تلك العصور من رياسة وشهامة وكرم فقد كان رجلاً زكيا نشطاً خبيراً بشئون الحكم والإدارة بالإضافة إلى أنه كان عربياً صادق العروبة يتصف بالشهامة والسيادة والبعد عن الصغائر وكان مسلماً صحيح الإيمان يؤمن بدولة السنة

(٤٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٢ .

والجماعة ومن هنا حارب الخوارج وأنصارهم أشد محاربة، وقد كان الشعراء يفدون عليه لكي يمتدحونه حيث كان رجلاً بعيد الصيت فى الدولة العباسية وكان له كيان سياسى لدى أبو جعفر المنصور والذى كان يثق فيه كل الثقة ومن هنا كان قرار توليته ولاية إفريقية بدلاً من ولاية مصر حيث أدرك أنه الرجل الذى يستطيع أن يضع حداً لكل ما يدور على أرض إفريقية (٤٨).

المهم بعد ذلك أننا نجد أنه بعد نجاح يزيد بن حاتم فى إدارة شئون إفريقية بحكمة وحنكة ودراية قد جعل الخلافة العباسية فى بغداد تترك أمر فريقية فى أيدى أهل المهلبى الذين عرفوا بالإخلاص للدولة العباسية فتولى المهالبة حكم إفريقية وأهمهم بعد يزيد بن حاتم المهلبى أخوه روح ابن حاتم وكان لا يقل كفاءة وقدرة ودراية بشئون الحكم عن أخيه يزيد قد حكم ثلاث سنوات ٧٢هـ – ١٧٥هـ – ٧٨٨ – ٧٩١م، وقد كان آخر المهالبة الذين حكموا إفريقية من قبل الخلافة العباسية الوالى الفضل بن روح بن حاتم الذى حكم البلاد عام ١٧٧هـ–٧٩٣هـ ولم يحكم إلا سنة ونصف حيث ثار عايه جند إفريقية والمغرب نظر لسوء إدارته للبلاد واستخدامه أسلوب العنف والاستبداد والسيطرة على كل الوظائف هو وقوته من آل المهلبى وخاصة الوظائف الكبرى والحساسة ولذا كانت نهايته على أحد قواد الجند فى تونس وهو (عبد الله بن عبد ربه بن الجارود)؛ حيث تمكن ذلك القائد من عزله ثم قتله فى عام ١٧٨هـ–٧٩٤م؛ حيث ساعده فى ذلك بعض من أعوانه من قواد الجيش فى تونس، وهكذا .. انتهت فترة ولاية أسرة المهلبى بعد أن حكمت إفريقية فترة تقدرها المصادر بربع قرن (خمسة وعشرين عاما) بدأت فى عهد الخليفة العباسى الأول أبو جعفر المنصور وانتهت فى فترة حكم هارون الرشيد (٥٠).

---

(٤٩) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٢.

(٥٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٧٦، ص٧٧.

وهكذا نقف عند هذه الفترة التاريخية فى ذلك البحث؛ حيث لاتكون قد تجاوزنا الحد فى ذلك البحث حيث أن هذا الجزء الأول من موسوعة المغرب السادسية الأجزاء هو المغرب فى (٢٢هـ-١٢٥هـ/٦٤٣م-٧٤٣م) لكنها طبيعة تلك المرحلة التى مرت بها المغرب اقتضت أن تكون دراسة هذا الباب إلى هذا الحد من الحكم؛ حيث أن هذا الباب سوف يتحدد عليه انتشار الإسلام بصورة فعالة وصبغ المغرب العربى بالصبغة العربية الإسلامية، ولهذا كانت الضرورة تحتم إضافة هذا الباب إلى الأبواب السابقة لكى يكون تكملة للبابين الثانى والثالث حتى يكون الباب الخامس القادم صورة متكاملة عن انتشار الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب وبذلك يكون قد تم إيجاد الكتلة العربية الإسلامية الثانية على الأرض الإفريقية بعد أن ظهرت الكتلة المصرية العربية الإسلامية الأولى لتمارس دورها فى إيجاد تلك الوحدة الثانية التى لولا الدور المصرى الثابت والمذكور والمتواصل لما قدر لظهور تلك الكتلة العربية الإسلامية على أرض المغرب ذلك لأن الدور الذى لعبته مصر وقواتها وزادها وزوادها وعدتها كان من الأسباب القوية التى أدت إلى ظهور الكتلة العربية الإسلامية الثانية على أرض إفريقية بعد الكتلة العربية الإسلامية فى مصر وبهذا قدر للمغرب أن يمارس دوه العربى الإسلامى فى نشر راية الإسلام فى إفريقية بل على أرض أوربا وجزر البحر المتوسط.

* * *

الباب الخامس

الإسلام والعروبة فى المغرب

إنه قبل قرن من الزمان وبالتحديد فى القرن السادس الميلادى لم تكن فى أرض المغرب بالمعنى المفهوم جماعات مسيحية تستطيع أن تطلق عليها انتشاراً للمسيحية على نطاق واسع بين هذه الجماعات لكن ذلك القرن قد شهد كثير من غارات القبائل البربرية الوثنية (البتر) فى الجنوب وقد قيل أن حروب الامبراطور جستنيان الرومى ضد الوندال عام ٥٣٤م قد أفنت العديد من أهل إفريقيا وهجر المواطنون بلاداً كانت مزدهرة بالتجارة والصناعة، ولكن الخراب كان أسرع إليها وكذلك حل الدمار بالرومان وحلفائهم من بربر البرانس سكان السواحل.

وأنه قبل أن يتقدم العرب من مصر إلى إفريقية كانت الكنيسة الإفريقية تعانى مما تعانية الكنيسة المصرية من اضطهاد كنيسة القسطنطينية لها ومن هنا قل عدد المسيحيين وظل عددهم يتناقص بالتدريج خلال الخمسين عاماً التى سبقت الفتح العربى الإسلامى من جراء أعمال القواد الرومان الذين كانوا يحاصرون المدن الرومانية لمدد طويلة من أجل إجبار الأهالى على ترك مذهبهم وقبول مذهب كنيسة القسطنطينية [١].

وليس معنى ضعف المسيحية فى بلاد المغرب قبيل الفتح العربى الإسلامى وفى السنين الأولى من الدولة الإسلامية أن الإسلام قد لقى من أول وهلة أرضاً خصبة فى بلاد المغرب بمجرد أن وطأت أقدام المسلمين تلك الديار ولكن المقاومة العنيفة التى أبداها البربر ضد الوجود العربى كانت تدل على تأصل الوثنية فى قلوبهم، وفى تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر لاتوجد إلا إشارات يسيرة عن دخول الأهالى فى

(١) زاهر رياض : مرجع سابق ، ص ٣٤.

الفترة الأولى أو الربع قرن الأول من القرن الأول الهجرى ٢٥هـ، وأن انتشار الإسلام لم يكن نتيجة محاولات وئيدة لكنها كانت جبارة؛ حيث اكتسح الإسلام صفوف البربر ودخل القوم فى دين الله أفواجاً بعد انتصار حسان بن النعمان الغسانى على الكاهنة، وعقد الصلح ودخل البربر الإسلام طوعًا لا كرهاً وساهموا فى القوات العربية الإسلامية الغازية بإثنى عشر ألف دخلوا فى الإسلام دفعة واحد (٢).

ولقد كان إنشاء مدينة القيروان من أهم الأحداث فى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المغرب؛ حيث يعتبر إنشاء تلك المدينة بداية عهد جديد فى انتشار الإسلام بين المغاربة وبدأ ظهور الحضارة العربية المغربية؛ حيث أن مدينة القيروان كان يخرج منها الدعاة والفقهاء ورجال الدين الذين نذروا أنفسهم لينتشروا فى البلاد يعلمون الناس الدين الإسلامى ويحفظونهم القرآن الكريم ويدرسون اللغة العربية (٣).

بل إن الدعاة أخذوا على عاتقهم نشر الإسلام رسالة السماء دين الله الخالد إلى جهات مختلفة من أرض المغرب فانطلقت جماعة تتألف من خمسة أو ستة أشخاص إلى جهات مختلفة فى وقت واحد واعاشوا عيشة زهد وتقشف بين القبائل بل وصل بهم الأمر إلى العيش فى الكهوب وسرعان ما أثار ذلك العمل وتقشفهم وتعبدهم طوال الليل والنهار رجال القبائل فبادلوهم صداقة وودا، وتمكن الدعاة شيئاً فشيئا من الظفر بما أرادوا فأصبح فى كل قبيلة بربرية مركز للتعليم الإسلامى واجتمع حولهم طلاب العلم الذين أصبحوا بدورهم دعاة للإسلام بين أقوامهم (٤).

ورغم أنه لم تتح لعقبة بن نافع الفهرى الفرصة لإتمام ما بدأه فى نشر الإسلام بين القبائل البربرية وتنفيذ السياسة الحكومة التى وضعها غير أن سياسته فى نشر

(٢) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٥٢.

(٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٣.

(4) Scott. A., History of the Moorish empire - Vo I. P. 127.

الإسلام بين القبائل أصبحت منهجاً لمن أعقبه من القواد والفاتحين لأنها أكثر السياسات ملاءمةً لأحوال إفريقية، لذا .. فإننا نجد أنفسنا أنه عندما زحف خليفته أبو المهاجر دينار وطرق باب المغرب الأوسط واصطنع سياسة التحبب إلى القبائل المغربية فى البلاد ومسالمتها وترغيبها فى الإسلام لاقت تلك السياسة قبولاً لدى البربر فبدأوا يتدافقون للدخول فى رسالة الإسلام (٥).

وهكذا .. نرى أن العامل الحاسم فى قصة امتداد حركة المد الإسلامى وانتشارها ووصولها إلى المغرب الأقصى هو ذلك النجاح السريع الذى حققه الإسلام بالانتشار بين البربر فى إفريقية نفسها كقاعدة عسكرية لإتمام فتح البلاد، كذلك فإن السياسة الحكيمة التى سار عليها القادة العرب ولاسيما الجهود السياسية التى قام بها حسان بن النعمان الغسانى قد حققت الأهداف التى كان يسعى إليها العرب فى امتداد حركة الانتشار الإسلامى الواسع وامتداد الثقافة كمركز من مراكز انتشار الإسلام فى بقية أنحاء المغرب وغيرها من أقطار المغرب (٦).

بل الأكثر من ذلك فإن المغرب العربى قد بدأ مغايراً لغيره من الأقطار الأخرى المفتوحة فى انتشار الإسلام واللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية بشكل لايوجد فى وطن من الأوطان التى فتحت حيث أننا نجد أنه رغم المقاومة الجبارة التى قاومها البربر للفتح العربى والتى امتدت مدة أطول مما امتدت فى أى قطر آخر قد تم فتحه (أكثر من سبعين عاماً) إلا أن النتيجة كانت سرعة انتشار العقيدة الإسلامية واعتزازه بالإسلام والعروبة واقباله على الإسلام ولغته العربية الغراء، بل أصبح أكثر أجزاء الدولة الإسلامية تمسكاً بعلاقته بالدولة الإسلامية وتقبلاً للغة العربية الخالدة وللدين الإسلامى (٧).

---

(٥) المالكى : رياض النفس، ص ٢٠.
(٦) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٦٠.
(٧) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير، جـ٢، ص ٨١.

ولقد كان من الطبيعى ألا تنجح الجهود العديدة التى بذلت لإدخال هذه البلاد فى نطاق السيادة العربية إلا باستخدام السياسة الحكيمة التى سار عليها حسان بن النعمان، حتى إذ جاء موسى بن نصير إلى المغرب الأقصى يريد أن يترسم خطة عقبة بن نافع مع تطبيقه لمبادئ حسان كتب له النجاح والتوفيق فى مهمته وهو نجاح لم يتوافر لعقبة من قبل؛ حيث أن موسى بن نصير لم يكن معلماً سياسياً بل كان داعية إسلامية وفى نفس الوقت فقد قرب إليه البربر وحببهم فى الحكومة الجديدة وولاهم الأعمال وأشركهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد فوجدوا أن انضمامهم للعرب وتحالفهم يتيح لهم فرصا أكثر لمعرفة الإسلام فبدأوا يقبلون على الإسلام إقبالاً عظيماً.

ولهذا نجد موسى بن نصير لم يكن يرى أن يكون إقبال البربر على الإسلام عن خوف أو رهبة أو غصبا أو كرها بل لابد أن يكون عن اقناع ورغبة ومودة وحب للدين الإسلامى الجديد وللغة العربية الغراء ولقومه الذين كان سلوكهم الإسلامى ودورهم فى الاقتداء من الأسباب التى حببت البربر فى الإسلام، ومن هنا أخذ موسى ينشر المساجد فى البلاد التى فتحها فأنشأ مسجداً فى مدينة أغمارة فى أقصى بلاد المغرب وبدأت الثقافة العربية الإسلامية تثبت فى هذه البيئة التى تم فتحها قريباً وعلى هذا .. فإننا نرى أن بربر المغرب الأقصى الذين دخلوا فى الإسلام حديثاً كانوا هم عدة هذا الفتح الإسلامى الكبير فى الأندلس وطارق بن زياد وقومه وأقرانه من قادة الفتح الإسلامى فى الأندلس أكبر دليل ثابت على مدى انتشار الإسلام وعمق العقيدة الإسلامية فى صفوف البربر أهل البلاد الأصليين الذين شاركوا فى كل مجد إسلامى [٨].

وفى حقيقة الأمر فإنه ما كاد القرن الثانى الهجرى، الثامن الميلادى ينتصف حتى كان الإسلام قد استقر فى بلاد المغرب استقراره الأبدى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذ كان دخول البربر فيه أفواجاً واندماجهم فى الحياة. ومن هنا .. فقد

(٨) حسن محمود : قيام دولة المرابطين، ص ٦٤، ص ٦٥.

اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية طابعها الخالد بين شعب المغرب، ولم يكن ذلك ليتحقق فى تلك الفترة الزمنية القليلة لولال جهود الدعاة الأوائل واستجابة أبناء الشعب المغربى للدعوة الإسلامية، وإذ كان البربر قد قاموا الفتح العربى فترة طويلة تزيد عن أى فترة فتح إسلامى لأى قطر آخر، إلا أن انتشار العقيدة العربية واللسان العربى والثقافة العربية قد عوض الفتح الإسلامى الطويل إذ أن اعتزاز المغاربة بعروبتهم وإسلامهم ولغتهم يفوق العديد من الأقطار الإسلامية المفتوحة، وذلك لأن ذلك الانتشار للإسلام والعروبة قد ساعده على ذلك أنه لم تكن فى بلاد المغرب عقيدة أو ديانة بالمعنى الواضح، بل أن المسيحية لم تكن تتجاوز المدن الساحلية والسهل الساحلى؛ حيث أن نفوذ الرومان لم يكن يتخطى هذه الأماكن، ومن هنا .. فإن نطاق المغرب الداخلى حيث قبائل البربر البتر ظل خارجاً عن نفوذ الكنيسة الإفريقية من ناحية أخرى، ولم يصل دور الكنيسة إلى البربر القاطنة فى المناطق الداخلية (٩) حيث أن تلك القبائل لم تتشرب حضارة الرومان وثقافتهم وديانتهم وأنها كانت تقف من الدولة الرومانية موقف العداء الصريح، بل أكثر من ذلك .. فإن غارات البربر سكان المناطق الداخلية أو ما أطلق عليه الكتاب البربر الوثنيين كانت من الكثرة بحيث أنها كانت تهدد دائماً مناطق الساحل؛ حيث الاستقرار والحصون ومناطق النفوذ البيزنطى بالإغارات المستمرة والدائمة، والتى كانت تعوق دون انتشار حركة المسيحية إلى داخل البلاد (١٠) ومن هنا كان تقبل البربر البتر للإسلام أكثر من البرانس (البتر بربر الكاهنة، البرانس بربر كسيلة) لأنهم فى المناطق الداخلية كانوا على الوثنية، وكذلك شأن غالبية شعوب المغرب وقبائله، وهكذا .. فإنه يمكن القول أن المسيحية فى المغرب وهذا حالها لم تستطع أن تقف من حركة المد الإسلامى وقفة تدانى موقف المسيحية فى مصر ومن هنا .. فإن كنيسة المغرب إن وجدت كنائس بالمعنى الواضح فيما عدا مدن الساحل

(٩) أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص ١٤٥.
(10) Marcais. G. : Les Arabes en berberie. P. 42.

كبرقة وطرابلس وقرطاجة فإنها قد تلاشت نهائياً؛ بحيث لم يعد لها وجود على أرض المغرب حالياً وإن كانت فترة دراستنا لا تنكر إنه كان يوجد بعض الأساقفة، بل أن فى القرن السادس أو الخامس الهجرى لم يكن هناك فى أرض المغرب غير أسقف واحد هو أسقف مراكش، وهكذا لم يبقى للمسيحية أدنى وجود فى المغرب إلا بقايا، أطلال الكنائس المهدمة التى لم يجد من يؤمها أو يدخلها (١١) وبهذا اندثرت المسيحية سريعاً فى أرض المغرب وأصبح المغرب العربى إسلامياً عربياً ١٠٠٪ ولقد كان ذلك نتيجة للإندماج الكلى الذى تم بين العرب والبربر والتى ظلت تعمل فى صمت وهدوء حتى انتهت إلى ما انتهت إليه من نتيجة إسلامية خالصة (١٢).

وهكذا .. صحب تحول البربر إلى الإسلام تحولهم إلى العروبة؛ بحيث أصبحت هذه اللغة هى لغة الحياة اليومية وأخذت الثقافة العربية فى شتى صورها تنتشر على نطاق واسع، وهذا أمر طبيعى إذ يكفى أن تكون اللغة العربية أداة هذا الدين ولغة الكتابة حتى يقبل البربر على تعلمها ليقرأوا بها كتاب الله القويم كما أنزله المولى عز وجل على خاتم الأنبياء والمرسلين ولكى يقرأوا بها العبادات التى شرعها الله وأن يتصلوا بالمصادر الإسلامية الأساسية لديهم يضاف إلى ذلك أن اللغة الإغريقية أو اللاتينيةلم تكن واسعة الإنتشار بين البربر ومن هنا اختفت اللغتان اليونانية واللاتينية اختفاءاً تاماً كأنما لم يكونا يوماً من الأيام لغة بعض أهل هذه البلاد كما اختفت تماماً الديانات القديمة إن وجدت (١٣).

ولقد زاد إقبال البربر على اللغة العربية ووجودا فيها أداة طبيعيةتمكنهم من التفاهم فيما بينهم وبين إخوانهم العرب الذين اختلطوا بهم واندمجوا جميعاً فى حياة واحدة مشتركة، وهكذا كانت اللغة العربية المكتوبة تمكنهم من تسجيل تراثهم وهكذا

(١١) توماس : سباق، ص ١٤٦.
(١٢) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٣٦.
(١٣) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٦.

كان إقبال البربر على اللغة العربية شديداً يدل على ذلك ما ترويه كتب الطبقات من رحيل الكثير من علماء المغرب فى القرن الثانى الهجرى؛ حيث نهاية بحثنا إلى بلاد المشرق العربى للاستزادة من مباحث العلم والتمكن من فهم منابع الإسلام وجذوره والتمكن من اللغة العربية بدراسة النحو والصرف والعروض والبلاغة وعلوم البيان وهكذا ظهرت فى خلال ذلك القرن فئة تكتب بالعربية وتؤلف بها.

وهكذا .. لم يكن ضعف المسيحية فى بلاد المغرب من الأسباب السريعة لانتشار الإسلام واللغة العربية الغراء، بل إن الانتشار السريع للإسلام فى بلاد المغرب كان من أسبابه طبيعة سكان البلاد الأصليين؛ حيث كان بربر البرانس ينزلون السهل الساحلى الذى يقع بين الجبال والبحر وهؤلاء كانوا أقل عدداً من بربر البتر سكان الداخل؛ حيث كانوا ينتشرون على طول الجبال الممتدة من الشرق إلى الغرب فى السفوح المزروعة والنواحى الحصينة المحيطة بجبال الأوراس وينتشرون فى طنجة. أما فى الجنوب حيث البربر البتر فقد كانوا يعيشون فى سلسلة من الوديان العالية والهضاب المرتفعة والبيئات الرعوية أو شبه الرعوية التى تمتد امتداداً متصلاً من طرابلس إلى المغرب الأقصى وكان سكان تلك المناطق من القبائل البدوية (١٤).

وعلى هذا .. فإن تلك القبائل الأخيرة قد رأت فى الفتح العربى الإسلامى منفذاً وملاذاً لها؛ حيث أن ذلك الفتح يقرر مصير المغرب ومن هنا نجد أنهم ألقوا بثقلهم فى حركة المد الإسلامى وأيدوها من أول مرة لاسيما بعد مقتل الكاهنة وانضمام أبنائها إلى قوات حسان بن النعمان، ومن هنا كانوا عدة العرب فى رحلتهم وطليعة جندهم وأعانوهم فى نضالهم ضد الرومان وأشهر من أيد العرب فى حركة الفتوح هذه القبائل البربرية البدوية البترية قبيلة لواتة ونفوسة وزناتكة ونغرواة، وهوارة (١٥) وذلك لأن هذه القبائل كانت تحصل على حقها المشروع فى العطاء فى كل غزو ولها نصيب مثل ما

(١٤) حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية، ص ١٥٧، ص ١٥٨.

يكون للعربى.

وبهذا بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل من البربر تدفعهم إليه عداوتهم للروم وحبهم للعرب ولم تعد تلك العبادات والتقاليد الوثنية منذ البداية لتصمد أمام تيار الدين الإسلامى الزاحف فى قوة إيمانية وصلابة قرآنية وتحدى رجاله لكل المخاطر والصعاب، ومن هنا ذاع الإسلام وذاعت معه اللغة العربية التى كان يتوقف انتشارها على كثافة الهجرة العربية وانتشار حركة تدريسها، ومقاومة اللغة البربرية التى ظلت بلهجاتها المتعددة لغة تخاطب بعض سكان المغرب (١٦) ويمكن القول بأن هذه اللغة تظهر بصور ضئية ابتداءً من واحة سيوة ثم تزداد انتشاراً كلما اتجهنا غرباً وجنوباً وذلك نتيجة طبيعية لوجود مناطق جبلية منعزلة، ولشدة تماسك القبيلة ولكن يضعف مقاومة هذه اللغة عدم وجود تراث عريق لها فنجد مثلاً فى ليبيا لايزيد عدد المتكلمين باللهجات البربرية عن ٢ ٪ من سكان البلاد كلها، وفى تونس يوجد قطر يمتاز بثقافته العربية، وليس فيه بقية من اللهجات البربرية إلا فى الأطراف الشمالية الغربية، أما فى الجزائر .. فإن نسبة المتحدثين باللهجات البربرية لا يزيد عن ٦ ٪ من سكان البلاد كلها وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة وفى المملكة المغربية نجد نسبة المتحدثين باللهجات البربرية يقرب من ١٥ ٪ من مجموع سكان البلاد وارتفاع نسبة المتحدثين بالبربرية فى مراكش يعود إلى وجود أقاليم جبلية حتى جبال أطلس التى تمثل مساحات واسعة منعزلة (١٧).

ولقد أدى إلى تلك النسبة الضئيلة من اللهجات البربرية الباقية فى بلاد المغرب، أن البربر اعتبروا منذ بداية دخولهم الإسلام أن اللغة العربية هى لغتهم الوحيدة المكتوبة، وهى لا تستخدم للشعائر الدينية فحسب بل للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضاً، ولذا .. لم تتردد الأسر البربرية التى حكمت المغرب أن تصطنع اللغة العربية لغة رسمية

(١٥) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٧.

(١٦) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.

(١٧) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٣٩، ص ٢٤٠.

لها وتشجع الشعراء والكتاب العرب، بل أن الكتاب العرب فى هذه الدول كانوا يتنافسون مع كتاب المشرق فى التفنين فى الكتابة الديوانية.

ولذا .. كان الدافع إلى الانتشار السريع للإسلام والعروبة على أرض المغرب وسرعة إقبال الناس عليهما إذ رأوا انهيار المقاومة البيزنطية بسرعة مذهلة، ودكت حصونهم أمام صلابة إيمان المسلمين وكذلك انبساط النفوذ الإسلامى العربى على كل البلاد فلم يشأ فريق من أهل المغرب أن يتخلف عن ركب الدخول فى الإسلام فبدأوا بدورهم بدخلون الإسلام أسوة بكل الذين سبقوهم إليه من هنا فقد وضح أمام البربر ما ينطوى عليه الإسلام من تعاليم سامية وقيم خالدة وأخوة ومساواة مع الفاتحين العرب وما يحققوه من هذا التكافل الاجتماعى والتعايش الاجتماعى ومن هنا كانت سرعة المد الإسلامى إلى كل أطراف المغرب، وكما أن الإسلام لم يعتبر العرب حكاماً والبربر محكومين إنما ساوى بينهم فى الحقوق والواجبات كما أن العرب اعتبروا أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة رغم طول فترة الفتح وما لاقاه العرب من صعوبات فى طريق الفتح وأقر البربر على ما بيدهم من أموال وأرض ومتاع (١٨) وكان من سياسة الدخول المكثف للبربر فى الإسلام أن الدولة الإسلامية لم تتصل فى بلاد المغرب بالذات سياسة استعلاء العرب والاعتزاز بعروبتهم وبأنهم حملة الإسلام على أهالى البلاد. كذلك ساوت فى تولية المناصب بين العرب والبربر ومن هنا كانت سياسة المساواة بُعداً له مآثره العظيمة فى انتشار الإسلام على نطاق واسع بين البربر بل بسرعة مذهلة أذهلت كل الذين تابعوا تطور الإسلام بهذه الصورة الواضحة المعالم على أرض المغرب وكانت هذه السياسة هى التى جرت عليها الدولة طوال فترة القرنين الأول والثانى الهجرى.

كذلك .. فإنه مما ساعد على هذه المساواة هو وحدة النظام الاجتماعى بين

---

(١٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٥٩.

يكون للعربي.

وبهذا بدأ الإسلام ينتشر بين القبائل من البربر تدفعهم إليه عداوتهم للروم وحبهم للعرب ولم تعد تلك العبادات والتقاليد الوثنية منذ البداية لتصمد أمام تيار الدين الإسلامي الزاحف في قوة إيمانية وصلابة قرآنية وتحدى رجاله لكل المخاطر والصعاب، ومن هنا ذاع الإسلام وذاعت معه اللغة العربية التي كان يتوقف انتشارها على كثافة الهجرة العربية وانتشار حركة تدريسها، ومقاومة اللغة البربرية التي ظلت بلهجاتها المتعددة لغة تخاطب بعض سكان المغرب [١٦] ويمكن القول بأن هذه اللغة تظهر بصور ضئيلة ابتداءً من واحة سيوة ثم تزداد انتشاراً كلما اتجهنا غرباً وجنوباً وذلك نتيجة طبيعية لوجود مناطق جبلية منعزلة، ولشدة تماسك القبيلة ولكن يضعف مقاومة هذه اللغة عدم وجود تراث عريق لها فنجد مثلاً في ليبيا لايزيد عدد المتكلمين باللهجات البربرية عن ٢ ٪ من سكان البلاد كلها، وفي تونس يوجد قطر يمتاز بثقافته العربية، وليس فيه بقية من اللهجات البربرية إلا في الأطراف الشمالية الغربية، أما في الجزائر .. فإن نسبة المتحدثين باللهجات البربرية لا يزيد عن ٦ ٪ من سكان البلاد كلها وأكثرهم في الجهات الجبلية المنعزلة وفي المملكة المغربية نجد نسبة المتحدثين باللهجات البربرية يقرب من ١٥ ٪ من مجموع سكان البلاد وارتفاع نسبة المتحدثين بالبربرية في مراكش يعود إلى وجود أقاليم جبلية حتى جبال أطلس التي تمثل مساحات واسعة منعزلة [١٧].

ولقد أدى إلى تلك النسبة الضذيلة من اللهجات البربرية الباقية في بلاد المغرب، أن البربر اعتبروا منذ بداية دخولهم الإسلام أن اللغة العربية هي لغتهم الوحيدة المكتوبة، وهي لا تستخدم للشعائر الدينية فحسب بل للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضاً، ولذا .. لم تتردد الأسر البربرية التي حكمت المغرب أن تصطنع اللغة العربية لغة رسمية

---

(١٥) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٧.

(١٦) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.

(١٧) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية، ص ٢٣٩، ص ٢٤٠.

لها وتشجع الشعراء والكتاب العرب، بل أن الكتاب العرب فى هذه الدول كانوا يتنافسون مع كتاب المشرق فى التفنين فى الكتابة الديوانية.

ولذا .. كان الدافع إلى الانتشار السريع للإسلام والعروبة على أرض المغرب وسرعة إقبال الناس عليهما إذ رأوا انهيار المقاومة البيزنطية بسرعة مذهلة، ودكت حصونهم أمام صلابة إيمان المسلمين وكذلك انبساط النفوذ الإسلامى العربى على كل البلاد فلم يشأ فريق من أهل المغرب أن يتخلف عن ركب الدخول فى الإسلام فبدأوا بدورهم بدخلون الإسلام أسوة بكل الذين سبقوهم إليه من هنا فقد وضح أمام البربر ما ينطوى عليه الإسلام من تعاليم سامية وقيم خالدة وأخوة ومساواة مع الفاتحين العرب وما يحققوه من هذا التكافل الاجتماعى والتعايش الاجتماعى ومن هنا كانت سرعة المد الإسلامى إلى كل أطراف المغرب، وكما أن الإسلام لم يعتبر العرب حكاماً والبربر محكومين إنما ساوى بينهم فى الحقوق والواجبات كما أن العرب اعتبروا أرض المغرب مفتوحة صلحاً لا عنوة رغم طول فترة الفتح وما لاقاه العرب من صعوبات فى طريق الفتح وأقر البربر على ما بيدهم من أموال وأرض ومتاع (١٨) وكان من سياسة الدخول المكثف للبربر فى الإسلام أن الدولة الإسلامية لم تتصل فى بلاد المغرب بالذات سياسة استعلاء العرب والاعتزاز بعروبتهم وبأنهم حملة الإسلام على أهالى البلاد. كذلك ساوت فى تولية المناصب بين العرب والبربر ومن هنا كانت سياسة المساواة بُعداً له مآثره العظيمة فى انتشار الإسلام على نطاق واسع بين البربر بل بسرعة مذهلة أذهلت كل الذين تابعوا تطور الإسلام بهذه الصورة الواضحة المعالم على أرض المغرب وكانت هذه السياسة هى التى جرت عليها الدولة طوال فترة القرنين الأول والثانى الهجرى.

كذلك .. فإنه مما ساعد على هذه المساواة هو وحدة النظام الاجتماعى بين

(١٨) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٥٩.

العربى والبربرى فقد وجدت القوات العربية فى بلاد المغرب قبائل بدوية تعيش فى صحراء ووهاد لاتكاد تختلف كثيراً عن صحراء العرب ووهادهم بل إن البربر يعيشون معيشة قبلية كعيشتهم يزاولون كثيراً من الرعى وقليلاً من الزراعة، كما كان يفعل العرب فى بلادهم، ولقد كان ذلك التقارب الاجتماعى بل التشابه فى أطر الحياة المختلفة من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى قيام وحدة اندماجية بين القادمين وأهل البلاد الأصليين (١٩).

وهكذا .. أدرك البربر أن اندماجهم وتحالفهم مع العرب لايفقدهم أدنى شىء من شخصيتهم وممتلكاتهم مما كان له أثر نفسى بعيد فى دفع البربر نحو الإسلام؛ حيث أن قادة الفتح العرب ميزوا أبناء البربر على سائر أهل المغرب فاعتبروا غير البربر ممن سكن تلك الديار سواء كان من الروم أو غيرهم لا يتساوى مع البربر، وهكذا .. وجد البربر الذين كانوا مستعبدين للروم بالأمس أنفسهم أرفع شأنًا فى مساواتهم، وهكذا اختفى العنصر الرومى والإغريقى وغيرهم من البلاد شيئًا فشيئا حتى انعدمت آثارهم من البلاد تقريباً وأدت تلك السياسة إلى أن يهضم الشعب المغربى حضارة الإسلام وأخذ يتدرج فى الأخذ بها حتى غدا شعباً عربياً إسلامياً خالصاً تقياً كل التقاء من كل أثر الماضى التى كان الحكم البيزنطى قد تركها على الساحل وعلى هذا كان انتشار الإسلام يسير جنباً مع جنب مع انتشار اللغة العربية مما ساعد على الأخذ بأساليب الحضارة الإسلامية (٢٠).

كذلك كانت حركة فتح المغرب لها آثار بعيدة المدى فى نشر الإسلام بين البربر فقد كان ذلك الانتصار السريع الحاسم الذى أحرزه العرب على سكان شبه جزيرة أيبريا وقواتها حافزاً لمن تخلف من البربر المسلمين إلى عبور البحر والمضيق

(١٩) الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، ص ١٨٤.
(٢٠) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٥٧٨.

للاشتراك فى الحرب والمساهمة فى حركة الجهاد الإسلامى والقتال من أجل رفع لواء الإسلام وذلك حتى يتاح لهم الإلتحاق بمن سيقوم فى ذلك المضمار، وهكذا .. كان فتح الأندلس معجلاً بإسلام البربر فقد حاربوا مع إخوانهم العرب جنباً إلى جنب واختلطوا بها وعاشروهم وعايشوهم وأفادوا منهم عمقًا فى العقيدة، وفهماً للغة العربية وهضماً للثقافة العربية الإسلامية (٢١).

كذلك ساعدت حركة الهجرة العربية الواسعة طوال القرنين الهجريين بدءا من عام ٢٣هـ/٦٤٣م؛ حيث بدأت القبائل العربية تزحف فى المنطقة الواقعة ما بين برقة شرقًا وطرابلس غربًا ثم امتدت حركة الهجرة فيما بعد ٩٥هـ إلى كل أنحاء المغرب شمالاً وجنوبًا ووسطًا وغربًا لكى تسكن تلك الأقاليم الواسعة المفتوحة، والتى تتناسب مع حياة العرب والذين وجدوا تآلفًا ومحبة من إخوانهم البربر (عرب ما قبل الفتح)، وقد أخذت حركة الهجرة العربية التى كانت أهم عامل بل هى العامل الأساسى فى صبغ المغرب بالصبغة العربية الإسلامية أبعاداً مختلفة فى مسار حركة الهجرة منذ أن اختار المولى عز وجل رسوله ﷺ إلى جواره وصعود روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى فقد بادر بعض الأنصار بالهجرة من الجزيرة العربية مباشرةً بعد فشلهم فس سفيفة بين ساعده ثم ما تلى من أمور فى عهد الخلفاء الراشدين، ثم بعد ذلك فى الفتنة الكبرى بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ثم بعد ثورة عبد الله بن الزبير وغيرها من الأمور التى تعاقبت بعد سقوط الدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م، ولعل أوضح الأمثلة على حركة الهجرة الجماعية تلك الهجرة التى قامت بها قبيلة كليب والتى كانت قد تورطت فى التضامن مع بنى أمية، وما كاد العباسيون تظهر دولتهم حتى قام زعماؤها يبايعون الخوارج وينصرونهم فى جنوبى تونس وطرابلس حتى ظهرت الدولة الرستمية الأباضية الخارجية ١٦٤هـ/٧٨١م (٢٢)؛ حيث ظهرت تلك الدولة فى مدينة تاهرت

(٢١) حسين مؤنس : فجر الأندلس، ص ٣٨.

بالمغرب الأوسط.

وقد عمل الخلفاء والولاة على تشجيع هذه الهجرات العربية فإذا كانت هذه القبائل تؤيد وتساند وتعاضد الخلافة، ومع قبائل أحلافها فإن الخلفاء يقومون بإسكانها الثغور لكى تكون تلك القبائل عدة لهم على مراقبة الأعداء كما بعث الخلافاء العباسيون ومن قبلهم الأمويون بالجيوش العربية التى كانت تصحبها حركة واسعة للقبائل للقضاء على الثورات التى كانت تقوم فى أنحاء المغرب، كما حدث فى عهد أبو جعفر المنصور؛ حيث بعث واليه على مصر «محمد بن الأشعث» لكى يقاتل الخوارج بقيادة «الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى» (٢٣).

وهكذا نرى أنه لم ينفرد بالاهتمام ببلاد المغرب لنشر لواء الإسلام والعروبة بين أرجاءه الواسعة حكام تلك الأقاليم المغربية، بل اهتم بهذا القطر الخلفاء أنفسهم سواء أكانوا خلفاء أمويين بدءاً من «معاوية بن أبى سفيان»، نهاية «محمد بن مروان» وكذلك الخلفاء العباسيين بدءاً بالخليفة أبو جعفر المنصور، وغيرهم من الخلفاء، حيث أن اهتمام الخلفاء كان ينصب أساساً على أن يكون دفعاً لحركة المد الإسلامى إلى الإمام خصوصاً الخليفة الأموى (أو الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ٩٩-١٠١هـ) الذى كان يريد أن يزيد الإسلام انتشاراً فى بلاد المغرب وأن يثبته ويعممه فى قلوب البربر، لذا .. نراه يختار «إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر» لكى يرسله عام ١٠٠هـ إلى بلاد البربر ليدعو من بقى منهم إلى دين الإسلام ولم يكن إسماعيل وحده بل صحبه عشرة من أكبر رجال الدين الإسلامى فى ذلك العصر إلى المغرب (٢٤).

---

(٢٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، جـ٢، ص ٤٦٥.
(٢٣) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٤١.
(٢٤) أحمد شلبى : مرجع سابق، ص ٧٣.

وكان ذلك دافعًا لكى يدفع البربر ويقبلون أفواجًا على الدين الإسلامى الحنيف ولم يكن إسماعيل هذا عاملاً للخليفة عمر بن عبد العزيز على بلاد المغرب، بل كان من أكبر رجال الدعوة الإسلامية فى ذلك الوقت حيث دعا إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن والحجة القوية الأدلة الدامغة والإقناع والدعوة السلمية وكان نهجه أنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء ومن هنا .. فإن المؤرخين يجمعون على أن الفضل كل الفضل فى انتشار الإسلام وتعميق المفاهيم الإسلامية، فى نفوس البربر يعود إلى ما قام به إسماعيل بن عبد الله ابن أبى المهاجر بن دينار حيث قام بإتمام ما بدأه أسلافه (٢٥).

ومن ثم زيادة فى ازدياد حركة المد الإسلامى فإننا نجد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم يعمل من جانب الدول الإسلامية على أن تكون وظيفة الولاه الهداية وليست الجباية.

ومن هنا أخذ يزاول نشاطه فى إرسال المزيد من التابعين الذين انتشروا بين البربر وأخذوا يعلمون الناس أصول الدين الإسلامى والقواعد الشرعية وأحكام الفقه وغيره من المسائل التى تساعد على تعميق المفاهيم الدينية وكذلك التبصير بقواعده وأصوله ولقد أقام كثيرون من هؤلاء التابعين بمدينة القيروان وانتشر غيرهم فى الكثير من المدن المغربية وأقاموا المساجد وجعلوا هذه المساجد قلاعًا للعلم والمعرفة وتدريس العلوم الإسلامية ومن هنا باتت المساجد مقصد كل بربرى يريد الاستزادة فى فهم العلوم اسلاميًا جنسًا ودينًا ولغة وتراثًا.

وهكذا .. أخذ عن هؤلاء التابعين الذين أرسلوا من مصر أولاً وبلاد الشام ثانيًا يزداد عددهم ويكثر قدومهم إلى بلاد المغرب، فإذا تعلم فريق من أهل البلاد الأصليين وقضوا بعض الوقت فى الدراسة فى القيروان فإنهم كانوا يعودون إلى أقاليمهم وبلادهم لمتابعة تأدية الرسالة فيتولون وظائف الإمامة والقضاء ويعملون بدورهم على نشر الإسلام

---

(٢٥) الدباغ : معالم الإيمان، جـ١ ، ص ١٥٤.

وثقافته العربية الإسلامية (٢٦) وعلى هذا فإنه يمكن القول بمنتهى الصراحة والوضوح أنه لم ينقضى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى إلا والمغرب العربى يعيش فى ظلال القرآن وتحت راية الإسلام وهكذا عد المغرب قطراً عربياً إسلامياً جنساً وديناً ولغة وتراثاً.

ونقول حقيقة أن الإسلام كان ينتشر فى بلاد المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين وخاصة عندما شاهد البربر عقبة بن نافع الفهرى وهو ينشئ مدينة القيروان فتأثروا بشخصيته الدينية المجاهدة بل والمتصوفة ربما كان يظهره من البذل والتفانى والجهاد فى سبيل الإسلام فدخلت منذ ذلك التاريخ ٥٥هـ الإسلام وأسلم العديد على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام ولقد كان إسلام قبائل البرانس فى تلك الفترة التاريخية المتقدمة وهم البربر الذين كانت المسيحية يؤمن بها بعض الأفراد منهم لاسيما نطاق الساحل وهكذا كان إسلام قبيلة «أوربة» البرانسية يعتبر حدثاً تاريخياً هاماً فى تاريخ إسلام المغرب حيث كانت هذه أول مرة فى تاريخ المغرب تدخل فيه قبيلة برانسية كبيرة فى الإسلام (٢٧).

هذه عوامل هامة من عوامل انتشار الإسلام فى أرض المغرب، وهكذا .. نرى كيف صبغت تلك العوامل وجه المغرب بالصبغة العربية الإسلامية، إضافة إلى أن حركة القبائل العربية المستمرة كانت تؤدى دورها فى إكساب ذلك الوجه الملامح الحقيقية للصبغة الإسلامية العربية لاسيما عندما كانت تهاجر إلى تلك الأقاليم قبيلة أو قبائل عربية قوية أو جيش عربى؛ حيث أنه لم يكن أفراد هذه الجيوش من ذوى العصبية والقوة والشكيمة؛ حيث نجد أن القوات كانت تسكن بعض أحياء المدن الإسلامية التى ذهبوا إليها لإقرار الأمن بها أو القضاء على أدنى تمرد حدث بها، ومن هنا تقرب إليهم سكان المغرب العربى واختلطوا بهم وصاهروهم وتزوجوا من رجالهم لبناتهم كى يكونوا فى حمايتهم وذمتهم (٢٨) . بل ليكونوا أسرة واحدة وشعباً واحد ليس للحماية وليس لأنهم اميون ولكن لأنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام.

(٢٧) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٨.
(٢٨) إبراهيم بيضون : مرجع سابق، ص ٢٥.

وهكذا شهد القرن الأول والثانى الهجرى تطوراً مماثلاً فى انتشار الإسلام؛ حيث صحب ذلك انتشار واسع للغة العربية ويخيل لنا من جراء الواقع العربى الإسلامى المعاصر أن اللغة العربية كانت أوسع انتشاراً فى بلاد المغرب دون أن بلد من بلاد المشرق الإسلامى، ذلك لأن اللغات الإغريقية (اليونانية) واللاتينية لم تكن واسعة الانتشار فى بلاد المغرب، بل إنها لم تكن تتعدى المناطق الساحلية، بل لعلها فيما يبدو كانت لغة السكان الذين يقطنون السواحل وغالبيتهم كانت من الروم أو اليونان وكذلك لغة الاستعمال الحكومى ولم تكن لغة التعامل اليومى. وأما غالبية البربر فقد كانوا أبعد من أن يتأثروا بهذه اللغة العربية الوافدة التى لم يتقبلها البربر، فقد بقيت تلك القبائل بعيدة عن التأثر بالحضارة الرومانية، ولم تكن لغة البربر غير المكتوبة تقوى على مغالبة اللغة العربية، وكما أقبل البربر على الإسلام أقبلوا على اللغة العربية ووجودا فيها أداة طبيعية تمكنهم من التفاهم معهم وفيما بينهم فقد تعددت لهجات البربر المحلية وتنوعت اشتقاقاتها ومخارجها وكانت اللغة العربية لغة مكتوبة يستطيع البربر من خلال الأخذ بها ودراستها وتعلمها أن يسجلوا عن طريقها تراثهم القومى والإسلامى وتاريخهم حيث كانت اللغة الوحيدة المكتوبة المنتشرة بينهم (٢٩).

لذا .. فإن البربر منذ دخولهم الإسلام واعتناقهم له واتخاذه عقيدة لهم يؤمنون برسالته أشد الإيمان، فإنهم اعتبروا أيضاً اللغة العربية لغتهم الوحيدة المكتوبة واعتزوا بها اعتزازهم بالإسلام لأنها لغة القرآن الكريم، بل أن حرصهم على اتخاذ العربية كلغة لهم كان حرصهم فى المحافظة على شرفهم (حركة التعريب فى الجزائر بعد الاستقلال) وعودة الوجه العربى الصافى إلى تلك الديار بعد عام ١٩٦٤م، بل إنها أصبحت لا تستخدم فى الشعائر الدينية فحسب بل أصبحت تستخدم للتعبير عن الثقافة الوطنية أيضاً، كذلك من العوامل التى ساعدت على نشر اللغة العربية كلمة حديث هجرات «بنى هلال وبنى سليم» الشهيرة فى تاريخ المغرب ومع التسليم بأن هذه

---

(29) Pellegerin. A., Histiore de la Tunise. P. 87.

الهجرات أضرت (كما يقول كتاب الغرب) بالمغرب العربى من حيث العمران فإنها لعبت دوراً كبيراً فى حركة التعريب فى المغرب (٣٠).

ومن ذلك كيف أرسل الفاطميون تلك القبائل العربية أيام حكم الخليفة الفاطمى المنتصر بالله لكى ينتقموا من بنى باديس الذين انفصلوا بسلطانهم عن الفاطميين بعد أن كانوا يعترفون بسلطانهم عليهم، وإذا كان بنو هلال وبنو سليم قد عاثوا فى المغرب خراباً وفسادا إلا أن الأمر انتهى بهم إلى سكنى بلاد المغرب لاسيما إفريقية (تونس) والمغرب الأوسط وتقرب إليهم الأهالى وصاهروهم على نحو ما صاهروا غيرهم من قبائل العرب (٣١).

(انظر الجزء الرابع من هذه الموسوعة به باب كبير عن بنى هلال وأثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى والسلالى فى بلاد المغرب بأقسامه المختلفة).

وهكذا .. كان إقبال البربر على اللغة العربية إقبالاً لم يحدث له نظير فى كل البلاد العربية المفتوحة ويدل على ذلك ما ترويه كتب التراث العربى للطبقات عن رحيل العديد من أبناء المغرب إلى الفسطاط وغيرها من المدن المصرية الإسلامية التى كانت تعتبر مركز من مراكز العلم والمعرفة الإسلامية وذلك طلباً للعلم واستزادة منه وتعميق دراسة تلك اللغة كما أنهم رحلوا إلى بلاد المشرق الإسلامى الأخرى لنفس الغرض (٣٢) وعلى هذا فقد كانت حقبة القرنين الأول والثانى الهجريين حقبة النمو الفكرى والثقافى وبداية الازدهار الحضارى الإسلامى الذى ساد بلاد المغرب فى العصور الأخرى بدءاً من القرن الخامس أو الرابع الهجرى حيث كانت الجهود الأولى التى بذلت فى تثبيت دعائم اللغة العربية قد باتت تؤتى ثمارها المرجوة وبات المغرب العربى شهد ظهور العديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين والدعاة ورجال اللغة

---

(٣٠) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.

(٣١) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٤١.

(٣٢) حورية عبده سلام : العلاقات بين مصر والمغرب، رسالة دكتوراه، غير منشورة، جامعة القاهرة، ص ٢٣.

العربية الذين أصبحوا يصارعون إخوانهم فى بلاد المشرق العربى، بل إن المغرب العربى أفرز العديد من العلماء ورجال الدين الذين ساهموا فى إثراء الحركة العربية الإسلامية العلمية بمختلف فروعها (٣٣).

وإنه بدراسة ما ورد من تراجم فى كتب طبقات فقهاء المغرب نجد أنه ظهرت خلال النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فئات من المغاربة تؤلف وتكتب باللغة العربية، بل إننا نجد الرواية تتسلسل إلى الرعيل الأول من أهل البلاد الأصليين الذين يرعوا فى ثقافتهم فى المغرب وفهموها حق الفهم، وفى نفس الوقت الذى انتشر فيه الرسلام واللغة العربية كانت الثقافة العربية الأصلية التى بدأت تنتشر من مدرسة القيروان وغيرها من مدن أفريقية المختلفة وحدة سياسية شاملة فى ظل الخلفاء الراشدين وفى ظل حكم بنى أمية الذى استمر منذ بداية الفتح المغربى عام ٢٣هـ/٦٤٣م إلى نهاية عهد الدولة الأموية فى ١٣٢هـ/٧٥٠م.

كذلك كان من عوامل تلك الصبغة العربية الإسلامية على أرض المغرب فى القرنين الأولين الهجريين أن ساعدت على عوامل الاندماج بين العرب والبربر، ظهور حركة المرابطين أو المتطوعة من غير المحاربين والذين كانوا يقصدون الثغور للإقامة بها تطوعاً من أنفسهم للدفاع عن ديار الإسلام حيث كان يرى هؤلاء الأشخاص أن التطوع أو المرابطة فى الثغور هى زكاة عن النفس وعن قوة إيمان هؤلاء الأشخاص وقوة أبدانهم، كذلك فإنه كان هناك الكثير من أثرياء الدولة الأموية من لايتطوع بنفسه ولكن يدفع عن ماله الشيء الكثير مما يساعد على أن يقوم بنفقات فريق من هؤلاء المتطوعين سواء كان ذلك بالمال أو السلاح أو الطعام والثياب فقد ذكرت المصادر التاريخية والإسلامية أن أبناء الخليفة عمر بن عبد العزيز كانوا يدفعون كل عام ما يقوم بنفقات مائة فارس متطوعة لكى يغزوا بها المتطوعة الذين يرابطون فى الثغور سواء الثغور البرية أو البحرية، رداً على حركة المردة التى كان يرسلها البيزنطيين إلى الحدود

(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٢٦٥.

الإسلامية، وكانت بلاد المغرب العربى أكثر تعرضاً لغزوات وخطر البيزنطيين وأكثر حرباً وأقلها للدولة الإسلامية، ولذا .. فإننا نجد أن تلك الأقطار كانت من أولى البلاد الإسلامية التى يكثر قصدها من المتطوعة الذين عاشوا فى ثغورها ومدنها المختلفة، لاسيما مدن الساحل الممتدة من حدود مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى، وذلك للدفاع عنها ضد غزوات المغيرين البيزنطيين فى تلك الفترة التاريخية التى ندرسها (القرنين الأوليين الهجريين) ولقد كان هؤلاء المتطوعة وافناؤهم أنفسهم فى الدفاع عن دين الله والجهاد فى سبيله عامل قوة فى انتشار الإسلام، كما أن انتصارهم كان سبباً فى تقرب أهل البلاد منهم ومصاهرتهم إياهم لاسيما وأن جميع هؤلاء المتطوعين كانوا من الرجال ومن احتاج إلى المصاهرة والتزوج من البربر والاختلاط بهم (٣٤).

كذلك كان وصول العديد من الدعاة العرب الذين بعثت بهم الفرق الإسلامية المختلفة كالخوارج والشيعة الذين كانوا يدعون لمذاهب دينية وسياسية تختلف عن الخط السياسى للخلافة فقد وصل إلى بلاد المغرب كثير من دعاة الخوارج (٣٥) وظهر أثر دعوتهم سريعاً بعد انضمام البربر إليهم كما اتجه إليه دعاة المعتزلة وكانوا يعرفون فيما وراء إقليم تاهرت بالواصلة أى أصحاب واصل بن عطاء وكانوا يجتمعون فى مكان يعرف باسم الواصلية أو مجمع الواصلية، ولم يقصد شمال أفريقيا أيضاً هؤلاء الدعاة فقط بل قصدها أيضاً كثيراً من العلماء ومن تلقاء أنفسهم يقصدون تثقيف الناس فى أمور دينهم ودنياهم بل عمل كثير من الولاه على استقدام العلماء وأغدقوا عليهم الهبات كى يعملوا على نشر الإسلام بين طوائف البربر المختلفة.

فقد استقدم عقبة بن نافع وقبله عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى سرج ومعاوية بن خديج العديد من العلماء والفقهاء لأداء هذا الدور التعليمى والتثقيفى لأبناء البربر، كما استقدم أبى المهاجر بن دينار وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى

(٣٤) محمد على دبوز : مرجع سابق، جـ١ ، ص ٣٠٨.
(٣٥) الشهرستانى : الملك والنحل ، ص ٤١٠.

بن نصير من ولاة المغرب وكذلك شهد عهد عمر بن عبد العزيز توسعاً فى إرسال الدعاة ويذكر ابن خلدون [٣٦]. أن موسى بن نصير أرسل هؤلاء العلماء إلى المصامدة الذين كانوا يسكنون المغرب الأقصى لأجل نشر الإسلام وثقافته بينهم.

ولقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا الاندماج بين العرب والبربر أن انتشرت اللغة العربية بين السكان من جميع أبناء البربر وكذلك انتشر الإسلام بين الوثنيين وكذلك بين من كانوا قد اعتنقوا المسيحية من البربر ولقد كان انتشار اللغة العربية أمراً طبيعياً منذ بداية الغزو العربى الإسلامى ٢٣هـ/٦٤٣م إذ كانت حركة المد الإسلامى والانتشار الإسلامى السريع دليلا على انتاشر اللغة العربية؛ حيث أنه كان طبيعياً أن يتعلمها الأهالى طالما هم فى احتياج إلى التعامل مع العرب ومعرفة أصول دينهم الإسلامى وهكذا كان اعتناق الإسلام بل أن مجرد الاختلاط فى الحياة العامة أولاً ثم فى أخوة السلاح بين العرب والبربر والدفاع عن البلاد ثانياً. كل ذلك قد كان من الأسباب القوية لدفع السكان البربر إلى تعلم اللغة العربية حديثاً وكتابة وتعاملاً وهكذا.. فإن اللغة العربية قد وسلت إلى كل قطاعات الشعب المغربى وصارت لغة أهل البادية بعد أن كانت قاصرة على سكان الأمصار، ورغم وجود نسبة قليلة لا زالت تتكلم اللغة البربرية فى مجتمعات معزولة كما سبق القول سابقاً لاتزيد ٢ ٪ فى ليبيا ٦ ٪ فى الجزائر، ١٥ ٪ فى المغرب إلا أنه ليس معنى ذلك أنهم يجهلون اللغة العربية ولكنهم يحتفظون باللغة البربرية، إلى وقت الحاجة فقط [٣٧] حين يضطرون إلى استخدام اللغة البربرية، كما يوجد بعض من يتحدثون اللغة النوبية فى بلاد النوبة فى مصر وليس معنى ذلك إلا انتشار اللغة العربية ١٠٠ ٪ بين جميع أبناء الشعب المغربى.

ويلاحظ أنه رغم اتفاق جميع الفرق الخارجية على معاداة الدولة الأموية .. فإنها لم توحد صفوفها ضد العدو المشترك، بل إنها كانت تتعرض إلى انقسامات داخلية

---

(٣٦) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٦ ، ص ٩٨.
(٣٧) زاهر رياض : مرجع سابق، ص ٤٣.

كما حدث بالنسبة للأزارقة والنجدات مما سبب ضعفهم والقضاء عليهم فنقل الخوارج نشاطهم إلى بلاد المغرب حيث نشروا مذهبهم بين الحانقين على السيادة العربية ولقد كان الخوارج باعتبارهم حزباً معادياً أشد وطأة وأكثر خطورة على الدولة من حزب الشيعة فقد استمرت ثوراتهم دون انقطاع فى مختلف أنحاء الدولة حتى فتت فى عضدها بما كانت تستنزفه من دماء وأموال من ناحية ونقلها من دعوة سرية ينظمها البيت العباسى للإطاحة بحكم الأمويين من ناحية أخرى [٣٨].

ولقد كان من عوامل هجرة رجال الفرق الإسلامية المختلفة أن انتشر منذ وقت مبكر مذهب الخوارج باعتبارها إحدث الفرق الإسلامية لذلك .. فإن حديثنا سوف يكون عند الخوارج فقط لأنهم ظهروا فى تلك الحقبة التاريخية التى ندرسها وهى منتصف القرن الثانى الهجرى؛ حيث كان الخوارج قد أصبحوا قوة فعالة فى عصر الدولة الأموية وكان الخوارج هؤلاء قد انهزموا فى قلب الدولة وقتل منهم الألوف على أيدى رجال من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى وغيرهم من قواد بنى أمية مما اضطرهم إلى الهجرة إلى الجهات البعيدة التى لا تدركهم فيه يد الدولة وسلطة رجالها فكان المغرب العربى من الأقطار التى وصلت إليها دعوة الخوارج أو المذهب الخارجى، والتى منها فرقة نافع بن الأزرق وفرقة عبد الله بن أباض؛ حيث كانت هاتان الفرقتان من أهم معالم انتشار المذهب الخارجى فى بلاد المغرب وإن كانت الطريقة الأزرقية قد لعبت دوراً فى أحداث المغرب (أفريقية) واستطاعت أن تسيطر فى بعض الفترات التاريخية على القيروان عاصمة أفريقية إلا أن ذلك لم يدم طويلاً إذ نجد الأباضية يهزمونهم ويخرجونهم من عاصمة البلاد، ولقد كانت الأباضية أكثر المذاهب الخارجية التى لاقت قبولاً لدى بعض الجماعات من بربر المغرب؛ حيث كان ذلك المذهب الوحيد الذى قدر له أن يعيش حتى أيامنا هذه فى بلاد المغرب وغيرها من بلاد العالم العربى والإسلامى حيث أن الأباضية قريبون من فهم الشريعة الإسلامية [٣٩].

(٣٨) محمد أمين صالح : العرب والإسلام، ص ٣٦١.
(٣٩) أحمد شلبى : مرجع سابق، جـ٢، ص ٢٦٢.

وقد لعب الخوارج دوراً فى تاريخ المغرب بقيام وظهور دولة لهم فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى (١٦٤هـ/٧٨١م؛ حيث قامت دولة من أكبر دول المغرب هى دولة عبد الرحمن بن رستم أو دولة الرستمية فى المغرب الأوسط، إضافة إلى أننا نجد فرقة أخرى من فرق الخوارج والتى مارست دورها فى المغرب إضافة إلى فرقة الأزارقة، والأباضية هى فرقة الخوارج الصفرية؛ حيث انتشرت تلك الفرقة فى قبيلة كبيرة من البربر تسمى ورفجومة؛ حيث كان يتزعمها (عاصم بن جميل) وهو زعيم الخوارج الصفرية واقتحم القيروان وأقام حكماً صفرياً فى ذلك البلد، بل إنه مما يؤكد احتقاره لمذهب السنة أنه دخل ورجاله بخيولهم إلى المسجد الجامع الكبير فى القيروان وربطوا خيلهم فيه، وهكذا .. نجد فى بعض الفترات التاريخية أن أفريقية (تونس) قد انتهى إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية، بل أنه ليس هذا فقط بل أن الخوارج الأباضية أيضاً لعبوا دورهم قبل أن يفروا إلى المغرب الأوسط حتى يؤسسوا دولتهم إذ نجد أنهم عندما شاهدوا حالة الفوضى وعدم استقرار الأمن التى سادت القيروان فإنهم بعد أن كانوا قد سيطروا على جبل نفوسة وطرابلس فإنهم يحشدون جموعهم ليطردوا منها الخوارج الصفرية، وذلك بزعامة أحد رجالهم الخطاب بن عبد العلى بن السمح المعافرى والذى كان فى الأصل من قبيلة معافرة فى غرب اليمن ومن ثم انتقلت أفريقية مرة أخرى من أيدى الخوارج الصفرية إلى الخوارج الأباضية.

ولقد كانت كل هذه الحوادث قد أفرغت الدولة العباسية وهى فى مهدها فقام الخليفة العباس الأول أبو جعفر المنصور بإرسال واليه محمد بن الأشعث والى مصر بالتقدم غرباً إلى القيروان لإخراج الخوارج من المدينة، ومن ثم عادت أفريقية إلى مذهب السنة والجماعة، وتم قتل زعيم الخوارج [٤٠] وعودة أفريقية إلى المذهب السنى وهذا كان من أكبر العوامل التى ساعدت على انتشار المذهب المالكى فى كل بلاد

(٤٠) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٩.

المغرب العربى حيث أضحى هو المذهب السائد.

ومن هنا .. فإن أهم تطور حضارى رسلامى ثقافى شهدته بلاد المغرب فى تلك الفترة التاريخية التى نؤرخ لها هو انتشار مذهب الإمام مالك أو المذهب السنى المالكى من مدرسة القيروان وانتشاره فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى كله بما فيه بلاد الأندلس بل عبور الصحراء الكبرى إلى بلاد غرب أفريقيا وكل منطقة السفانا حيث السودان الأوسط والشرقى والغربى حيث لايزال إلى اليوم هو المذهب الغالب على مسلمى تلك الأصقاع بل أنه هو العامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية، بل إن ظهور مذهب الإمام مالك فى بلاد المغرب لم يكن وليد عصر الأغالبة، إنما ذلك المذهب قد انتشر على نطاق واسع قبل قيام دولة الاغالبة بفترة طويلة (١٨٤هـ/٨٠٠م) غير أننا لانستطيع أن ننكر أن عصرهم شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب سرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها (٤١).

وقد أضحى المذهب المالكى هو حصن السنة والجماعة فى بلاد المغرب حيث أن المذهب المالكى هو أحد المذاهب الأربعة الرئيسية فى الفقه الإسلامى وهو أولها ظهوراً فقد تولى مالك بن أنس، نشر هذا المذهب وأمام دار الهجرة ومذهبه قد أخذ به وذاعت تعاليمه قبل انتقال مالك بن أنس إلى جوار ربه عام ١٧٠هـ/٧٨٦م والأصول عند مالك فى ذلك المذهب هى القرآن الكريم والحديث الشريف والقياس وعمل أهل المدينة، وخلاصة ذلك المذهب أنه إذا عرضت له قضية حكم القرآن الكريم إذ وجد فيها معنا صريحاً، فإذا لم يجد نصاً صريحاً فى القرآن الكريم استعان بالحديث الشريف، فإذا لم يجد حديثاً نبوياً يفيده فى هذه القضية قاس الأمور على نظائرها فاستعان فى ذلك بما جرى عليه العمل عند أهل المدينة مما أقره رسول الله ﷺ ولهذا يسمى المذهب المالكى بمذهب الرأى وهو عندهم رأى الإمام مالك ويمتاز المذهب

(٤١) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٢٦٨.

بالوضوح والحسم والمنطقية فهو لايترك الإنسان محيراً بين آراء شتى(٤٢).

ويمتاز المذهب المالكى بنصه نصاً واضحاً على أهمية اجتماع الكلمة ووحدة المسلمين والمحافظة بصورة عامة على روح الأمة الإسلامية ولهذا السبب لقى هذا المذهب قبولاً واسعاً عند عامة الأمة الإسلامية وارتفع شأن الإمام مالك وأصبح نموذجاً لرجل الإيمان والعلم فى تاريخ الإسلام خاصة وإن كان رجلاً عزوفاً عن المناصب صارفاً جهده كله للعلم.

ولهذا .. فإننا نجد أن دخول المالكية إلى المغرب لايعتبر مجرد دخول مذهب فقهى وإنما هو دخول أسلوب حضارى فقد ارتفع مالك بن أنس بالعلم إلى مستوى اجتماعى بل سياسى جعل العلم رمزاً من رموز القوة والسلطان وقد وفد مذهب مالك بن أنس إلى القيروان من مصر كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى من البلاد الإسلامية إلى المغرب ورحل كثير من المغاربة إلى مصر والحجاز طلباً للمزيد من أجل دراسة الفقه المالكى ومعرفة أصوله والأخذ به فى تحكيم أمور الدين فى مشاكلهم (٤٣).

وهكذا .. أقام العديد من العلماء المغاربة الذين رحلوا إلى مصر وتفقهوا على يد علمائها ونقلوا عنهم قراءة القرآن الكريم على رواية نافع التى انتشرت فى بلاد المغرب ومال كثير من فقهاء المغرب إلى الأخذ بمذهب مالك فى تلك الفترة الأولى من انتشار ذلك المذهب الذى ازدهر فى مصر ولقى قبولاً من فقهاء المغاربة الذين رحلوا إلى مدرسة الفسطاط وذلك لاعتماد مذهب مالك أساساً على نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف دون تأويل أو لجوء رلى الرأى وقد كان له دور فعال فى تلك المنطقة. ووجد المذهب المالكى أنصاراً عديدين فى تلك الأقصاع من بلاد المغرب. ومن هنا كان المسلمون ببلاد المغرب شديدى التمسك بسنة رسول الله ﷺ معرضين عن

(٤٢) الدباغ : معالم الإيمان، جـ٢، ص ٥٤.
(٤٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٩.

اتباع المذاهب الأخرى التى تعتمد على الرأى والتأويل وبذلك صار هو المذهب السائد فى بلاد المغرب (٤٤).

وقد يكون لأبناء المغرب الذين رحلوا إلى مصر ومدرسة الفسطاط دور محدود حيث أن المذهب المالكى لم يكن قد أخذ بعداً جديداً فى الانتشار فى تلك الديار ومن هنا كان دورهم محدود رغم أنهم بذلوا الجهود وعادوا إلى بلادهم متأثرين بما رأوا وسمعوا فى مصر عن ذلك المذهب، إلا أن الأمر قد تطور إلى مرحلة الانتصار لمذهب مالك على كل المذاهب والفرق الأخرى فى كل هذه البقاع الواسعة وذلك عندما جاء أسد بن الفرات العالم المشهور فى تاريخ أفريقية ورحل إلى مصر وسمع من عالمها الأكبر على بن القاسم إمام المالكية فى مصر، فتأثر به ودون خلاصة مشاهداته وتجاربه فى كتاب مشهور فى تاريخ الفقه الإسلامى فى المغرب اسمه (الأسدية) حاول فيه أن يوفق بين تقاليد مالك وأى صبغة فازداد معرفة بفقه مالك عن ذى قبل (٤٥).

وهكذا .. نرى أن المذهب المالكى الذى كان انتشاره بهذه الصورة الواسعة قد أصبح عاملاً هاماً فى تعميق المفاهيم الإسلامية وانتشار الإسلام بصورة أكثر فعالية بين الأقوام الذين لم تكن قد أدركتهم رسالة الخلود، ولذا .. فإن ما سمعه أبناء المغرب من علمائهم العائدين من مراكز العلم فى مصر وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى كالحجاز حيث المدينة المنورة أو ما سمعوه من دروس أسد بن الفرات قد دفعهم إلى معرفة المزيد عن هذا المذهب وحببهم إلى التمسك بسنة رسول الله ﷺ وحبهم الشديد له وكذلك إعجابهم بمالك بن أنس إمام دار الهجرة الذى اتخذ من مقام الرسول ﷺ مقراً لتعاليمه الفقهية فبدأوا يقبلون على هذا المذهب إقبالاً أكثر من ذى قبل ويطلبون العلم والمزيد.

---

(٤٤) حورية عبده سلام : مرجع سابق، ص ٢٨٦.
(٤٥) المالكى : رياض النفوس، ص ١٨١.

وهكذا .. وصل مذهب مالك بن أنس بلاد المغرب على يد نفر من تلاميذه الذين تفقهوا بعلمه واتبعوا طريقته وأسلوبه فى التدريس وفى الحياة، وكانت حالة المغرب تتطلب مذهباً كمذهب مالك؛ حيث أن مالك بن أنس قد ضرب المثل فى خصاله وأسلوبه فى الحياة والعمل وبذلك بلغ مكانة اجتماعية كبرى بل قوة سياسية فاجتهد الفاتحون من شباب أهل العلم فى محاكاته بالسير فى طريقه والتأسى به فى أعمالهم ودراساتهم وتصرفاتهم وبلغ الكثيرون منه تلك المراكز العلمية والمناصب الخطيرة فى جميع أقطار المغرب وأصبح رجال العلم أى الشيوخ هم رؤساء الناس فى كل جماعة إسلامية وأخذ شيوخها بمذهب مالك وهذه الظاهرة الحضارية والسياسية مرجعها إلى العمل الجليل الذى قام به مالك بن أنس ومن بعده تلاميذه ومن هنا وجد ذلك المذهب أرضاً خصبة فى المغرب رغم انتشار المذاهب والفرق الأخرى كالمعتزلة والخوارج والفاطميين والشيعة واستطاع أن تكون له الغلبة على كل ما عداه من الملك والنحل فاجتمع المغاربة على مذهب مالك طريقاً ومنهجاً وتشريعاً لأنه كان يجمع الناس على رأى واحد فى القضية الواحدة دون أن يفرق أذهان الناس بين دخول قضايا الفقه، كما كان الخوارج يفعلون، ومن ناحية أخرى فإن مالك بن أنس عرف كيف يعامل الخلفاء (٤٦).

وقد كان عصر مالك بن أنس حافلاً بالشيوخ وطلبة العلم الذين يقرأون العلم فى المساجد ومنهم نفر من أصل مؤسس الفقه الإسلامى ولكن مالكا كان أستاذاً بمعنى الكلمة ونظم دروسه وفق خطة وضعها بنفسه واتخذ من داره مجلساً للتدريس وأقام لتلاميذه عريفاً ومقرئاً، مكلفين بتنظيم الدروس ومراجعتها مع الطلاب وكان مالك بن أنس إذا أنس من تلميذ استعداداً حسناً، خصه يدرس له وحده كما فعل مع المغربى «القيروانى» البهلول بن راشد، وقد فتن تلاميذه به وجعلهم يسيرون على أسلوبه فى

(٤٦) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٥٣.

الحياة والعمل، كما كانوا يدرسون علمه.

وقد أدخل مذهب مالك إلى بلاد المغرب نفر من أجلاء الشيوخ أمثال عبد الله بن فروخ الفارسى وعبد الله بن غانم، البهلول بن راشد، أسد بن الفرات، وكانوا جميعاً من كبار العلماء حقاً، وقد اكتسبوا الكثير من خصائل مالك وتمكنوا من مذهبه وهكذا تمكنوا بفضل إصلاحهم وعلمهم وزهدهم من أن يجعلوا المذهب المالكى هو المذهب السائد والمعترف به رسمياً فى أفريقية ثم بقية بلاد المغرب العربى بعد ذلك وعلى أيديهم بدأت المالكية فى المغرب طريقها الطويل، لأنها لم تكن مجرد مذهب فقهى، بل كانت عنصراً حضارياً له أثره فى كل نواحى الحياة فى المغرب الإسلامى، ويكفى أن نشير هنا إلى أن فقهاء المالكية أصبحوا رؤساء الناس وقادتهم، بل إن الرغبة فى معرفة كل شىء عن الإمام مالك والرغبة فى الاستزادة من علمه الغزيز دفعت فقيه المغرب الشهير (سحنون بن سعيد) لكى يرحل إلى مصر لكى يستمع كما استمع ابن الفرات سابقاً على إمام المالكية فى مصر الشيخ (على بن القاسم) حيث أقام فى الفسطاط زمناً طويلاً حتى انتهل من منهل مالك العذب وتشرب ذلك المذهب وملك عليه كل أحاسيسه ومن ثم عاد إلى بلده وجمع خلاصة دراساته وقراءاته فى المالكية فى أول كتاب ظهر بعد موطأ مالك والذى أسماه «سحنون» المدونة [٤٧].

ويرجع إلى «سحنون بن سعيد» هذا وتحمسه الغريب للمذهب المالكى الفضل كل الفضل فى دخول الناس فيه جماعات وابتعادهم عن الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى.

وهكذا .. صحب انتصار المالكية فى أرض المغرب تفهماً جديداً للمفاهيم الإسلامية الصحيحة وبعداً عن كل ما يشوب الإسلام وانتشاره فى الواحات والصحراء والجبا، كذلك صحب انتصار المالكية توطن الثقافة العربية الإسلامية فى مختلف

(٤٧) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٩.

نواحى المجالات الواسعة، إذ بانتشار ذلك المذهب انتشرت أيضاً اللغة العربية وتغلغلت الثقافة العربية فى نفوس سكان المغرب بأقطاره وأقاليمه وولاياته المتعددة وظهر جيل من مثقفى أبناء المغرب يطبعون الثقافة العربية بطابع المغرب الملتزم والمدافع عن ذلك المذهب (٤٨)، لاسيما بعد الصراع العنيف الذى دار بين المالكية والخوارج والمالكية والشيعة الفاطميين إلا أن ذلك الانتصار للمذهب المالكى كان فى حد ذاته سبباً من أسباب دخول الكثيرين من البربر فى الإسلام، بل أدى إلى ظهور جيل من المثقفين البربر وبعض الفقهاء والدعاة الذين يطبعون الثقافة الإسلامية بطابعهم البربرى ولم يلبث الفاطميون أن رحلوا من البلاد وأصبح المذهب المالكى هو السائد بعد رحيل هؤلاء وأنه كان لابد من انتعاش إسلامى جديد ظهر فى مدارس القيروان وصحبه انتعاش للمذهب المالكى (٤٩).

وفى عصر الدولة العباسية كان مذهب أبى حنيفة هو المذهب الرسمى للدولة وأنه وفد إلى بلاد المغرب فى رحاب آل المهلبى وولاة الدولة العباسية وجندها الخرسانى، غير أنه لم يلقى إقبالاً من جانب المغاربة المتشبعين بحب رسول الله والمخلصين لفقه عالم دار الهجرة، وكان سبب كراهيتهم لمذهب أبى حنيفة قلة اعتماده على الحديث واعتماده على الرأى والاجتهاد متأثراً بالمدارس الفارسية فى التفكير الحر (٥٠).

وهكذا .. عرف فقهاء المالكية كيف يحافظون على أمة الإسلام فى بلاد المغرب ملتفة حول مذهب السنة والجماعة، وقد رأينا كيف أن «حنظلة بن صفوان الكلبى» الذى أرسله الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك عام (١٢٤-١٢٧هـ/٧٤٢-٧٤٥م) قد تمكن من إنقاذ أفريقية من سيطرة الخوارج والذين كانوا بين خوارج أباضية وصفرية وكيف احتفظ بأفريقية للسنة والجماعة، وجعلها أرضاً تعتصم بالسنة

(٤٨) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٩.
(٤٩) أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شربط : عصر القيروان، ص ٢٨.
(٥٠) المالكى : مصدر سابق، ص ١٦٥.

والجماعة وقد كان هذا فى حقيقة الأمر إنقاذ للإسلام فى المغرب ودعماً فيما بعد لانتشار المذهب المالكى.

وهكذا .. أصبحت المغرب (أفريقية) بفضل أولئك الفقهاء والدعاة، وما بذلوه من جهود مركزاً للعلم الإسلامى ودراسة لفقه مالك لاتقل عن أى مركز إسلامى فى بلاد المشرق العربى كالفسطاط والمدينة ومكة المكرمة والكوفة والبصرة وهى حقيقة هامة من حقائق التاريخ الحضارى فى المغرب (٥١).

ولقد كان من أسباب انتشار المذهب المالكى ذلك الدور الذى لعبه فقيه المغرب «سحنون بن سعيد» الذى بدأ بدوره أن هذا المذهب يتغلب على مذهب أبى حنيفة النعمان، حتى انتصر نهائياً فى بلاد المغرب على كل ما عداه من مذاهب، حتى انتصر مذهب مالك منذ عهد سحنون بن سعيد نهائياً وبدأ المالكية يتغلبون على الحياة الثقافية المغربية كلها وبفضل مذهب مالك وشدة كراهيته أهل أفريقية للخوارج والشيعة والمعتزلة ومذهب أبى حنيفة، اشتد سلطان الفقهاء المالكية والمغاربة فى الحياة الدينية والثقافية حتى أنهم أفتوا (فتوى) بتكفير الخوارج والشيعة والمعتزلة وأصحاب مذهب الحنفية بحيث وصل بهم الحد إلى القول بأنه لايصلى عليهم ولا تشهد جنائزهم ولايصلى خلفهم ولا يروى لهم حديث (٥٢).

ومن ثم .. فقد عمل فقهاء المالكية على مقاطعة أصحاب المذاهب الأخرى والملل والنحل غير المالكية مقاطعة سلبية وإيجابية وأصبح من تقاليد المالكية الابتعاد عن مصاحبة الأمراء وعدم تولى القضاء والبعد عن المناصب والإفتاء والسير على تقاليد واضع المذهب نفسه مالك بن أنس، وهكذا .. كان علماء المالكية حريصين على

---

(٥١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٧٦.
(٥٢) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٨٧.

الاهتمام بجوانب العلم الغزير واحترام النفس والتواضع عن الصغار وعدم الاهتمام بالوظائف والثبات أمام الحكام وكان مالك يقول أنه بذلك يرفع شأن العلم ولا عجب والحالة هذه أن يطلق عليه الناس (أمير المؤمنين فى الحديث) ولا غرابة فى أن نجد الكثيرين من تلاميذه يحرصون على أن يكون كل منهم مالك بن أنس فى بلده، رجلاً غزيراً فى العلم، منصرفاً إلى الدرس. مترفعاً عن الوظائف عظيم الاحترام لنفسه (٥٣).

وهكذا تمكنت تقاليد المالكية فى نفوس المغاربة وفى مدارس القيروان وأفريقية ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد، فلما انتشرت فى مدارس المغرب محنة خلق القرآن وآراء المعتزلة كان المالكيون أصحاب مالك أشد الناس حرباً لهم وأكثرهم عنفاً فى مقاومتهم وأكثر تمسكا بالكتاب والسنة حتى هزموا المعتزلة كما هزموا الخوارج من قبل وانتهى وجودهم فى القيروان ولم يبقى لهم بالقيروان رأى ولا اتباع ولم يجد الأمراء مفراً من النزول على رأى المالكية والأخذ بكل ما جاء فى الكتاب والسنة (٥٤).

وفى هذا العصر تمكنت تقاليد المالكية حتى أننا نجد ما رواه القاضى عياض، أن المذهب المالكى أسلم المذاهب كلها فقد درسوا ما كان فى الجهمية والرافضة والخوارج والشيعة إلا مذهب الإمام مالك رحمه الله فما سمعت أحداً ممن تقلد مذهبه قال شيئا من هذه البدع ومن هنا انتصر المذهب المالكى انتصاراً عظيماً فى القرن الثانى الهجرى لاسيما فى عصر الأغالبة حيث الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى وقد كانت تصرفات المالكية وأخذهم بالبأس والشدة أمراً محبباً إلى المغاربة الذين عرفوا فى تاريخهم الطويل بالنزعة الاستقلالية وميلهم إلى الخروج على كل سلطان أجنبى يفرض عليهم فوجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محبباً يرتاحون إليه (٥٥).

وهكذا .. أصبح هؤلاء الفقهاء المالكيون فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون

(٥٣) حسين مؤنس : مرجع سباق، ص ٧٥.
(٥٤) الدباغ : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٢.
(٥٥) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٠.

عن مصالح الرعية ويقفون فى وجه الحاكم من أجل الحق ونصر الضعفاء بل إنهم كانوا يعارضون الحكام فى كثير من الأمور التى تتعارض مع الكتاب السنة ومع الفقه المالكى بل أنهم كانوا يستشهدون فى سبيل العقيد، ومن هنا كان انتشار المذهب المالكى بداية حقيقية لظهور دور رجال الدين والفقهاء والزعامة الدينية بحيث يمكن القول أنه منذ أن أرسل الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز بن مروان عام ١٠٠هـ للوالى العالم المجاهد «إسماعيل بن عبيد بن أبى المهاجر دينار».. فإن الزعامة السياسيةوالحربية بدأت تختفى وحلت محلها زعامة أخرى هى الزعامة الدينية والشعبية؛ حيث ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان وبذلك أمعن المغاربة فى تمسكهم بالمذهب المالكى وأحبوه وأخلصوا له ودافعوا عنه دفاعهم عن عقيدتهم لأنه جزء من عقيدتهم الإسلامية، بل أنهم حاربوا أصحاب المذاهب الأخرى دون أدنى رحمة أو شفقة، وليس معنى هذا أن نقول أن مدارس أفريقية فقد أصبح فيها المذهب المالكى هو كل شىء فى المغرب وأنه لاتوجد مذاهب أخرى تدرس أو تلقى، لكن المغرب قد شهد ألوان ثقافة عربية إسلامية أخرى فكانت جميع أنواع العلوم الإسلامية تلقى فى مدارس القيروان، وقد رأينا الآراء الجديدة ذات الطابع الحرفى التفكير والدراسة تتسرب للمغرب كمسألة خلق القرآن التى قال بها المعتزلة وآراء الخوارج، لكن كل هذه الآراء والمذاهب لم تكن تدانى المذهب المالكى ولم يكن لها قوة التأثير فى نفوس المغاربة وإن كان ذلك لاينفى أنه يوجد بعض متقنيها لكن أعدادهم كانت تعد على أصابع اليد الواحدة وصارت الغلبة للمذهب المالكى؛ بحيث يمكن القول أن المذهب المالكى قد أصبح حصن المغاربة الذين يتحصنون خلفه بل هو القومية العربية الإسلامية وعلى هذا فقد غلبت النزعة المالكية الدينية على المغاربة بوجه خاص فجعلتهم لايعرفون عن الدراسة الإسلامية إلا هذه الناحية يقبلون عليها ويدافعون عنها، وهكذا ظل حال الثقافة العربية الإسلامية بوجه عام فى أرض المغرب.

وقد يكون الحديث عن مكانة المذهب المالكى فى نفوس المغاربة يستدعى الخروج عن دائرة البحث المحددة بالمغرب العربى فى قرن أى ١٢٢هـ/١٢٢هـ والقفز إلى فترة تاريخية خارج نطاق تلك الفترة الزمنية وذلك لأن الحديث عن المذهب المالكى يستدعى استمرار تأصله فى نفوس المغاربة وتمسكهم به والمحافظة على الأخذ به يستدعى الدخول فى القرن الثالث والرابع الهجرى. عندما أقام الفاطميون دولتهم فى أفريقية ووجد الفاطميون فى بيئة أفريقية ثقافة إسلامية موطدة وثقافة دينية مالكية ثابتة الجذور ورأوا شعب المغرب كله صفاً واحداً متكتلاً خلف قادته الدينيين، بل يقف بالمرصاد لكل من يحاول النيل من فقهاء المالكية لأنهم المصابيح التى يهتدون بها فى مسائل الفقه والشريعة والدين ويأتمرون بأمرهم فرأوا أنه لا نجاح لدولتهم ولا بقاء لها إلا بمحاولة التغلب على هذه الوطنية المغربية المالكية (٥٦).

ومن هنا فقد بذل الفاطميون جل جهدهم وعقدوا المناظرات ومجالس العلم وبثوا دعاتهم فى كل أرجاء المغرب ينشرون مذهبهم ويبشرون به بين الأقوام ومن هنا كان الدور يأتى على القيروان مركز المذهب المالكى فى أفريقيا واستدعوا أئمة المالكية وعقدوا المجالس وأخذوا يجادلونهم ويناقشونهم بالحجة والاقناع فلم تفلح طريقتهم فى إقناع زعماء المالكية (٥٧) ورجال الحركة الدينية فى القيروان.

بل أن الفاطميين عملوا من جانبهم على أغداق الأموال والجاه إلا أن ذلك لم يجد طريقه إلى قلوب زعماء المالكية وفقهائها، فلم ينفع المال أو الجاه فانقلب رجال الفاطميين إلى طغاة مستبدين يستعينون بالعنف والشدة فى فرض آرائهم حتى أن الأمر قد وصل بهم عندما فشلوا فى استمالة هؤلاء الفقهاء إلى أنهم ضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا السنة البعض وضربوا الرقاب وصلبوا الفقهاء أحياء وصادروا الأموال وتفننوا فى أبشع وسائل التعذيب استخداماً ويذكر الدباغ فى كتابه معالم الإيمان فى معرفة أهل

---

(٥٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧١.

(٥٧) ابن عذارى : مصدر سابق، جـ١ ، ص ٥٩٤.

القيروان (٥٨) أن رجال الفاطميين استخدموا كثيراً من ألوان التعذيب بحيث أنهم كانوا يبطحون الفقهاء والعلماء والدعاة المالكيين بل أنهم كانوا يفعلون ذلك مع عامة الناس يبطحونهم على ظهورهم ثم يأمرون السودان (العبيد) السود الذين كان يتم شراءهم من بلاد السودان بأن يدوسوهم بالأقدام.

وهكذا لم تجد تلك الوسائل العنيفة والبشعة طريقاً إلى قلوب المغاربة؛ حيث استطاع المذهب المالكى بما يملك من أسس واضحة وهى الكتاب والسنة أن يقف فى وجه الفاطميين ووقف المغاربة كرجل واحد واعتبروا المذهب الشيعى الفاطمى ورجاله زنادقة ونادوا بقتلهم وأحلوا دمهم أينما وجدوا. وأعلنوا عليهم جميع أنواع المقاطعة ومن ذلك .. فإنه يباح دمهم نظراً لما فعلوه بفقهاء ورجال وزعماء المذهب المالكى ولايصلى فى مساجدهم ولا تدفع لهم الأموال ولا يتعاون معهم (٥٩).

وهكذا انتشرت المقاومة للفاطميين ورجالهم ودعاتهم فى كل أنحاء المغرب العربى بأقاليمه المختلفة وولاياته وذلك بفضل الدور الذى لعبه الفقهاء المالكيون وما تعرضوا له من صنوف العذاب وقدرتهم فى الصمود والتصدى للمذهب الشيعى الفاطمى، ومن هنا ظهرت الثورات فى أنحاء عديدة من أرجاء المغرب العربى واشتدت الفتن فى وجه الفاطميين، بل إن عدم نجاحهم واحفاقهم فى فتح المغرب الأقصى وإقرار السكينة فى البلاد كان من أسبابه القوية انتشار المالكية فى تلك الأرجاء وكان الصراع مذهبياً وليس نزاعاً عسكرياً أو طلباً للسيطرة ومن هنا وقف المذهب المالكى فى المغرب الأقصى فى وجه الزحف الفاطمى القادم من المهدية، وهكذا كان ذلك الإخفاق فى نشر التشيع لآل البيت ومحاربة المذهب المالكى سبباً فى تفكيرهم فى فتح ميدان جديد بالاتجاه شرقاً صوب مصر بعد أن استحالت الفرصة فى فرض مذهبهم فى بلاد تتخذ من المذهب المالكى عقيدة لها. وقد تضافرت جميع القوى المتحكمة فى مصير المغرب فالأمويون فى الأندلس والأدارسة الزناتيون فى المغرب الأقصى بظاهرهم

(٥٨) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٨٢.
(٥٩) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، جـ٢، ص ١٣٨.

المالكية فى كل مكان فكان رحيل الفاطميين إلى مصر انتصاراً للمالكية ورجالها وللدور الذى لعبه قادة المالكية ولسياسة المقاطعة لهم (٦٠).

وبذلك يعد رحيل الفاطميين شرقاً إلى مصر وتركهم ميدان المغرب انتصاراً للمذهب المالكى حيث فشلت فيه طرقهم فى نشر المذهب الشيعى .. فإن الميدان بعد ذلك قد أصبح خالياً لرجال المالكية فلم يعد هناك محل للتشيع لآل البيت وأخذ بالمذهب الشيعى وكذلك لا مجال لمذهب الخلافة العباسية التى كانت لا تزال قائمة فى بغداد حيث لم يجد مذهب الحنفية قبولاً لديهم وكما رفضوا وحاربوا الخوارج والمعتزلة، وما شابه ذلك من الفرق الإسلامية الأخرى غير المالكية وقد كان معنى ذلك اشتداد الصبغة المالكية فى الثقافة العربية الإسلامية المنتشرة فى المغرب كله.

ومن كل هذا إذا كانت مصر قد استقبلت الفاطميين فى أرضها، فإنها منذ انتشار الإسلام فى أراضيها والفتح العربى نجد أنها قامت بنصيبها فى نشر الإسلام فى المغرب فقد وفد مذهب مالك من مصر إلى القيروان كما وفدت المذاهب الإسلامية الأخرى ورحبت مصر بكل من قصدها ويقصدها من أهل المغرب لطلب العلم فى مدارس الفسطاط فكانت مصر تمثل فى نظر المغاربة كما ذكر ابن خلدون. تلك الأقوال فقال سألت قاضى القضاه بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرى عند مقدمه من الحج فقلت له كيف هذه القاهرة فقال من لم يرها لم يعرف عن الإسلام فشددت الرحال إليها وما أن وصلها حتى قال عنها رأيت حضرة الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم ومدرج الذر فى البشر وإيمان الإسلام وكرسى الملك تلوح القصور والدوواوين فى جوه وتزهو الخوانق والمدارس بإفاضة وتضىء البدور والكواكب من علمائه (٦١).

---

(٦٠) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٣.
(٦١) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٧، ص ٥٨.

وهكذا .. كانت الفسطاط فى القرنين الهجريين الأولين تؤدى رسالتها على أتم أداء وتلعب دورها فى بلاد المغرب نشراً للإسلام وتعليماً للمغاربة وتدريساً للمذهب المالكى فى مدارسها، وعقدلدروس الفقه فى المذهب المالكى وكان عالمها الأكبر وزعيم المالكية فى مصر على بن القاسم هو الذى رحل إليه «أسد بن الفرات» و«سحنون بن سعيد» اللذان قام على أيديهما المذهب المالكى فى المغرب وهكذا كانت بصمات مصر واضحة وقوية وجلية فى كل بقعة من بقاع المغرب تؤدى دورها وتتم رسالتها لأبناء العروبة والإسلام (٦٢).

بل أكثر من ذلك .. فإن المغرب العربى لم يعزز فى المالكية أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد بل هناك من الفقهاء ورجال المالكية «عيسى بن مكين» و«يحيى بن سلام» و«أبو عثمان سعيد بن الحداد» (٦٣) وغيرهم الكثيرون من رجال العلم والفقه والتقوى والورع الذين ذاع صيتهم فى بلاد المغرب وبلغوا مستوى فكريا وعلميا ودينيا إسلاميا لايقل عن سواهم فى بلاد المشرق العربى.

وهؤلاء الشيوخ كانوا فى نفس الوقت رؤساء القوم والمتحدثين بأسمهم أمام الحكام وهنا تبرز شخصية سحنون، واسمه «أبو سعيد بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى»، وقد كان رجلاً لبقاً ذكياً أقام المذهب المالكى فى بلاد جميع المغرب على كاهله وبفضل دوره، وهو رجل ينسب إلى بيت عريق وتصدر للإفتاء والتدريس فى جامع القيروان وبلغ مكانة عالية وأصبح ذا حظوة لدى الحكام فقد كانت تستجاب عندهم كل طلباته لأنه عرف كيف يسوس الحكام وقد تعرض للأذى على يد زيادة الله الأول الأغلبى الذى اشتدت مسألة خلق القرآن الكريم فى عهده وأصدرت الخلافة العباسية أوامرها بامتحان القضاة والفقهاء الكبار وكان سحنون ومعظم كبار فقهاء المغرب المالكية لايقولون بخلق القرآن ومن حسن الحظ أن المحنة (محنة خلق

(٦٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص ١٦٨.
(٦٣) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ١٨٥.

القرآن) وقفت قبل أن ينال سحنون العذاب وألقت الدولة العباسية فى بغداد مسألة القول بخلق القرآن الكريم أيام المعتصم وتصدى أهل السنة المتمسكون بالمذهب المالكى للانتقام من المعتزلة وقد تولى سحنون الذى ولى القضاء بعد المحنة الانتقام من «عبد الله ابن أبى الجود» القاضى السابق الذى امتحن القضاه فى مسألة خلق القرآن الكريم وأذى بعضهم فجلده سحنون والى سحنون ينسب أحسن تدوين عرف للسماع عن مالك بن أنس وهو المعروف «بالمدونة» وهو كتاب فقه على مذهب الإمام مالك بن أنس يعرض مسائل الفقه الرئيسية من العبادات والمعاملات عرضاً بليغاً وموجزاً فى نفس الوقت وتعتبر المدونة من أشمل كتب الفقه الإسلامى وانتشر تدريسها فى كل أنحاء المغرب(٦٤).

وقد اكتمل انتصار المذهب المالكى ليس فقط بتولى سحنون بن سعيد أمر القضاة والانتقام من المعتزلة وغيرهم من المذاهب الأخرى بل حدث ذلك فى القرن الخامس الهجرى وبالتحديد عام ٤٤٣هـ أربعمائة وثلاثة وأربعين هجرية عندما أعلن أمراء أفريقية من بنى باديس (٦٥) الذين كانوا خاضعين إسمياً للحكم الفاطمى فى عهد الخليفة الفاطمى المقيم فى القاهرة المنتصر بالله، العصيان على الفاطميين وقاموا بقطع الخطبة لهم فى البلاد واختفى نفوذ الشيعة نهائياً، بل قتل من بقى منهم بالقيروان أو المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وهكذا أضحى المغرب بلداً خالصاً للسنة والجماعة والمذهب المالكى.

وهكذا .. طبعت ثقافة المغرب العربية الإسلامية بذات الطابع المغربى واختفت معه المدارس التى كانت تدرس غير المذهب المالكى وبذلك توطدت دعائم وأركان الثقافة العربية الإسلامية ذات الطابع المغربى وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً وأخذت بعداً آخر إذ ظهر الخط المغربى المتميز عن الخط العربى المشرقى ولقد ساعد

---

(٦٤) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٩٩.

(٦٥) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٦، ص ١٥٩.

على ذلك النصر اختفاء كل مظهر من مظاهر الوجود العربى الذى اختلط وذاب فى البلاد وأضحى العرب والبربر جميعًا جنسًا ولغة ودينًا عقيدة عربا مسلمين وقامت فى المغرب العربى بأقطاره المختلفة وولاياته المتعددة أسر وطنية خالصة مثل الزبيريين فى تونس والحماديين فى الجزائر، ثم المرابطين فى المغرب وهكذا أصبحت الكلمة الأولى فى كل أقاليم المغرب لأهل البلاد الأصليين.

وكان ذلك فى واقع الأمر يمثل بداية الثقافة العربية المغربية الإسلامية فى أحلى صورها وهى ذات طابع خاص متميز عن الطابع الشرقى فى الخط العربى. طابع مغربى خالص، وفى الفن الإسلامى طابع خاص وفى الثقافة طابع المالكية المحافظ الملتزم وفى الناحية الفكرية نزعة سلفية دينية (٦٦)، وهكذا أدى الإسلام والعروبة دورهما فى هذا المضمار بظهور ذلك الطابع المغربى الخالص الذى استمد مقوماته من عقيدة الإسلام منهجًا ومنهاجًا ومن اللغة العربية لغة وتراث وفكرًا وحياة ومصيرا ومستقبلا.

ولقد كانت الظروف فى بلاد المغرب منذ النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى قد تهيأت كل التهيؤ لظهور دويلات عربية أو بربرية فى المغرب تستند كل منها إلى قبيلة من قبائل البربر الكبرى أو بيت من بيوت العرب العريقة (عقبة بن نافع الفهرى) وكذلك كان بعضها يعتمد على بيت عربى أصيل كدولة الأدارسة فى المغرب الأقصى(٦٧) وبعضها الآخر يعتمد على أسر بربرية كالدولة الرستمية المعروفة حاليًا فتوزع المغرب الأقصى إلى أكثر من دولة وفى بعض الأحيان اشتملت الدولة الواحدة على جزء من تونس والجزائر كدولة الأغالبة فى القرن الثانى الهجرى ولكن يلاحظ بصفة عامة أن الدول الكبيرة التى ظهرت فى المغرب العربى كانت ترتكز أحيانًا على حاضرة كبرى كمدينة فاس فى المغرب الأقصى وأحيانًا على القيروان فى تونس إلى أن تفوق المغرب الأقصى فى عهد دولتى المرابطين والموحدين.

(٦٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٣.
(٦٧) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٧.

وقد ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المغرب ازدهار يكاد يصلها مع ازدهار الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المشرق وقد كان ذلك الازدهار يستمد وجوده من عدة عناصر هامة منها ذل الاستقرار السياسى والاقتصادى الذى شهدته البلاد فى فتراتها التاريخية لاسيما بعد القضاء على ثورة كسيلة والكاهنة وثورة الخوارج حيث أنه بعد أن كان يتم القضاء على أية ثورة فإن حالة من الاستقرار كانت تسود البلاد وتأخذ طابعاً من الثقة العلمية والثقافية والاقتصادية ثم أن تلك الفترة كانت تشهد نوعاً من الرخاء والترف والثراء حيث كان الأمراء والولاه يغدقون الأموال ويكثرون من الهبات والعطايا على أهل العلم والأدب مما كان يدفعهم للمضى فى طريق البحث العلمى ومواصلة العطاء الفكرى والمضى على تشجيعهم للمضى فى الطريق المرسوم.
ولقد أدت الغزوة الهلالية إلى عدة أمور فى توقف حركة النهضة العلمية الإسلامية، لكن على جانب آخر ساعدت غزوة بنى هلال وبنى سليم فى ظهور اللسان العربى بصورة قوية واتجاه تلك القبائل للاختلاط بالبربر مما ساعد على الانتشار السريع للإسلام وحركة التعريب، لكن الدباغ فى كتابة معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان[٦٨] يذكر أن الغزوة الهلالية أدت إلى حالة من عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى وتفرق شمل البلاد ونكبت أفريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الأثر فى تاريخها كله. فقد أصبحت مدن أفريقيا خراباً تلتهمها النيران وتحصد أهلها بسيوف الغزاة وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة [٦٩] ولم يكن أمامهم إلا المغرب الأقصى فى ذلك الوقت، فقد استقرت الثورة السياسية وبدأت طلائع المرابطين فى صحراء المغرب تتأهب للحركة الإصلاحية الكبرى فى تاريخ البلاد. لكن كما ذكرنا فإن نظرة بعيدة إلى المستقبل نجد أن الغزوة الهلالية وبنى سليم قد أدت إلى صبغ تونس بالصبغة العربية الكاملة فإذا وجد هناك حالياً من يتحدث لغة البربر أو لهجتهم فى ليبيا ٢٪ والجزائر ٦٪ والمغرب ١٥٪ فإنه

(٦٨) الدباغ : مصدر سابق، جـ٣، ص ٢٥٢.
(٦٩) ابن خلدون : مصدر سابق، جـ٦، ص ١٥٩.

لاتوجد أدنى نسبة في تونس من لهجات البربر. بل إن العربية ١٠٠٪ فى تونس وقد كان ذلك العطاء الفكرى واللغوى بسبب تلك الغزوة التى حاول كتاب المغرب كالدباغ وابن خلدون تشبهاً بغارة مدمرة وقد سار فى فلكهم وتمادوا فى تلك الأقوال كتاب المغرب (٧٠) أمثال مارسيه لكن كان لتلك الغزوة جانب إيجابى وجانب سلبى، لكن الجانب الإيجابى ظهر أثره فيما بعد بثبات اللسان العربى، وقد تكون هجرة العديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين والدعوة الإسلامية قد تركوا تونس وتحركوا غرباً إلى المغرب الأقصى؛ حيث وجدوا فى رحاب المرابطين والموحدين فيما بعد، تلك الراحة النفسية التى ساعدت على تفوق مدرسة فاس على مدرسة القيروان.

وبذلك رجحت كفة المغرب الأقصى حيث أصبحت فاس الملاذ الأخير للحركة العلمية والفكرية والثافية فى بلاد المغرب، ومن هنا فإننا نرى أن الإسلام والعروبة قد أتت ثمارهما المرجوة فى بلاد المغرب فى تلك الفترة القصيرة من عمر الدعوة الإسلامية ٢٢هـ/١٢٢هـ حيث أن فتح المغرب وعدم استقرار الأمور السياسية ومعاودة الفتح واستقرار ذلك، فترة طويلة كان من المعوقات التى وقفت فى طريق الانتشار السريع وربما كان ذلك مما ساعد ذلك على سهولة فتح الأندلس وغيره الكثير من أراضى أوربا الغربية والجنوبية، وهكذا ترتب على هذه الحقيقة الهامة أن طبعت الثقافة العربية فى بلاد المغرب منذ ذلك العصر بالطابع الدينى الصرف النابع من طبيعة العهد واستجابة لحركة الجهاد الإسلامى، وهكذا بينما كانت القوات العربية الإسلامية تعبر المضيق لغزو الأندلس كان العلماء والفقهاء فى داخل البلاد يقومون بغزو أنحاء المغرب غزواً دينياً ويفتحون قلوب البشر للإسلام والإيمان.

ولا يستطيع مؤرخ محايد ومنصف للحقيقة التاريخية إلا أن يعتبر الغزوة الهلالية بعداً جديداً انتشار الإسلام والعروبة على أرض المغرب؛ حيث لقى الإسلام والعروبة دفعة جديدة حين قدمت قبائل الهلالية وبنى سليم لسكنى المغرب ورغم ما أحدثوه من

---

(70) Marcais. G. : Les Arabes en berberie. p. 54.

خراب أدى رلى هجرة كثير من العلماء إلى المغرب الأقصى حين بدت طلائع المرابطين وقد أخذ دعاتهم يشقون طريقهم بين بربر الصحراء، ولقد كان لانتشار القبائل العربية الهلالية وبنى سليم الذين كانوا أصلاً من عرب الحجاز ثم عاشوا فترة فى مصر فى صحرائها الشرقية ثم وصلوا إلى تونس بعد أن مروا ببرقة وطرابلس وكذلك لهم دور كبير فى نشر الثقافة الإسلامية، وكذلك أشاعوا العنصر العربى فى كل مكان وصلوا إليه فأكسبوا المغرب العربى الصبغة العربية الإسلامية التى أصبحت تسوده اليوم [٧١].

وهكذا .. أصبحت أرض المغرب الواسعة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى أرضاً عربية على أرض القارة الأفريقية فى ذلك الجزء الشمالى الغربى للقارة وقد لعبت تلك الكتلة العربية الإسلامية دوراً هاماً بل مؤثراً وفعالاً فى حركة العلاقات العربية الأفريقية إذ أنها كانت حلقة الوصل بين العرب سواء فى الشمال الأفريقى أو فى غرب اسيا من ناحية وبين سكان وسط وغرب أفريقيا من ناحية أخرى[٧٢].

وهكذا ساد الإسلام أرض المغرب جميعها وأصبح الشعب المغربى ١٠٠٪ مسلم وساد اللسان العربى المغرب أيضاً ولم يكن لهذه الأمور أن تحدث لولا ذلك الدور الهام الذى لعبته مصر منذ بداية الفتح الإسلامى لها فمصر كانت فى كل حركة إلى بلاد المغرب، بل هى مصر التى مهدت الطريق للفتح وساعدت وأعطت ووهبت رجالها وأموالها وزادها ومساعدتها وعطاءها وعلماءها ومدارسها ومؤسساتها ونظمها لكل شيء فى بلاد المغرب. بل هى التى حملت كل الجهود التى بذلك من أجل إتمام الفتح، بل أن كل الحملات التى خرجت لغزو المغرب كانت تمون بالأموال والزاد والأقوات والجنود وكل ما تحتاج إليه من مصر، بل أن مصر كانت تدرب الولاه فى حكمها حتى إذا أحرزوا النجاح فى إدارة شئون مصر أصبحوا قادرين على تحمل المسئولية فى

(٧١) إحسان حقى : تونس العربية، ص ٦٥، ص ٦٦.
(٧٢) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٩.

إدارة إقليم المغرب الواسع اذ كانت الخلافة الأموية أو العباسية تدفع بهم إلى المغرب ليتولوا حكمها وهكذا كانت مصر فى كل خطوة فى المغرب، بل إن انتشار الإسلام والعروبة فى المغرب يقع دوره الأول والأساسى على دور مصر فى هذا المجال [٧٣].

* * *

(٧٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : دور مصر الحضارى فى أفريقيا، ص ١٦٨.

الباب السادس

دور القيروان فى إثراء الحركة الإسلامية

فى الغزوة الأولى التى قام بها عقبة بن نافع الفهرى إلى أفريقية (٥٠-٥٥هـ/ ٦٧٠-٦٧٥م) وبعد أن انتصر على الروم فى موقعة سبيطلة، قرر عقبة إنشاء عاصمة أو مركز عسكرى أو مدينة سكنية للمسلمين، كما بنى عمرو بن العاص الفسطاط فى مصر وأحمد بن طولون فيما بعد الطلائع، فاختار موقعاً يقع إلى الشمال قليلاً من سبيطلة التى وقعت عندها المعركة المشهورة، وحقق العرب فيها الانتصار الحاسم وبدأ فى اختطاط عاصمة مناسبة للمسلمين وكانتالقاعدة فى بناء وإنشاء تلك المدن الإسلامية الأولى أن تسمى الأمصار وهى البدء فى بناء المسجد الجامع فى تلك المدينة أسوة بالرسول ﷺ حيث أسس مسجد قباء بمجرد دخوله المدينة، وكان فى مواجهة المسجد يقوم العرب بإنشاء دار الإمارة ومقر الحكم، وبين المسجد ودار الإمارة يترك طريق واسع، ويعتبر ذلك الطريق بداية الشارع الرئيسى بالعاصمة، ويسمى بالسماط أو المحجة وفيما يتعلق بهذه المدينة الجديدة، سمى هذا الشارع بالسماط الأعظم وكانت العادة أن يتركوا حول هذين المبنيين خلاء واسعاً مستديراً ثم بعد ذلك كانوا ينشئون الدور التى يسكنونها حول ذلك الخلاء على أساس تقسيم الأرض إلى قطع لكل قبيلة قطعة تسمى خطة أو دار وسميت هذه المدينة القيروان وهو لفظ فارسى معرب بمعنى المعسكر أو مستودع السلاح[1].

وبذلك أصبحت المدينة الجديدة وهى مدينة القيروان مدينة جليلة ومباركة، وبالفعل قدر لهذا المصر أن يكون من أكثر المراكز الإسلامية بركة على الإسلام وأهله فى أفريقية، وقد تحرى عقبة أن تكون المدينة ملائمة لمطالب العرب فى ذلك العصر وقد كان أهم ما لديهم هو الخيل والجمال وهى سلاحهم الأكبر فى عمليات الفتوح

(١) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٦.

وكانوا يهتمون بأن تكون الأمصار أو المراكز أو المدن التى ينشئونها وسط إقليم مراع لترعى فيها الخيول والجمال فى غير أوقات الحروب، المهم أنه أثناء عملية إنشاء القيروان التى دامت خمس سنوات وقبل أربع سنوات؛ حيث كانت فى إحدى الوديان ذات الأشجار الكثيفة غير البعيدة عن الساحل(٢). وهى بالتحديد إلى الجنوب من قرطاجنة الميناء البيزنطى وإلى الغرب بمسافة أقل من سوسة المدينة التى سقطت أثناء حملة معاوية بن خديج (٤٥هـ/٦٦٥م) وقد كان المسجد الذى أنشئ فى المدينة قد تسمى مسجد عقبة ولازال حتى اليوم يحمل إسم القائد العربى عقبة بن نافع الفهرى(٣) ثم انتشرت حول المسجد ودار الأمارة المساكن تدريجياً فضلاً عن الأسوار ونمت المدينة بسرعة مدهشة يساعدها فى ذلك الموقع الجغرافى الممتاز وكذلك الموقع الاستراتيچى حيث كانت على امتداد الخط البرى الذى يصل بينها وبين الفسطاط وفى مأمن من أى هجوم يقوم البيزنطيون به من ناحية البحر، وهكذا كان إنشاء تلك القاعدة للغزو الإسلامى لهذه البلاد بحيث تكون بعيدة عن البحر بالقدر الذى يجنبها خطر الأسطول البيزنطى وقريبة من المنطقة التى تقع عند نهاية السهل الساحلى وبداية المناطق الرعوية الواقعة من خلفها يتجمع فيها المقاتلة من مصر أولاً وغيرها من البلاد الإسلامية ثانياً وتحشد فيها المؤن والذخائر وتتخذ قاعدة أمامية يستطاع منها مواجهة العدو لتكون خطوط دفاعهم فى مأمن وتكون ظهورهم محمية بالعمق فى الأرض، ولقد كان إنشاء مدينة القيروان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى لبلاد المغرب وفى تاريخ انتشار الإسلام والثقافة العربية فقد كان إنشاء القيروان معناه أن معالم ولاية أفريقية أخذت تتضح منذ إنشاء هذه المدينة (٤).

ولقد أصبحت منذ ذلك التاريخ مقراً للولاه والعمال وغيرهم من ذوى السلطان وأصبحت الإقامة فى القيروان أول ما تتجه إليه أبصار الوالى الجديد بعد أن كان أول

---

(٢) ابن عبد الحكم : مصدر سابق، ص ٢٦٤، ص ٢٦٥.
(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٢، ص٢٩٤.
(٤) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٣.

الأمر يتطلع إلى مصر ويتعجل العودة إليها.

وهكذا اطمأن عقبة إلى أنه أنشأ للمسلمين قاعدة فى قلب الساحل الأفريقى يحكم منها البلاد التى فتحها ويفتحها ويخرج منها الغزوات إلى بقية أنحاء المغرب ومعنى هذا أن عقبة بعمله العظيم هذا قد جعل أفريقيا ولاية إسلامية جديدة لأنه ما دام قد أنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة فقد أصبحت المنطقة كلها جزءاً من الدولة الإسلامية ولايجوز بعد ذلك للمسلمين أن يتخلوا عن هذه الناحية وبالفعل كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من أفريقية إلى برقة أو طرابلس أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل، إلا أنه بعد بناء القيروان .. فإنه لابد لهم أن يثبتوا فى هذه الناحية وأن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى لأنها جزء من الديار الإسلامية، وهكذا يتبين لنا أهمية العمل العظيم الذى قام به عقبة بن نافع الفهرى فى إنشاء مدينة القيروان (٥).

ومن أسباب ضعف الروم وخذلانهم وتفككهم أنهم طوال بناء مدينة القيروان لم ينتهزوا هذه الفترة التى ينشغل فيها المسلمون ببناء عاصمة لهم ليقوموا بمهاجمة الفاتحين ولكنهم كانوا مشغولين بحصار الصقالية والبلغار لعاصمتهم ومع دول الغرب التى حاصرت القسطنطينية وقد تمكن العرب من بناء عاصمتهم فى أفريقية وقيام مدينة القيروان وهذا لايعنى فى هذه الفترة قيام ولاية مستقلة ٥٥هـ عن مصر، بل ظل هذا الجزء من أفريقية دائماً تابعاً لمصر وأموال مصر هى التى تمون ما يرسل إليه من حملات وما يطلب من مصاريف ولكن بناء القيروان كان من شأنه رفع روح المسلمين المعنوية والمساعدة على نشر الإسلام بين البربر ومن ثم أصبحت هذه المدينة قوة لأفريقيا الإسلامية، وهكذا كان إنشاء القيروان مؤذناً ببدء عهد جديد فى تاريخ البلاد ذلك لأن مدينة القيروان ستصبح قبلة الغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام فقد وفد إليها كثيرون من الصحابة وأقاموا بها يفقهون الناس فى شئون دينهم كما دفن بها كثيرون

(٥) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٣٦.

ممن استشهدوا من أجل الدفاع عنها، لذلك نجد الكتاب والرواة والفقهاء يخلعون عليها ثوباً من القدسية ويحيطون تأسيسها بكثير من الخرافات[٦].

وقيروان هى البلد الأعظم المحفوف بالشرق لأقدم قاعدة إسلامية بالمغرب وقطرهم الأفخر الذى أصبح لسان الدهر من فضله يعرب وبشرفه يقرب، قرارة الدين والإيمان والأرض المطهرة من رجس الكافرين قبلتها أول قبلة رسمت فى البلاد المغربية، والقيروان هى رابعة الثلاثة المدينة، ومكة وبيت المقدس والقيروان قد دعى لها كبار الصحابة ممن شهد بدر وبايع بيعة الرضوان [٧].

ومسجد القيروان من أقدم المساجد القائمة إلى اليوم لأن محرابة القديم قد وضعه عقبة بن نافع الفهرى عام ٥٠هـ [٨] ذلك لأن المسجد الجامع فى القيروان أصبح مركز تلك الحركة الثقافية ومحورها تعقد به حاقات دراسة القرآن وتفسيره ودراسة الحديث. وشهدت مدرسة القيروان نمواً فكرياً شمل مختلف فروع العلوم خاصة علوم الدين[٩].

ويعتبر إنشاء مدينة القيروان بداية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية المغربية، فإلى جانب الجيوش والبعوث التى تخرج منها للغزو والفتح كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا بين البلاد يعلمون العربية وينشرون الإسلام بل أن الدور الذى لعبته مدينة القيروان فى إدخال البربر فى الإسلام لايقل عن الدور الذى لعبه القواد الفاتحون، فلقد دخل البربر الإسلام منذ الفترة الأولى للفتوحات الإسلامية وخاصة عندما رأى البربر عقبة بن نافع الفهرى وهو ينشئ القيروان بنفسه فتأثروا بشخصيته الدينية وبما كان يظهره من التفانى فى سبيل الإسلام فدخلت جماعات كبيرة منهم الإسلام على يديه وانضمت إلى قوات الإسلام المحاربة [١٠].

---

(٦) الدباغ : مصدر سابق، جـ١، ص ٢٥.
(٧) الدباغ : المصدر نفسه، جـ١، ص ٦.
(٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ٢٢.
(٩) حوية عيدة سلام : علاقة مصر ببلاد المغرب (رسالة دكتوراه غير منشورة)، ص ٢٨٥.
(١٠) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ١٤٥.

ولقد وضحت الأهمية القصوى لإنشاء قاعدة القيروان العسكرية فى عهد «زهير بن قيس البلوى» حينما ارتد البربر عن الإسلام وهبوا يعاونهم البيزنطيون بعد أن تخلصوا من متاعبهم كلها وأرادوا أن يوقعوا بالعرب ولولا قاعدة القيروان وأهميتها الاستراتيچية لطرد العرب نهائياً من المغرب ولضاعت الجهود الشاقة التى بذلت من قبل.

كذلك كانت هذه المدينة هى الأساس الهام الذى نبعت منه محاولات عبد الملك بن مروان لإتمام فتح هذه البلاد (١١) وهكذا أدى إنشاء تلك المدينة إلى أن يشتد ساعد الإسلام ويقبل عليه البربر منذ ذلك الوقت إقبالاً عظيماً، وهذا كله كان بالغ الأثر فى تاريخ الثقافة العربية الوافدة إلى زفريقية فقد نعمت البلاد بهدوء وطمأنينة لم تعهدها من قبل وأمنت من الغزو البيزنطى وتم التحالف الوطيد بين العرب والبربر، ومن هنا أخذت مدرسة القيروان الناشئة ترسخ قدمها ويشتد ساعدها وكثر إقبال الصحابة والتابعين والعلماء والوافدين من مصر إليها وأصبح جامع عقبة بن نافع مدرسة إسلامية يؤمها الناس من كافة البلاد وخصوصاً البربر أهل البلاد الأصليين الذين أخذوا بعد إسلامهم يتعلمون العربية ويقبلون على الثقافة الإسلامية وانشتر من حيث القيروان حتى عم أفريقيا كلها وأصبحت بحق العاصمة الروحية للبلاد (١٢) وكيف لاتعدو القيروان ذلك الحصن والدرع للإسلام فى أفريقية، وهى التى تحولت بعد إنشائها بفترة قصيرة إلى أن تكون مركز إشعاع إسلامى وقامت فى مساجدها الدراسات الإسلامة، وبدأ الجو الإسلامى الثقافى وانتشر العلم فى البلاد بتأثير الإسلام والعروبة، ثم أن قيام القيروان بلداً وعاصمة عربية أتاحت الفرصة لكى يتكون مغرباً عربياً إسلامياً ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد كان نقطة البداية لتغيير عام فى أوضاع المدن فى أفريقية والمغرب العربى كله، لهذه البلاد لم تعرف قبل العرب المدن الأغريقية التى تلاشى طابعها الأغريقى وتهدمت وتحولت إلى قرى، والقواعد العسكرية الرومانية التى كانت

(١١) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٥.
(١٢) الدباغ : مصدر سابق، جـ١، ص ٣٨.

تنشأ إلى جوارها المدن الرومانية الصغيرة ثم القصور، وبعد ذلك القرى البربرية التى تتكدس فيها المبانى ويحيطها السور، فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطور والتعديل بحسب احتياجات البلاد وأهلها، فأخذ الكثير من قرى المغرب وقصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد وكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس اللغة العربية وعلومها ونشر قواعد الإسلام [١٣].

وقد قام أبناء القيروان وغيرهم من أبناء المغرب والذين كانوا قد رحلوا إلى مصر وتلقوا العلوم الإسلامية على علماء وفقهاء مدرسة الفسطاط وعلى غيرها من المدارس المصرية التى انتشرت فى أنحاء عديدة فى القطر المصرى تفقهوا على أيدى هؤلاء العلماء ونقلوا عنهم العلوم التى انتشرت فيما بعد فى القيروان ومن هنا فقد مال كثيرصا من علماء القيروان إلى المذهب المالكى ووجد المذهب المالكى أنصاراً عديدين فى مدرسة القيروان كذلك .. فإن مسجد القيروان قد ساهم فى نشر الثقافة الإسلامية فى بلاد المغرب، إذ يعد هذا المسجد من أقدم المساجد لأن جميع المساجد التى أقيمت فى زمانه ٥٠هـ أما قد اندثرت أو أعيد بناؤها أو أدخل عليها الكثير من التغيير والتبديل والإضافات وذلك ما قطع صلتها بعهدها الأول [١٤] وقد تحدث المقدس عن القيروان فذكر أنها مدينة بها أربعة عشر باباً منها باب العرافين باب المئذنة، باب الصباغين، باب سوق الخميس، باب الميضاه، باب السماط، باب اللحامين، وغيرها من الأبوب المختلفة[١٥] وقد كانت شهرة القيروان ومسجد الزيتون بالعلماء الصالحين من الأسباب القوية التى دفعت أبناء المغرب فى أقاليمه المختلفة بأن يشدوا الرحال إلى تلك المدينة طلباً للعلم واستزادة من مناهله على أيدى العديد من هؤلاء الذين زخر بهم مسجد الزيتونة.

(١٣) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص ٨٧، ص ٨٨.
(١٤) أحمد فكرى : مسجد القيروان، ص ١٦.
(١٥) المقدسى : أحسن التعاليم فى معرفة الأقاليم، ص ٢٢٤.

وبدراسة ما كتبه كل من أبى العرب تميم فى كتابه طبقات فقهاء القيروان والمالكى فى كتابه رياض النفوس الدباغ فى كتابه معالم الإيمان، نستطيع أن ندرك كيف تطورت مدرسة هذه المدينة خلال الفترة التى مضت منذ إنشائها لأول مرة فبدأت تختص بدراسة الفقه والحديث والقرآن الكريم واللغة العربية والنحو وغيرها من الغلوم على يد أئمة الدارسين المتخصصين وكانت مصر بمدارسها المختلفة تشد أزر هذه المدرسة وتدفع حركتها العلمية وتغذيها ومن هنا .. فقد ازداد النفوذ السياسى والفكرى للقيروان بل ازداد نفوذها الثقافى والروحى فإن فتح المغرب الأقصى كان بفضل أهل القيروان وعلماء القيروان وهكذا امتد نفوذ القيروان حتى شمل المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى [١٦] ولقد كانت القيروان عاصمة أقليم إفريقية الذى يبدأ عند بلدة قابس ويمتد غربًا حتى ينتهى عند حدود ما يعرف اليوم بولاية قسنطينة الحالية، وعندما ثار وتمرد عرب القيروان على عبد الله بن الحبحاب استدعاه الخليفة هشام بن عبد الملك وأرسل بدلاً منه «كلثوم بن عياض القيشرى»، ثم بعد قليل أرسل «حنظلة بن صفوان الكلبى» الذى أنقذ القيروان من تمرد وشيك يقوم به الخوارج، وهكذا فقد ثبت القيروان ومعها السنة فى استعادة سلطانها على المغرب كله وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط وحملت معها المبادئ الخارجية من أباضية وصفرية مع أصحابها إلى مناطق محدودة فى جبال الريف أو فى المغرب الأوسط أو فى جبال نفوسة فى إقليم طرابلس وجزيرة جربة، وهكذا .. انتهى الصراع بفضل القيروان وانتهى ذلك القتال الدموى بانتصار السنة فى ولاية أفريقية [١٧].

إلا أنه فى عام ١٢٧هـ نجد هناك صعوبة كبرى تواجهها القيروان فى عهد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى هى مشكلة الخوارج الذين كانت قوتهم قد تجمعت فى جبال نفوسة بطرابلس والذين سيطروا على القيروان بعد

(١٦) حسين محمود : مرجع سابق، ص ٩٦.
(١٧) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٥.

أن سيطر عليهم الخوارج الصفرية، ومن ذلك نجد أن الصراع عندما اشتد بين عبد الرحمن بن حبيب وأخوته وأبناء أخوته؛ حيث نجد حبيب بن عبد الرحمن يفر إلى قبيلة كبيرة من البربر هى قبيلة طارق بن زياد التى كان يتزعمها عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد حيث سار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية واقتحم القيروان وقضى على بنى حبيب وأقام حكماً خارجياً صفرياً فى البلد ولكى يؤكد احتقاره للمذهب السنى دخل رجاله بخيلهم إلى المسجد الجامع وربطوا خيلهم فيه وبذلك نجد أن القيروان التى كلفت العرب إلى الآن جهوداً ضخمة فى فتحها وإقرار أمورها انتهت بعد العناء هذا إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية.

لكن هذا الموقف من جانب الخوارج الصفرية دفع الخوارج الأباضية المسيطرين على جبال نفوسة وناحية طرابلس إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الخوارج الصفرية منها، ومن ثم .. انتقلت القيروان من سلطان الخوارج الصفرية إلى سلطان الخوارج الأباضية وكل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور وكان قد جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة .. فإننا نجد أنه يأمر واليه على مصر محمد بن الأشعث بالمسير إلى أفريقية وإخراج الخوارج من القيروان وتم له وعادت القيروان وأفريقية إلى المذهب السنى وفى الصراع بين السنة وبين الخوارج من أجل السيطرة على القيروان قتل زعيم الخوارج الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافرى زعيم الخوارج الأباضية ففر الباقون إلى خارج أفريقية وهكذا .. حفظت القيروان وحفظت السنة معها (١٨).

وهكذا كانت القيروان من أقدم المدارس الإسلامية فى بيئة المغرب (الغرب) الإسلامى إذ كانت هى الأولى فى هذه المدارس ودورها هو الأساس ثم مدرسة قرطبة فى الأندلس ومدرسة فاس فى المغرب الأقصى وسوف يستمر التنافس بينها نحو سبعة قرون متصلة، غير أن تاريخ مدرسة القيروان هو تاريخ الثقافة العربية الإسلامية المغربية

---

(١٨) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٩.

فى المغرب فهى زعيمة هذه المدارس وهى التى أعطت وتحدت هاتين المدرستين قرطبة وفاس فترة طويلة من الزمن بل أنه لم تظهر هاتان المدرستان إلا حينما ضعفت مدرسة القيروان ثم انهارت آخر الأمر (١٩).

ولقد قصدها أبناء المغرب وغيرها من البلاد المجاورة وهى المغرب الأقصى والأوسط والأندلس وغرب أفريقيا لأنها كانت أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها علماً وتجارة ومالا وأحسنها منازلاً وأسواقاً وفيها ديوان جميع المغرب وبها دار سلطانها وبها ما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر (٢٠).

وقد رأينا الجهود التى بذلها الولاه العرب منذ عهد أبى المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الغسانى لإقرار السكينة فى المدينة والبلاد وانتشار الطمأنينة بين ربوعها حيث ظل البلاد عهد من السلام والإسلام ولعل هذا يفسر أن إسلام البربر وإقبالهم على الإسلام والثقافة العربية الإسلامية قد حببهم فى العرب وفى ثقافتهم وهذب من طبيعتهم النزاعة إلى الثورة فى الخروج على السلطان، كما أن تلك المدينة قد أدت دوراً من أهم الأدوار الثقافية فى حياة القارة الأفريقية وبصفة خاصة فى المغرب وبلاد الأندلس وغرب القارة الأفريقية فقد كانت بحق نقطة من نقط الارتكاز الهامة التى تقدم منها الاسلام إلى بقية أنحاء المغرب والأندلس وغرب أفريقيا، ومن هنا.. فإن القيروان من أولى المدنالتى تقدم منها الإسلام إلى حوض النيجر (٢١)، وقد أمدت القيروان تلك المناطق بالدعاة والفقهاء والعلماء والتجار الذين تعلموا وتلقوا دروسهم وعلومهم فى مدارسها ذات الطابع الثقافى الإسلامى المغربى (٢٢).

وقد شهدت القيروان نوعًا من التجديد والإصلاح فى عهد هارون الرشيد عندما عين (هرثمة بن أعين) والياً على أفريقيا عام (١٨٠-١٨١هـ/٧٩٦-٧٩٧م)؛ حيث

(١٩) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٦.
(٢٠) ابن حوقل : صورة الأرض، ص ٩٦.
(٢١) عبده بدوى : مدن أفريقية ، ص ١٩٨.
(٢٢) عبد العزيز كامل : وجه الإسلام فى القارة الأفريقية، ص ١٠٦.

عمل هرثمة على تجديد ما خرب من المدر والموانى والمنشآت وليعيد ثقة الناس فى الدولة فقد أصلح المسجد الجامع للقيروان ونظم الأسواق واهتم ببناء قصور العباد، وقد كان الدافع لرجال الدولة إلى العناية بشئون الرباطات أو القصور أن رجالها كانوا دائماً مؤيدين للحكومة المركزية لأنها كانت دائماً نصيرة السنة وكانوا يقفون مع الفقهاء السنة والمالكية (رجال القيروان) فى صراعهم مع المذاهب المختلفة المخالفة لأهل السنة، ومن هنا .. كان رجال القيروان قوة للنظام والخلافة الأموية والعباسية، وقد كانوا عاملاً من عوامل الاستقرار وازدهار الحضارة العربية الإسلامية (٢٣).

ونقول أن العصر الأغلبى الذى بدأ ١٨٤هـ/٨٨٠م والبلاد فوضى تتقاسمها جماعات الخوارج والعرب انتهى والبلاد موحدة تحت لواء السنة والمذهب المالكى فلا مجال للخوارج إلا فى أقصى الطرف الغربى للبلاد فى أقليم تاهرت بالمغرب الأوسط ولم يكن داخلاً فى دولتهم وكذلك كانت هناك جماعات أباضية صغيرة فى بعض نواحى طرابلس وجبل نفوسة وجزيرة جربة ولكنها لم تعد تشكل للقيروان السنة المالكية أية متاعب أو مصاعب للحكام. ولقد كان «للمالكية» اهتمام بالأبنية والمنشآت وكان يزيد بن حاتم دور كبير فى تطوير جامع القيروان وإنشاء أسواق القيروان وتونس وتنظيمها وكذلك اهتم –كما سبق أن ذكرنا– هرثمة بن أعين بإنشاء القصور للمرابطين والزهاد والمحارس على الساحل ولكن بنى الأغلب هم الذين مدنوا أفريقية (تونس) والمغرب الأوسط ومن أعظم أعمالهم تجديد مسجدى القيروان وتونس وهما مسجد عقبة بن نافع الفهرى ومسجد الزيتونة وإعطاؤها صورتها الباقية إلى اليوم وقد تعاقبت على مدينة القيروان أعمال التجديد منذ بناء عقبة بن نافع ثم جدده حسان بن النعمان واكمله حنظلة بن صفوان ولكن الذى أعاد بناءه كله ورفع قبابه وجدد مئذنته وأعطاه صورته الحالية كان زيادة الله بن الأغلب فقد أنفق فى ذلك مالاً جزيلاً طوال سنوات حكمه، وكان بقول ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى

(٢٣) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٨١.

أربع حسنات ببنائى المسجد الجامع بالقيروان وبنائى قنطرة أم الربيع وبنائى حصن سوسة وتوليتى أحمد بن أبى محرز قضاء أفريقية (٢٤).

وقد اتسعت القيروان وقامت فيها الأسواق والأحياء ونشأ مجتمع قيروانى محلى، عماد الفقهاء والقضاة ورجال العلم والدين وأهل الذهد والورع والتجار ونفر من الأغنياء واهل الصناعة وهكذا ترى كيف كانت القيروان سوقاً تجارياً كبيراً تصدر منه القوافل إلى بلاد الصحراء ومراكز تجارياً هاماً للقوافل المارة فى الشرق؛ حيث مصر إلى الغرب حيث المغرب الأوسط والأقصى والأندلس وبالعكس وقامت بها حلقات الدرس فى المسجد (مسجد عقبة) وغيره من المساجد التى يؤمها شيوخ كبار لهم مقام كبير فى العالم الإسلامى كله بالتدريس والشرح والافتهام وتلقين الطلاب كل ما يمت للعلوم الإسلامية والشرعية واللغوية والأدبية بصلة (٢٥).

ولقد وضح فى أفريقية وبالذات فى مدينة القيروان كيفية التعاون بين طبقات السكان على اختلافهم وظهر التآلف والتجاوب والاندماج بين العرب والبربر أهل البلاد الأصليين وبين الأفارقة وهم العنصر الذى كان خليطاً من البربر وبقايا الرومان القدماء؛ حيث عاشت كل هذه العناصر فى القيروان حاضرة البلاد جنباً إلى جنب يوحد بينهم الإسلام ويعصمهم القرآن ويجمعهم مذهب واحد، هو مذهب الإمام مالك ونهج السنة والجماعة، وقد ظهر ذلك فى ميدان الحضارة، وفى الفكر والثقافة العربية الإسلامية التى شهدت فى أواخر القرن الثانى الهجرى نمو وغلبة بل اشتد عودها وازداد دفعها إلى طريق التطور والتقدم؛ بحيث أن مساجد القيروان ومسجد عقبة الجامع قد شهدت حلقات للتدريس وأنشئت مدارس جامعة أطلقوا عليها «دور الحكمة» واستقدموا لها العلماء والفقهاء ورجال الدعوة والدين من الشرق فكانت هذه المدارس وما اقترن به أنشاؤها من انصراف القائمين عليها للدرس والبحث عاملاً فى رفع شأن لغة القرآن

(٢٤) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢ ، ص ٣٨.
(٢٥) حورية عبدة سلام : مرجع سابق، ص ٢٨٦.
(٢٦) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٨.

الكريم لغة العرب وثقافتهم (٢٦).

دور القيروان فى الحفاظ على المذهب المالكى :

غير أن أهم تطور ثقافى شهدته أفريقيا فى تلك الحقبة التاريخية هو انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس من مدرسة القيروان وانتشاره فى القسم الغربى من العالم الإسلامى كله بما فيه الأندلس ثم عبوره إلى غرب أفريقيا؛ حيث لايزال إلى هذه الأيام هو المذهب الغالب على المسلمين فى هذه البلاد، وهو العامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم وحياتهم الاجتماعية.

ومع أن ولاة القيروان فقدوا نفوذهمبالمغرب الأقصى إلا أنهم ظلوا يعملون ويهتمون بشئونه ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات التى تربطه بالقيروان فقد عمل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى (١٢٧-١٣٢هـ) على حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات أفريقية وبين مدينة أودغست بصحراء المغرب الأقصى واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة أن يعبروا الصحراء وأن ينشروا الإسلام ومذهب السنة وأن ينتشروا بين القبائل الضارية فيها كما استطاع التجار أن يفعلوا ببلاد الملثمين وبلاد السودان (٢٧).

ولقد كانت عظمة القيروان وتطورها وازدهارها على أيدى أولئك العلماء والفقهاء والذين قدموا إليها من مصر وبلاد المشرق وكثرت هجرتهم إليها والذين كانت لديهم المعرفة التامة بأمور الإسلام وعلومه ومناهجه؛ بالإضافة إلى النظم الإدارية والحضارية والثقافية التى تركت بصماتها على الحياة الدينية فى أفريقية (تونس) (٢٨) والذى ساعد القيروان على أداء دورها الإسلامى والحضارى والثقافى والفكرى والعلمى أن المذهب المالكى كان هو المذهب السائد فى أقليم تونس وشرق الجزائر (أفريقية) وأن العلوم الإسلامية كلها التى كانت تدرس فى تلك البلاد تدور حول فقه الإمام مالك

(٢٧) حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقة، ص ٩١.

(28) Hallett. P. Africa to 1875. P.46.

والعلوم الإسلامية المساعدة الأخرى، والتى تخدم هذا الفقه وتساعد على فهم هذه الثقافة المالكية، والتى وضحت فى القيروان والتى انتقلت منها إلى بقية الأقطار الإسلامية الأخرى، ومن هنا .. فإننا لانجد فى تلك الأقطار مذهباً إلا مذهب الإمام مالك ولا فقهاً إلا فقه الإمام المذكور ذلك لأن أهم تطور ثقافى حضارى عربى شهدته البلاد هو انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس فى مدرسة القيروان وانتشاره فى التقسيم الغربى من العالم الإسلامى (٢٩).

كذلك .. فإن هناك حقيقة تاريخية ثانية هى أن مذهب الإمام مالك لم يكن انتشاره وليد عصر الأغالبة ١٨٤هـ ولكن ذلك المذهب قد انتشر فى البلاد قبل الأغالبة، غير أن عصرهم قد شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب كلها، بل أكثر من ذلك أن انتشار المذهب المالكى قد ساعد على حركة التعريب فى المغرب؛ حيث مضت تلك العملية بخطوات واسعة فى ظل الدول المستقلة التى قامت فى المغرب العربى منذ الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى (أواخر القرن الثامن الميلادى) وبرزت فى بيئة المغرب مدرسة القيروان حيث كان أهم تطور تاريخى وحضارى هو ظهورها بتلك القوة العلمية والفكرية والثقافية وشهدت بعداً جديداً بانتشار مذهب مالك فى مدرستها وهكذا .. لعبت مدرسة القيروان ودور الحكمة التى بذل عليها الأغالبة الكثير من الأموال من أجل العمل على نشر المذهب المالكى؛ حيث استقدموا العلماء والفقهاء من مصر والحجاز لكى يعقدوا حلقات الدرس والتعليم والتلقين فى ربوع هذه الدور التى كانت بمثابة جامعة شاملة تدرس فيها كل علوم العصر من فقه وحديث وتفسير ومواريث وعلوم اللغة العربية (النحو، والصرف، البلاغة، العروض، البيان)، وعلوم المنطق والفلك والحساب وغيره من علوم العصر التى انتشرت فى ذلك الوقت (٣٠).

---

(٢٩) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٦٦.
(٣٠) محمد محمد أمين : مرجع سابق، ص ٦٨.

وهنا .. فإننا سنعرض ما ذكره الدباغ فى كتابه معالم الإيمان عن أن مدينة القيروان هى رابعة الثلاثة مكة المكرمة، والمدينة المنوة، وبيت المقدس؛ فإنه يحاول بذلك أن يجعل للقيروان مكانة دينية فى قلوب أهل الغرب وأفريقية تدانى مكانة المدينة المنورة، ومكة المكرمة، وبيت المقدس فى قلوب المسلمين، ومن هنا .. يحاول أن يضفى على المدينة نوعاً من التبرك والتقديس أو على الأقل بالنسبة لأهل المغرب الذين يجب عليهم أن يحافظوا على هذه المدينة وأن يجعلوها كعبة العلم والمعرفة والعلوم وأن تتجه إليها قلوب كل أبناء المغرب باعتبار أنها المدينة الأولى العربية الإسلامية التى ظهرت فى قلب المغرب؛ حيث كان إنشاؤها عام ٥٠هـ ولم تكن هناك أية مدينة أخرى قد رفعت فى المغرب وعلى هذا كان على القيروان أن تؤدى واجبها فى المحافظة على الشريعة الإسلامية، وأن تكون ملاذ السنة والجماعة كذلك ما ذكره الدباغ أيضاً من أن القيروان قد دعى لها كبار الصحابة ممن شهدوا موقعة (غزوة) بدر وبيعة الرضوان مع رسول الله ﷺ، ومن هنا كانت أقدم المدن الأفريقية العربية الإسلامية بعد الفسطاط وهذا يعطى لها المكانة العلمية فى قلوب سكان المغرب. ومن هنا كانت مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة ومنهل العلوم الإسلامية ومقر جهابذة الفقه والدين[٣١].

وكما حافظت القيروان على الشريعة الإسلامية والجماعة والسنة .. فإنها حافظت واحتضنت المذهب المالكى أحد الفروع الأربعة لمذهب السنة (المالكى – الشافعى – أبو حنيفة – الحنبلى) ورفضت أن تكون مساجدها ومدارسها ودار حكمتها مكاناً لغير المذهب المالكى، نعم .. لقد كانت الدولة العباسية وولاياتها (١٣٢-٦٥٦هـ؟ قد اتخذوا مذهب أبى حنيفة النعمان مذهباً رسمياً للدولة، وكان على هذا المذهب أن يدخل أفريقية فى ركاب القوات العباسية الزاحفة إلى المغرب خلف محمد بن الأشعث الذى طرد الخوارج الأباضية من القيروان، لكن مذهب ابى

(31) Marcais. G. op. cit., P. 115.

حنيفة النعمان لم يجد قبولاً لدى سكان القيروان وأفريقية المغرب الأقصى والأوسط والأندلس وغرب أفريقيا لأن هذه الشعوب قد تعلقت بحب الرسول ﷺ وحب الإمام مالك بن أنس فقيه وعالم دار الهجرة (٣٢).

وعلى هذا قد كان الدور الذى لعبته مدرسة القيروان وغيرها من المدارس المغربية الأفريقية، أن مبدأ المالكية قد أخذ أبعاد خطيرة فى نفوس المغاربة؛ حيث تمكنت منها وبدأ الفقه المالكى يأخذ طريقه للتعميم والانتشار حيث وقف لكل المذاهب الأخرى بالمرصاد ولو كانت من مذاهب أهل السنة كالحنابلة والشافعية والحنفية إضافة رلى موقفهم الحازم مع الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم من الفرق الأخرى، وقد أصبح هذا المذهب، المذهب الرسمى لأهل أفريقيا وغيرها من مناطق المغرب العربى (٣٣).

ولقد أدت القيروان وعلماؤها وفقهاؤها دورهم الهام والكبير فى تاريخ المغرب العربى عندما أثار المعتزلة مسألة خلق القرآن الكريم، وأخذت الدولة العباسية بهذه المسألة وأصدرت أوامرها بامتحان القضاة؛ حيث كان المعتزلة هم أصحاب تلك الدعوة والأقوال، ومن هنا تصدروا لهذه الأقوال وتصدر رجالها من القضاء وكان أن تولى فى مدينة القيروان أحد رجال المعتزلة ويدعى (عبد الله بن أبى الجود) فى زمن حكم زيادة الله الأغلبى ومن هنا بدأ البلاء يشتد والأذى يزداد على فقهاء وعلماء المالكية، وهنا برز دور أحد كبار فقهاء المالكية فى أفريقيا وهو سحنون بن سعيد (أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى) ونال سحنون هذا أشد أنواع العقاب وقاسى أشد المحن لأنه رفض القول بخلق القرآن الكريم وشاءت الإرادة الإلهية أن تلغى الدولة العباسية فى عصر الخليفة المعتصم بالله العباسى هذه المسألة وهنا يتصدر المالكية أمر القضاء فى القيروان ويفرج من السجن عن سحنون بن سعيد ليتولى أمر القضاء بعد تلك المحنة،

---

(٣٢) الدباغ : مصدر سابق، جـ٢، ص ٥٢.
(٣٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٩٤.
(٣٤) صلاح العقاد : المغرب العربى، جـ٣، ص ٢٤.

ومن ذلك التاريخ صار المذهب المالكى هو المذهب السائد على ما عداه من المذاهب الأخرى (٣٤).

ومن هنا .. فإنه يرجع الفضل إلى سحنون بن سعيد ورفقائه من علماء المالكية وتلاميذه فى دخول املغاربة فى هذا المذهب جماعات بحيث طار صيته إلى الأندلس فجاء علماء قرطبة وغيرها من مدن المغرب والأندلس إلى القيروان يسعون إليها، وإلى عالمها الكبير ابن سعيد لكى يتتلمذوا على يديه ويدرسو تعاليم المذهب المالكى وخصائصه فى الفقه والتشريع ومن ذلك الوقت بدأ المذهب المالكى يأخذ طريقه للانتشار فى بلاد الأندلس وإذا كان ابن سعيد قد ذاع صيته فى انتشار المذهب المالكى واتخاذ القيروان مقراً له وقدوم الطلاب إليه لدراسة «مدونته» التى ألفها عن المذهب المالكى؛ إلا أنه كان قد سبقه إلى الرحيل إلى مصر فقيه أفريقية أيضاً «أسد بن الفرات» قائد الغزوة الإسلامية لفتح صقلية؛ حيث كان أسد بن الفرات قد رحل إلى مصر وتتلمذ على عالم مصر وكبير المالكية فيها (على بن القاسم) واستطاع أن يدون مشاهداته وخلاصة تجاربه فى كتابه الشهير فى تاريخ الفقه والذى انتشر فى المغرب وعرف باسم (الأسدية) (٣٥).

ولقد قامت مدرسة القيروان بأداء دورها الحضارى والرسلامى فى بلاد السودان الغربى ولقد أصبح الفقهاء مالكيين فى حياتهم وإنتاجهم الفكرى وفى مؤلفاتهم التى كتبوها وفى تدريسهم بالإضافة إلى أن شعوب السودان أخذ جميعها (المسلمون) بالمذهب المالكى وأصبحوا مالكيون فى كل شيء، ومن هنا فقد تأثروا بهؤلاء الفقهاء واهتدوا بهم فى أمور حياتهم وأصبح طابع الحياة الثقافية والعلمية والفقهية والدينية حتى سيطر على كل حياتهم، وتراجم العلماء والفقهاء التى وردت فى تاريخ الفناش لمحمود كعت، وتاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى، نبل الابتهاج بتطوير الديباج

(٣٥) حسن محمود : مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣٦) ناصح صالح مطلوب : نبل الابتهاج بتريز الديباج، رسالة ماجستير، ص ٣٢٠.

(أحمد بابا التمبكتى) تعطى صورة حية عن الحياة المالكية الصرفة فى بلاد السودان الغربى [٣٦].

وهكذا .. انتشر العلماء والفقهاء المباركين من كبار علماء المالكية فى العديد من مدن السودان الغربى والذين حاولوا القضاء على بقايا الوثنية فى تلك البلاد، والذين كانت تزخر بهم تلك المدن، والذين كان قدومهم من مدينة القيروان أو من الذين تعلموا ودرسوا وتلقوا علومهم الإسلامية فى مدارس القيروان ودار الحكمة التى بها والتى مارست دورها كجامعة عملية إسلامية تؤدى رسالة المذهب المالكى[٣٧].

ولقد كان للدور الذى لعبته مدرسة القيروان باعتبارها مركز المالكية فى أفريقية ومنها انتشر إلى بلاد السودان الغربى إن كانت هناك علاقات ثقافية وعلمية ودينية وثيقة بين هذه المدينة وتلك البلاد وقد كان لذلك أثره الكبير فى نشر العلوم الإسلامية والقضاء هلى الوثنية ونشر التعاليم الإسلامية وازدياد دور الثقافة العربية الإسلامية وازدياد الدور الذى تلعبه الحركة الإسلامية العلمية فى تلك الأقطار ومن هنا.. فإن تلك البلاد قد سارت خطواته علمية بعيدة هائلة بعيدة التأثير فى تلك الأقطار لأن القائمين على إيقاظ تلك الحركة الفقهية والعلمية والثقافية علماء وصلوا إلى تلك الأصقاع من القيروان وبقية بلاد المغرب العربى [٣٨].

لقد كانت العلوم التى تدرس فى القيروان هى نفس العلوم التى كان تدرس فى مدارس السوادن الغربى كتميكنو وجنى وجار وولاته وبرنى ومالى، وغيرها من المدن والمدارس ولاسيما فى جامعة سانكرى التى كانت تقع فى مدينة تمبكتو إحدى مدن بلاد سنغاى الشهيرة فى السودان الغربى ولكن على أضرب مختلفة وأساليب متباينة بين قراءة ودراسة وبحث وتحقيق. ونظر فيما يوصل إلى دقائق مشكلاتها وإبداء

(٣٧) نبيلة حسن محمد : انتشار الإسلام فى السودان الغربى، رسالة ماجستير، ص ٢٤٨.

(38) Trimingham, J.S. : A History of Islam in West Africa, p. 137.

(٣٩) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقيا، ص ١٩٨.

الرأى[٣٩].

وبذلك .. فإن الثقافة العربية التى سادت تلك البلاد قد غلب عليها طابع التقاليد المالكية وكانت كلها تدور حول فقه الإمام مالك والعلوم الإسلامية الأخرى والتى تخدم هذا الفقه وتساعد على نقل هذه الثقافة المالكية التى ازدهرت فى القيروان، إلا أن ذلك لايعنى أن القيروان لم تشهد غير مذهب الإمام مالك بن زنس، لكن القيروان قد شهدت بعض فقهاء الشافعية الذين رحلوا إليها من مصر كما رحل إليها من قبل فقهاء المالكية، أو من أبناء المغرب العربى الذين تلقوا علومهم وتتلمذوا على أيدى أساتذتهم الفقهاء ورجال المذهب الشافعى فى مصر[٤٠].

وعلى هذا .. فإن بلاد السودان الغربى قل أن يوجد فيها مذهب إلا الإمام مالك ولا فقه إلا فقه الإمام مالك، ومن هنا سارت الثقافة العربية الإسلامية من خلال دراسة الفقه الماكى، ومن هنا كان مر جراء الدور الذى لعبته القيروان وتلك العلاقات الثقافية التى ربطتها مع تلك الأقطار وبقية أرجاء المغرب العربى إن كان فقهاء السودان الغربى والأوسط مالكيين فى حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم وتدريسهم وهنا كانت المدارس الثقافية المنتشرة فى تلك الأقطار أن تكاد تكون مغربية بحتة فكأن هذه المدارس فى القيروان أو فاس أو طرابلس[٤١].

وعلى هذا كانت القيروان وغيرها من مدارس المغرب المختلفة ومراكز الثقافة الإسلامية فى المغرب دور هام فى طبع الحياة الإسلامية فى السودان الغربى، ولقد كان من طبيعة تلك البلاد من الناحية الثقافية والجغرافية أن مدت يدها وجاءت بالعطاء الإسلامى والفكرى، فمدت القيروان وعلماءها بأبصارهم إلى تلك المناطق نحو غرب أفريقيا والسودان الغربى، فانتشرت الثقافة العربية الإسلامية التى تمثلت فى الفقه

(٤٠) محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى، ص ١٣٠.
(٤١) عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برنو الإسلامية، رسالة ماجستير، ص ١٤٢.
(٤٢) زين العابدين السراج : دولة كانم الإسلامية، ص ١٠٤.

المالكي والمذهب المالكي، فانتشرت الثقافة في جور هادئ آمن وصحي وتتبعه التجارة التي كلما ازداد نشاطها وهبت مزيداً من العلم والثقافة ونشر العلوم الإسلامية (٤٢).

وعلى هذا كان انتصار المالكية في القيروان في عهد الأغالبة ووقوفوهم موقف المعاداة والإقناع والحجة والحسنة إزاء مذهب أبي حنيفة الذي لم يلق إقبالاً من المغاربة المحبين لرسول الله ﷺ والمخلصين للإسلام الصحيح ولقد كان سبب عدم الأخذ بمذهب أبي حنيفة. فإن ذلك يرجع إلى قلة اعتماده على الحديث واعتماده على الرأي والاجتهاد متأثراً بالمدارس الفارسية في التفكير الحر، ومن هنا .. فإنه بفضل علماء وفقهاء ورجال المالكية في القيروان وتصديهم لمذهب أبي حنيفة لم ينتشر هذا المذهب. فاشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكيين في الحياة الثقافية والدينية، ولقد كانت مقاطعة فقهاء وعلماء المالكية للأمراء وعدم السير في ركابهم وأخذهم بالنزعة الاستقلالية وميلهم إلى الانتصار للضعفاء والفقهاء وعدم الخضوع لسطوة السلطان، ومن هنا .. وجدت المالكية ودعوتها في نفوس شعوب المغرب صدى عظيما لأن الفقهاء ورجال المالكية وزعماء القيروان كانوا يتحملون الأذى والمعاناة بل إنهم كانوا يستشهدون من أجل الحفاظ على المبدأ والعقيدة (٤٣)، وقد لعبت القيروان دورها في القرنين الأول والثاني الهجريين أو منذ أن وضع عقبة بن نافع الفهري في خلال أربع سنوات عام ٥٠-٥٤هـ معالم تلك المدينة التي أضحت قبله العلماء والمفكرين ورجال العلم والدراسة في بلاد المغرب ، وعلى هذا فقد حفظت للمغاربة تراثهم الفكري والعلمي وبها أخرج أسد بن الفرات (الأسدية) وسحنون بن سعيد «المدونة» واللتين كانتا منهاج الفكر والتعاليم المالكية التي انتشرت في أنحاء المغرب وتداول تدارسها بين طلاب المالكية ليس في بلاد المغرب فقط لكن في الأندلس وبلاد غرب أفريقيا.

ولقد كان الربع الأخير من القرن الثاني الهجري هو عصر ازدهار القيروان فكرياً

(٤٣) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٠.

وعلمياً وثقافياً وسياسياً وعمرانياً وتجارة واقتصاد إذ شدت إليها أنظار شعوب المغرب العربى بأقسامه المختلفة حتى كانت هى الملاذ الأول لكل باحث عن العلم والمعرفة وأمور الفقه الإسلامى المالكى، بعد أن ظهرت فى المغرب العربى دويلات وإمارات إسلامية اتخذ بعضها المذهب الخارجى الأباضى منهجاً له فى الحكم والسياسة وأمور الدين (الدولة الرستمية الخارجية الأباضية ١٦٤هـ/٧٨١م) والتى أقامها عبد الرحمن بن رستم الذى فر إلى المغرب الأوسط ومعه نفر من الأباضية خارج الحدود السياسية للدولة العباسية فى جبل نفوسة بعد أن تم طردهم من القيروان على يد محمد بن الأشعث (٤٤).

وهكذا .. مارست القيروان دورها بأحسن ما تكون الأدوار الفكرية والحضارية والعلمية فى بلاد المغرب العربى فى وقت لم يكن الإسلام قد بدأ يأخذ امتداده العميق فى أرض المغرب حيث كانت هناك عقبات تحول دون أن تتعمق المفاهيم الإسلامية فى قلوب البربر لكن إنشاء تلك المدينة عام ٥٠هـ كان حقيقة ثابتة بأنها سوف تمارس مركزها ككعبة للعلم والمعرفة لاسيما أن القيروان بدأت تشد اهتمام أبناء قبائل البربر المسلمين من البربر البرانس والبتر منذ عهد ولاية حسان بن النعمان الغسانى (٧١–٨٥هـ/٦٩٠–٧٠٤م)؛ حيث بدأ البربر يدخلون فى دين الله أفواجاً قادمين إلى حسان ينشدون عظمة الإسلام وسمو تعاليمه وسماحة زبنائه وأخوتهم للبربر وروح التآلف والاندماج بين أبناء العمومة فى دين واحد وعقيدة واحدة، وهدف إسلامى مشترك، وهكذا .. كان لهذا الدور أثره فى تغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفوس أهل المغرب وظهور جيل مستعرب (عربى – بربر) من مثقفى البربر وعلمائهم وفقهائهم وقد طبعوا الثقافة العربية بالروح المغربية والقالب المغربى فى كثير من أمور الحياة المغربية (٤٥).

---

(٤٤) حسين مؤنس : مرجع سابق، ص ٦٩.
(٤٥) حسن محمود : مرجع سابق، ص ١٧٣.

وهكذا .. قدر للقيروان أن يمارس دورها فى حدود تلك الحقبة التاريخية المحددة هنا فى ذلك البحث، وهكذا كان ذلك البلد الإسلامى الأول الذى أسس على التقوى والإيمان وبفكر وتأييد وعمل المجاهد الإسلامى الكبير عقبة بن نافع الفهرى الذى استشهد وروى أرض المغرب بدمائه الذكية الطاهرة من أجل أن يحفظ للقيروان عظمتها وتمارس دورها فى قلب المغرب العربى والذى لم يقتصر على المغرب فقط؛ بل تخطاه إلى بلاد الأندلس وبلاد وسط وغرب أفريقيا لكى تبقى القيروان مشاركة العواصم الفكرية الأخرى فى نشر الإسلام فى تلك الأقطار.

وهكذا .. توج الفتح الإسلامى العربى لبلاد المغرب بانتشار الإسلام واللغة العربية بصورة قوية وفعالة فى بلاد المغرب وتوج الانتصار الإسلامى العربى بظهور ذلك المركز الحضارى والفكرى والثقافى بصورة قوية بعد ربع قرن تقريباً من بداية الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، وهكذا كان بحق إنشاء تلك المدينة بحق البداية الحقيقية لتاريخ الحضارة العربية الإسلامية المغربية.

ومن هنا لعبت القيروان دوراً حاسماً وفعالاً فى نشر الإسلام والعروبة والفقه المالكى فى تلك البقاع بل هى السبب المباشر لظهور تلك الكتلة العربية الإسلامية الثانية فى أفريقية بعد ظهور الكتلة الإسلامية العربية فى مصر. وهكذا كانت القيروان كما قال الدباغ عنها رابعة الثلاثة مكة المكرمة، والمدينة المنورة وبيت المقدس.

* * *

الخـــاتمـــة

في هذه الدراسة عن المغرب العربي في قرن ٢٢هـ/١٢٤ – ٦٤٣ – ٧٤٣م.
أي هي الفترة التي بلغ فيها المغرب العربي أقصى مدى في استقرار السيادة العربية الإسلامية واستتباب الأمر في ربوع البلاد حيث كانت الدولة الأموية قد أخذت على عاتقها فتح ذلك المصر في الأمصار الواسعة لكي يضاف إلى رقعة الدولة الإسلامية الواسعة وقد كان اختيار هذه النهاية لهذا الجزء من الدراسة عن المغرب العربي يوحي بأن فترة الدولة القوية الأموية قد بدأت في الضعف والانهيار بانتهاء فترة حكم أقوى أمراء الدولة الأموية هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم والذي لم تدم الدولة الأموية بعد وفاته سوى سبع سنوات ١٣٢هـ/٧٥٠م تولى فيها أربعة خلفاء من بني أمية كان آخرهم محمد بن مروان. ومن ثم كان عام ١٢٧هـ هو عام الفتن والشدائد والفوضى ولهذا أثرت أن تكون هي نهاية هذا الجزء الذي كان فيه المغرب جغرافياً وسكانياً يشكل إضافة إلى المشرق وقد اكتسب المغرب مفهوماً سياسياً طوال فترة التاريخ الإسلامي ومنذ الفتح العربي وقد اختار الجغرافيون (بعضاً منهم) الحواجز الطبيعية أساساً لتعريف المغرب كما أن منهم من اختار البعد الطبيعي ليكون هو الحد الفاصل لتحديد بلاد المشرق والمغرب وبعض الجغرافيين اختار التركيب البشري والبعض قد اختار الأوضاع الإدارية والظروف السياسية.

وعلى هذا فإن لفظ بلاد المغرب مصطلح يطلق على كل البلاد الإسلامية الممتدة في حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي ولهذا نجد أن اسم المغرب يعني كل الأقاليم الغربية من الشمال الأفريقي بما فيها ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وكما أننا نجد بعض الجغرافيين يستثني ليبيا من التقسيم وبعضاً آخر يضع مصر في بلاد المغرب والبعض الآخر يضعها في بلاد المشرق والآخر يضعها حداً وسطاً بين المشرق

والمغرب.

وعلى هذا فإنه انطلاقاً من التعريف للبلاد المتفق على تسميتها بالمغرب نهج فريق من المؤرخين على تقسيمها إلى أربعة أقسام وذلك مما اقتضته الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية فى ذلك الوقت وهى أقليم برقة وطرابلس ثم المغرب الأدنى وأفريقية (تونس حالياً) وبعض المناطق الشرقية فى الجزائر وكانت القيروان العاصمة السياسية لهذا الأقليم أيام الأمويين، ثم المغرب الأوسط وكانت تاهرت أشهر مدنه والمغرب الأوسط يعنى الجزائر حالياً، ثم المغرب الأقصى ويعنى حالياً المملكة المغربية.

وإذا نظرنا إلى الظروف الطبيعية والجغرافية للمغرب نجد أن كل بلاد المغرب كلها تعتبر من الناحية الطبيعية والجغرافية والمناخية إقليماً واحداً له خصائص ومميزات واحدة تجعل من العسير تقسيمه إلى وحدات سياسية متميزة بعضها عن بعض.

وبلاد المغرب أقليم مستعرض يسير من الشرق إلى الغرب دون أن يكون له عمق عمرانى كبير قبل الفتح الإسلامى وهو متميز بظاهرة جغرافية واضحة جداً هى جبال الأطلس، ومن هنا .. فإن الطبيعة الجبلية المتجانسة لأقاليم المغرب قد انعكست على طبيعة السكان الذين عرفوا منذ القدم بصلابتهم ومهارتهم القتالية مستفيدين من الظروف الجغرافية الملائمة.

وبلاد المغرب فى مجموعها بلاد غنية إلى حد ما، فيها موارد وفيرة للثروة والحياة ولكنها تحتاج إلى أمن واستقرار طويل لكى تؤتى ثمارها لأن أهل المغرب أنفسهم أهل عمل ودأب وذكاء.

ومن الناحية السكانية نجد أنه مع بداية العصر التاريخى والهجرات العربية تخرج من شبه الجزيرة العربية تتجه إلى بلاد المغرب (شمال أفريقيا) تمر مصر ومن هنا تكونت السلالة القديمة للمغرب من العناصر التى هاجرت إلى تلك الأصقاع فى

فترات زمنية وتاريخية متعاقبة، بل إن هذه السلالات البشرية والعرفية والجنسية اختلطت فى تلك البلاد فيما بينها بدرجات متفاوتة، ولقد عرف سكان المغرب منذ أقدم العصور بإسم البربر ولفظ البربر هنا لا علاقة له بلون البشرة وإنما هو لفظ إغريقى كان الإغريق يطلقونه على كل من لايتكلم اللغة الإغريقية فقد كانوا يسمونهم «باربارى».

ولقد كان المصطلح العربى هو الأصح عن الأغريقى، ذلك لأن العرب على عادتهم كانوا دائماً يحاولون أن يجدوا أصلاً عربياً لكل لفظ و علم جغرافى فيقولون أن البربر أولاد مهاجر عربى أصيل من حمير يسمى بر بن قيس ويقال أن هذا الرجل عندما هاجر إلى المغرب لم يفهم لهجة هؤلاء الناس الذين يقطنون تلك الأماكن فسماها بربره (المكان) وسمى الناس الذين يتكلمون بها بالبربر، أما الحقيقة التاريخية والعرفية أن البربر شعب سامى أبيض يسكن هذه البلاد منذ ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد قادماً من الجزيرة العربية (انظر كتابنا عروبة مصر قبل الإسلام، فضلاً عن كولين ماكيفيدى، أطلس التاريخ الأفريقى، ص ٣٥) يسكن هذه البلاد منذ أقدم العصور، ولكن البربر لم يطلقون على أنفسهم هذه التسمية بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم.

ولقد طور الرومان هذا اللفظ إلى مفهوم سياسى وحضارى بمعنى الشعوب الأدنى منهم مرتبة وحضارة ويعيشون فى معزل عن الحضارة الرومانية، وقد توارثت الأجيال هذا الرسم وظل قائماً بين تلك الشعوب حتى الوقت الحاضر؛ فهؤلاء السكان كانوا يطلقون على أنفسهم اسم «أمازيغ» وهذه الأسماء تعنى فى لغتهم لفظ الأحرار.

ولقد كان على هؤلاء البربر أو الأحرار أن يدعوا منطقة الساحل للرومان كما تركوها مرة أخرى نهائياً للوندال واكتفوا بسكن الداخل وتلك هى صورة الوضع البشرى بشكل عام فى المغرب قبل الفتح العربى حيث كان سكان الداخل هم الأغلبية العظمى (البربر البتر) وسكان السواحل الذين كانوا عادة أصحاب الغلبة

والنفوذ تبعاً للمتغيرات السياسية التى كانت تمر بها المنطقة بين الحين والآخر، وإذا تأملنا جيداً تركيب السكان فى تلك البقعة المتدفقة بالأحداث السريعة لوجدنا العنصر البربرى هو الغالب فى بلاد المغرب.

وينقسم البربر إلى قسمين كبيرين بحسب أسلوب الحياة والطابع الحضارى وهم البربر والبدو ويسمون بالبتر والبربر الحضر ويسمون البرانس، وأما البربر البرانس فهم سكان سواحل البحر المتوسط والشريط الساحلى والشمال والمناطق الشمالية لجبال الأطلس، أما فريق البربر الآخرون البتر فهم قوم أقبلوا من الجنوب وفى الغالب الجنوب الشرقى من قلب القارة الأفريقية عن طريق وادى النيل وقد نزلوا أولاً أقليم برقة ثم انتشروا غرباً وهم جنس أفريقى أسمر اللون (يثبت ذلك صحة النسب العربى ووصولهم من شبه الجزيرة العربية) وقد نشأ من اختلاط تلك العناصر نشوء العنصر البربرى الذى استعرب بعد أن اختلط بالعرب وأصبح اسم العروبة وهو يجمع فى تكوينه حالياً جميع عناصر شعوب المغرب العربى.

وعلى هذا فإن صلة القرابة الجنسية والروحية بين العرب والبربر صلة قديمة وتأسيساً على هذه الأقوال فإنه يمكن القول أنه فى متابعة الإنسان فى الشمال الأفريقى سواء فى عصور ما قبل التاريخ أو فى العصور التاريخية نستطيع أن نقول أنه منذ عصور ما قبل التاريخ ولآلاف السنين تبادلت منطقة الشمال الأفريقى الهجرات مع منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية عبر باب المندب ثم أضيف برزخ السويس فى فترات تاريخية لاحقة.

وأما أهل البربر فلا يزال هناك غموض يحيط بتاريخهم القديم وعلماء الأنساب غير متفقين على تحديد هوية معينة لهم، بعضهم يعتقد أنه ينحدرون من أصول حامية والآخر خاصة النسابون العرب يعتقدون بل يرجحون أنتسابهم وارتباطهم بالمسلمين، أكد هذه الأقوال المؤرخ كولين ماكيفيدى بأنهم عناصر سامية بيضاء قادمة من الجزيرة

العربية، وكما اختلف المؤرخون وعلماء الأجناس على هوية البربر أهى حامية أم سامية أم خليط بين الاثنين فقد اختلفوا كذلك على المصدر الذى جاءت منه هذه الجماعات إلى المغرب فمنهم من يعتقد أن البربر قدموا من آسيا (الجزيرة العربية) فى وقت مبكر، وبعضهم يعتقد أنهم قدموا من جنوب شرق أفريقيا ومنهم من يزعم أنهم أوربيون فى الأصل استوطنوا المغرب منذ عصور سحيقة فى القدم.

وهكذا كان المغرب بظروفه السياسية وقبائله التى ميزت بينها فروق اجتماعية واقتصادية ظاهرة أدت إلى تكتلهما فى مجموعتين لكل منها مصالحها المتناقضة مع الأخرى وهكذا انصب العداء الضارى بينهم واستفحل الصراع واستمر دون أن تخفف من حدته السنون. وإذا بالبربر تصلهم أنباء تحركات عسكرية تطرق أبوابهم هذه المرة من الشرق وذلك فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى وهكذا بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البربر وبدأ المغرب وتاريخه يأخذ بعداً جديداً وفصلاً من فصول التاريخ الإسلامى.

ولقد كان العرب هم أول من دخلوا بلاد المغرب وجرأوا على اقتحام جبال الأطلس وما يليها جنوباً، ولذلك كانوا أول من عرف البربر معرفة صحيحة، وعندما وصل العرب إلى هذه الأماكن وجدوا البربر من الناحية الاجتماعية يعيشون فى قبائل قريبة الشبه من قبائلهم العربية فى تنظيمها.

ولقد كان العرب هم أول من دخلوا بلاد المغرب وجرأوا على اقتحام بلاد المغرب؛ فإن العرب قد انساحوا فى تلك البقاع مع الفتح الإسلامى حتى موانى المغرب، على الساحل ولم يتركوا مكاناً للرومان، إلا أن القرن الثانى الهجرى –نهاية الجزء الأول من الموسوعة– قد شهد إختلاط العرب بالبربر اختلاطاً مباشراً فى كل أنحاء البلاد وقد تضاعف عدد العرب فى أواخر خلافة الدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٥٠م – ١٢٥هـ/٧٤٣م، كما قامت الدويلات المغربية المستقلة فى القرن الثانى الهجرى فى

أفريقية ومن هنا .. فإن التركيبة السكانية للمغرب العربى تتكون من فصيلة عرفية وجنسية وسلالية تكاد تكون واحدة إلا فيما ندر؛ حيث أن أكبر القبائل البربرية كصنهاجة وكتامة، والتى تحمل بطونًا وقبائل متعددة تعود فى جذورها العرقية إلى عرب الجنوب حيث اليمن وساحل عمان وعلى هذا فإن الصلة العرفية هى التى ساعدت فيما بعد على انتصار العروبة والإسلام فى تلك الديار وظهور بلاد المغرب بتلك الصورة العربية الإسلامية.

أما فيما كان عليه الوضع السياسى فى بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامى، فإن الأقاليم الساحلية المطلة على البحر المتوسط كانت تخضع لحكم الرومان المباشر وكانت بها مناطق عسكرية محصنة على الشريط الساحلى لأن التقدم نحو الداخل لم يكن سهل المنال ومن هنا كانت حدود هذه الدويلات الجنوبية غير واضحة، وكانت هناك دولة توميديا التى ضمت طرابلس ومصراته وغيرها من الأقاليم، وفرضت روما سيطرتها على توميديا فيما بعد، بعد أن كانت قد سيطرت على بقية الساحل الشمالى فى المحيط الأطلسى حتى توميديا، وقد كانت أرض أفريقيا مسرحًا للصراع بين الرومان فيما بينهم فى عصر يوليوس قيصر، وقد شهد عصر يوليوس قيصر توزيع أراضى أفريقية إلى جماعة من أثرياء الرومان لكن بعد موت يوليوس قيصر، جعل الرومان كل شمال أفريقيا ولاية واحدة يحكمها حاكم عام يقيم فى مدينة (أوتيكا) لكن سقطت المغرب (الشمال الأفريقى) تحت قبضة الوندال، لكن روما استطاعت استعادة الشمال الأفريقى من أيدى الوندال وبذلك أصبح الشمال الأفريقى ولاية رومانية جديدة، وهكذا ظلت كل هذه الأقاليم المغربية تابعة إلى روما وإن قسمت إلى أقاليم أو ولايات؛ بحيث جعل كل أقليم حاكم عسكرى يقيم معه قوة عسكرية، وقد أسفر ذلك الحكم الرومانى عن ظهور طائفة من سكان المغرب تسمى بالأفارقة وهم مزيج من البربر والأجناس الأوربية (الرومانية والأغريقية) التى حكمت أفريقية وأجزاء من ساحل المغرب وهم جنس

يختلف عن البربر وكانوا يتكلمون لغة ساحلية من لغات شواطئ البحر المتوسط وكانت المسيحية منتشرة بينهم على نطاق ضيق وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينة والإغريقية وهؤلاء هم الذين كانوا يتعاملون مع الرومان.

وقبل الفتح العربى الإسلامى لشمال أفريقيا كان يحكم أفريقية (تونس) بطريق يسمى (حريجورس) ويسميه العرب «جرجير» كذلك فإن بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامى من الناحية الحضارية كانت مركز عمران بيزنطى وكانت إقليماً عامراً فيه مدن كثيرة والعديد من الموانئ على ساحل البحر المتوسط والبلاد كانت عامرة بالحركة، وكانت المسيحية منتشرة بين الأفارقة وبالذات بين الجاليات الرومية أما البربر فلم تصل المسيحية لهم ولم تكن ظاهرة أو منتشرة بصورة واضحة فقد كانوا على الوثنية ولا توجد أدنى علاقة ظاهرة أو عميقة بين الروم والبربر ولهذا سوف نجد العرب عندما يصلون إلى أفريقية سيكون صراعهم مع الروم أو البيزنطيين أولاً فلما تغلبوا على مقاومة الروم وخلصوا منهم بل حرروا البلاد منهم فإنهم سوف يدخلون فى علاقات مع البربر.

وبدأ المغرب العربى (شمال أفريقيا) يأخذ بعداً جديداً ببداية الفتح الإسلامى فبعد أن تم إطواء عصر تحت لواء الأنوار القرآنية فإنه بدأ يتجاوز حدود مصر الغربية منطلقاً إلى بلاد المغرب وبذلك حدث إطواء أو محاولة إطواء بلاد المغرب تحت لواء لا إله إلا الله محمد رسول الله بعد إتمام فتح مصر مباشرة، وبعد تلك الجهود العربية الإسلامية التى بذلت لقهر البيزنطيين وطردهم منها وتحرير البلاد من كل إرداتهم وبذلك تم جمع شمل أبناء العمومة فى الجزيرة العربية ومصر والشام وبلاد المغرب فى كتلة واحدة.

والبداية الأولى لفتح المغرب تعود إلى مطلع العقد الثالث من القرن الأول الهجرى، وذلك عندما أنهى عمرو بن العاص خلال ثلاث سنوات فتح مصر

(١٨-٢١هـ/٦٣٩-٦٤٢م).

فإنه بدأ مباشرة بالتوغل بقواته صوب الغرب متعقباً القوات البيزنطية المتقهقرة؛ حيث اتجه نحو برقة لفتحها وقد تم له ما أراد ولعل التفسير العلمى والتاريخى لهذه الخطوة أن عمرو بن العاص أراد تأمين حدود مصر الغربية بل تأمين حدود دفاعته عن مصر ومن ثم كان الاستيلاء على برقة عام ٢٢هـ/٦٤٣م، وبعد قليل فى أواخر عام ٢٣هـ/٦٤٤م نجد عمر يقود غزوة عربية بفتح أقليم طرابلس ويستولى على قاعدته بعد قتال عنيف ولكنه انتصر على الروم وكان عمرو بن العاص قد تابع سيره من برقة بمحاذاة الساحل صوب طرابلس، ثم عاد إلى مصر عام ٢٥هـ/٦٤٦م بعد أن أمضى تلك الفترة فى توطيد دعائم الإسلام فى أقليم برقة وطرابلس ومهادنة قبائل تلك الأنحاء؛ حيث كان اهتمامه موجه إلى قبيلة نفوسة البربرية جنوب طرابلس، وكانت هذه آخر فتوحات عمرو بن العاص.

وفى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان يتم تعيين عبد الله بن سعد بن أبى سرج والياً على مصر، وقد أذن له عثمان بن عفان بفتح أفريقية ويشترك فى هذه الغزوة عدد كبير من الصحابة ومن أبناء الصحابة ومنهم مروان بن عثمان وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وعبد الله بن العباس وغيرهم الكثير من الصحابة، وكذلك عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الملك ابن مروان. وقد سار عبد الله بن أبى سرج بهذه القوات إلى أماكن قريبة جديدة حتى وصل إلى حدود المغرب الأدنى (أفريقية) وهكذا وصلت قوات عبد الله بن سعد بن أبى سرج فى عام ٢٨هـ/٦٤٩م إلى تونس فى جيش يتكون من ألف جندى إسلامى وقد انضم إلى هذا الجيش كثير من القبائل وخاصة من لواتة وهوارة ونفوسة وأسلموا للتقارب الاجتماعى بين الفريقين، وقد دارت معركة مع قائد البيزنطيين والعرب على مقربة من مدينة قديمة تعرف بإسم سبيطلة ودارت معركة قتل فيها «جريجورس» وفرض

عبد الله بن أبى سرج جزية على سكان ذلك الأقليم ثم يعود إلى الفسطاط فى عام ٢٩هـ/٦٤٩م رغم هذا الانتصار الكبير، مما يدل على أن هذه المحاولات لم تكن رغبة حقيقية فى المضى فى الفتح والاستقرار إلى غايته انما هى مجرد تأمين لحدود مصر القريبة وإرهاب البيزنطيين فلا يفكرون فى الإغارة على حدود مصر من ناحية الغرب.

ولكن نلاحظ أن الهزيمة التى أصيب بها الروم كانت حاسمة إلى حد أنه لم تعد لهم قوة كبيرة فى أفريقية ولقد كانت غزوة ابن سعد إلى أفريقية العمل العسكرى البارز فى عهد عثمان بن عفان.

لكن يتولى معاوية بن أبى سفيان ومجىء الأسرة الأموية نلاحظ أن هناك قوى من التحالف والتعاون بين العرب والبربر فمن ناحية البربر بين لهم أن لهم فى العرب حليفًا قويًا يستطيع حمايتهم من الروم إذا فكر هؤلاء فى العودة إلى البلاد مرة أخرى. وقد أفاد البربر من ذلك الغزو فقد استقلوا عن الروم ولم يعودوا يؤدون لهم الجزية.

وفى عهد حكم عمرو بن العاص الثانى لمصر عام ٤٠هـ؛ فإنه أرسل دوريات صغيرة أخذت طريقها فى أكثر من اتجاه ونجحت فى قمع حركات البربر الذين خضعوا فى وقت سابق للحكم العربى، ورغم الجهد الذى قام به عقبة بن نافع الفهرى فى ولاية عمرو بن العاص الثانية .. فإن ذلك لم يدخل فى إطار العمل العسكرى التوسعى، بل كان مجرد عمليات استطلاعية، وحملات تأديبية وقائية.

وبعد وفاة عمرو بن العاص نجد معاوية يعين «معاوية بن خديج» لقيادة الفتح الأفريقى، وبعد دخول معاوية بن خديج إلى الفسطاط يقف على دقائق الموقف فى أفريقية، ومن ثم سار معاوية بن خديج إلى أفريقية بتلك الغزوة التى تشبه غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرج بمن شارك فيها من الأسماء السابقة من الصحابة وأبناء الصحابة لمعرفتهم السابقة بأحوال المغرب، وكان معاوية قد أعدهم من نخبة الجند ذوى

الخبرة والمعرفة بشئون أفريقية، واتخذ معاوية بن خديج الطريق التقليدى إلى برقة وطرابلس دون أن يصطدم بعقبات أو مفاجآت فى هذه النواحى التى بات الحكم العربى فيها مستقراً وراسخاً وكان ذلك بفضل الجهود الدائبة التى قام بها عقبة بن نافع أحد قواد هذه الغزوة.

وتوقف الجيش الإسلامى فى بلدة قونية أو قمونية الواقعة إلى الجنوب من قرطاجنة ولما وصل إلى ذلك المكان وجد أن الرومان قد نزلوا فى ميناء سوسة يقودهم قائد يدعى «نفقور» فلما سمع الرم بمجىء العرب أسرعوا إلى سفنهم هرباً واستولى معاوية بن خديج على بعض المراكز الرومية القوية وقد استطاع أحد قواد الحملة أن يقوم بهجوم جرىء على مواقع الجيش البيزنطى قرب سوسة، وهى مدينة ساحلية بعيدة عن القيروان فأحدث هذا هلعاً فى صفوف البيزنطيين الذين حملتهم سفهم إلى قاعدتهم الرئيسية فى البحر المتوسط (صقلية)، وقام عبد الملك بن مروان بمهاجمة أحد الحصون وهو حصن «جلولاء» على مسافة عشرين ميلاً من القيروان وتمكن عبد الملك بن مروان من الاستيلاء على هذا الحصن، ويذكر أن معاوية بن خديج قام بغزو جزيرة صقلية وقام بهجوم على بعض مدن الساحل فى الشمال بل وغزو رودس.

وهكذا أتيح لمعاوية بن خديج أن يدفع باستراتيجية الفتح العربى للمغرب خطوات عريضة للأمام فقد كانت هزيمة البيزنطيين الذليلة والاستيلاء على المواقع العسكرية المهمة التى افتقدوها فى بداية الفتح جعلت موازين القوى بين العرب والبيزنطيين فى أفريقية ترجح لصالح العرب، إلا أن العرب لم يستفيدوا من هذه الانتصارات كسابق عهدهم إذ نجد معاوية بن خديج يعود أدراجه إلى الفسطاط دون القيام بإجراءات عسكرية تضمن استمرار تلك الأقاليم فى ظل الحكم العربى إلا أن ذلك لم يحرم القائد معاوية من أداء دوره فى انتزاع زمام المبادرة من البيزنطيين والسيطرة على المغرب، وقد تكون تلك الحملة هى نهاية مرحلة الاستطلاع داخل الأراضى الأفريقية.

وفى عام ٤٨هـ/٦٦١م عين عقبة بن نافع قائد الجبهة الأفريقية وكان اختيار يعتبر مؤشراً جديداً لتطور جديد فى استراتيجية الفتح العربى التى تحتاج إلى مرحلة الفتوح الواسعة والاستقرار النهائى وكانت نفس عقبة قد تعلقت بالفتوح فى أفريقية وقد سار عقبة إلى أفريقية؛ حيث كان فى الجنوب بعد أن تم فتح فزان وغدامس واتجه رأساً إلى موقع قرب سبيطلة، وكان قد قرر إنشاء عاصمة أو مركز عسكرى للمسلمين فى أفريقية ومن هنا .. لم يبق أمامه سوى اختيار المكان المناسب وكان اختيارها فى مكان يقع إلى الجنوب من قرطاجنة بمسافة أقل من سوسة، وكان إنشاؤها يعنى قيام ولاية أفريقية مستقلة، وفى غمرة الشعور بالنجاح وإتمام إنشاء القيروان صدر قرار عزل عقبة وتولية أبى المهاجر دينار الأنصارى؛ حيث ترك عقبة قيادة الجيوش للقائد الجديد وسار زبو المهاجر دينار إلى أفريقية ووجد الروم قد استعادوا ثقة الأهالى وانضمو إلى الروم بقيادة كسيلة زعيم البربر البرانس، إلا أنه استطاع هزيمة كسيلة ووصل فى زحفه غرباً إلى تلمسان، وهى أكبر قواعد القسم الشرقى فى المغرب الأوسط ثم شن هجومه على أكبر قبائل البربر (قبيلة أوربة) الواقعة فى جبال أوراس، إلا أننا نجد أبا المهاجر بعد وصوله إلى تلمسان يعود إلى القيروان ويشن هجوماً عنيفاً على الروم شمال قرطاجنة عام ٥٩هـ/٦٧٩م، ولقد كان دخول كسيلة وقومه من البربر فى الإسلام من أهم أعمال أبى المهاجر دينار الأنصارى.

إلا أن عقبة عاد إلى المغرب مرة ثانية عام ٦٢-٦٤هـ/٦٨١-٦٨٣م. وقد سار عقبة عكس كل من سار من قبله من الفاتحين فقد اخترق الجبال وغزا البربر فى عقر دارهم فدخل جبال الأوراس ومضى عقبة حيث حقق انتصارات باهرة؛ حيث تم طرد الروم وحلفائهم من قبائل لواتة وهوارة ومكناسة وتابعت حملة عقبة انتشارها فى أقاصى المغرب متقدمة حتى بلغت طنجة على المحيط الأطلسى وأقام علاقة حسن جوار مع حاكم تلك المدينة، وقد وصل براية الإسلام إلى آخر المعمورة وأنزل بالبربر ضربة

قوية أرغمتهم على الفرار إلى الجنوب صوب الصحراء ووصل فى زحفه جنوباً إلى درعة وقيل إلى حدود غانة فى ذلك الوقت حيث بلاد التكرور.

إلا أنه عند عودته من هذه الفتوح وعند مدينة تاهودة وجد نفسه محاصراً بقوات من البربر بقيادة كسيلة وهناك هلك عقبة فى تلك المعركة واستشهد كل من معه من القوات العربية عام ٦٤هـ/٦٨٣م وقد أسفرت تلك المعركة عن نتائج سيئة للعرب، إذ انسحبوا شرقاً حتى برقة واستولى كسيلة على القيروان التى كان قد تم انشاؤها منذ عام ٥٠هـ. وهكذا .. كانت الحملات التى أرسلت للمغرب منذ عام ٢٢هـ/٦٤٣م حتى عام ٦٤هـ/٦٨٣م أى طوال فترة أربعين عاماً كانت عمليات استطلاع كشفية تليها مرحلة الاستقرار النهائى والدائم بالمغرب.

وفى عهد عبد الملك بن مروان عام ٦٨هـ/٦٨٧م يكلف زهير بن قيس البلوى بقيادة غزوة إلى أفريقية وذلك لإثبات قوة الخلافة الأموية للبيزنطيين والبربر فخرج من برقة غرباً عام ٦٩هـ/٦٨٨م ويصل المسلمون إلى القيروان ويهزم كسيلة ويقتل ويطارد المسلمون فلول المنهزمين وكانت معركة حاسمة عرف فيها البربر قوة العرب وتصميمهم على الفتح والانتصار وبذلك قضى على قوة البربر البرانس، لكن البربر قطعوا عليه الطريق عند درنة مثلما فعل البرانس مع عقبة سابقاً، على مقربة من طبرق واستشهد زهير بن قيس البلوى بعد قتال عنيف مع الروم عام ٧١/٦٩. ولكن هذا لم يكن ضياع البلاد ومعها الجهود التى بذلت.

وكان إن تم تعيين حسان بن النعمان الغسانى (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) واتخذ الطريق المعروف من طرابلس وذلك لاستعادة القيروان وتم له ذلك بغير صعوبة ومن ثم اتجه إلى قرطاجنة ودارت معركة هزم فيها البيزنطيون وأُجبروا على مغادرة المدينة، وقام حسان بهدم كل منشآتها ومن ثم قام حسان بإنشاء قاعدة بحرية فأنشأ مدينة تونس كقاعدة للأسطول الإسلامى العربى وجلب لها ألف أسرة مصرية، وفى

فترة حكمه ظهرت الكاهنة قائدة للبربر البتر لكن حسانا استطاع أن يعود إلى برقة وأستمر هناك لفترة خمس سنوات فى قصور حسان التى بناها فى تلك الغزوة، وكانت الجولة الثانية لحسان مع الكاهنة عام ٨١هـ/٧٠٠م حيث استأنف هجومه بعد أن أمدته الخلافة الأموية بقوات عديدة واستطاع حسان أن يهزم البربر ويقتل الكاهنة واسترد القيروان وينهى مقاومة البربر البتر نهائياً كما انتهت مقاومة البربر البرانس عام ٨٣هـ/٧٠١م. وبهذه المعركة نقول أن عملية فتح المغرب قد دخلت مرحلة جديدة؛ حيث تم القضاء على كل أثر للسيادة البيزنطية على السواحل الشمالية للمغرب وانتهت مقاومة البربر.

وفى تلك الفترة تم إنشاء الأسطول الإسلامى وبناء مدينة تونس وحماية السواحل المغربية للدفاع عنها ضد عارات البيزنطيين، ولقد كان معنى ذلك استقرار الأمور الداخلية فى المغرب، وقد قام حسان بتقسيم المغرب إلى عدة ولايات وأقاليم وصل عددها إلى خمسة أقاليم، برقة، طرابلس، فزان، أفريقية، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى ثم كانت المرحلة الأخيرة للاستقرار النهائى فترة موسى بن نصير (٨٦-٩٥هـ/٧٠٥-٧١٤م) حيث اتجه موسى ومعه قواته وأبناؤه الأربعة إلى القيروان، ومن ثم تابع الغزو عن طريق بث وإرسال السرايا إلى جهات عدة فى أنحاء المغرب استطاعت أن تحقق الكثير من الانتصارات واتخاذ العديد من الإجراءات التأديبية ضد الهاربين من البربر ووطد موسى النفوذ الإسلامى وأخضع موسى السوس الأقصى والسوس الأدنى المجاور لأقليم طنجة ثم سيطر على سبتة وطنجة، وقد سهل له ذلك أن يرسل أبناءه وقواده فى حملات بسط النفوذ الإسلامى فى كل أرجاء المغرب العربى، وقد أنشأ موسى ولاية جديدة فى المغرب رضافة إلى ما قام به حسان بن النعمان الغسانى هى ولاية السوس أو سجلماسة، وعاصمتها سجلماسة وقد عين موسى بن نصير فيما بعد طارق بن زياد أميراً على طنجة؛ حيث كان ذلك بداية الفتح

الإسلامى للأندلس لكن فى عام ٩٦هـ/٧١٠م وصل موسى بن نصير إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية وكان سليمان بن عد الملك بن مروان قد تولى الخلافة بعد أخيه الوليد فيتم عزله وقد وصله قرار العزل وهو يواصل زحفه مع طارق بن زياد فى أرض الأندلس وبذلك انتهت صفحة من صفحات الجهاد الإسلامى فى المغرب حيث كان ذلك عصر الاستقرار النهائى وتوطيد دعائم الإسلام، وبذلك لم يكن قد مضت فترة لاتزيد على سبعين عاماً إلا قليلا وقد توطدت دعائم الإسلام ورسخت أركانه فى بلاد المغرب بعد أن قدم المسلمون الكثير من الشهداء سواء كانوا من القواد أمثال عقبة بن نافع الفهرى، زهير بن قيس البلوى وغيرهم من كبار القواد، وهكذا كانت بداية الوضع الإسلامى المشرق للمغرب العربى.

ولقد دخلت على المغرب العربى الكثير من المتغيرات بعيدة المدى بعد دخول الكثير من البربر الدين الإسلامى ، بل أكثر من ذلك انضموا إلى جيوش المسلمين يحاربون ويجاهدون ويغزون تحت لواء الراية الإسلامية، ومن هنا أصبح لهؤلاء البربر كل حقوق العرب المجاهدين، وزاد إقبال المغاربة على الدخول فى الدين الإسلامى فقد شهد المغرب انتقال العديد من القبائل العربية التى استقرت فى أرجائه واختلطت بأهله وقبائله وصاهرتهم، ومن ثم بدأ يظهر جيل عربى مسلم مستعرب تطلع إلى أن يكون له نصيب فى إدارة شئون البلاد.

ولقد كانت لتلك الهجرات العربية آثارها البعيدة فى تلك الأقطار؛ حيث أن بعضها كان يمثل جبهة معارضة للدولة المركزية ولسلطة الخلافة الراشدة أو الأموية أو العباسية.

وقد تولى الأمور القيادية فى المغرب بعد عزل موسى بن نصير يزيد بن أبى مسلم حيث عينه الخليفة سليمان بن عبد الملك والذى أراد أن يسير فى المغرب مسيرة الحجاج بن يوسف الثقفى من أهل العراق لكن المغاربة قتلوه وقامت الثورة فى بلاد

أفريقية، إلا أن الدولة الأموية رأت عدم الدخول فى مشاكل من سكان المغرب ومن هنا لجأت إلى معالجة الأمر باللين والحكمة والسياسة وتركت المغاربة يختارون لأنفسهم والياً مؤقتاً بعد أن تنازلت الخلافة عن أخذ الثأر من القتلة وآلت الأمور فى الخلافة الأموية إلى عمر بن عبد العزيز بن مروان (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧١٩م) وقام الخليفة بتعيين «إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر» والياً على إفريقية خلفاً ليزيد بن أبى مسلم ورتب له الخليفة عشرة من كبار الفقهاء من التابعين وأبناء الصحابة وذلك لمشاركته فى نشر الإسلام بين البربر وأرسلوا عام ١٠٠هـ ومن هنا فإنه لم يكن قد مضى على بدء الفتح العربى للمغرب ثمانون عاماً حتى كان الإسلام قد انتشر انتشاراً واسعاً بفضل سياسة الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز، ومن هنا بدأت الثقافة العربية الإسلامية تنتشر فى بلاد المغرب.

وفى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٣م) تولى إمارة أفريقية «عبيدة بن عبد الرحمن السلمى» إلا أن الخليفة اضطر لعزل السلمى وتعيين «عبد الله بن الحبحاب» للعمل على حسم المشاكل فى البلاد وكانت تولية عبد الله بن الحبحاب كل أقاليم غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر غرباً إلى جبال البرانس بين أسبانيا وفرنسا وهذه مسئولية كبيرة، ذلك لأن الدولة فى عهد هشام بن عبد الملك قد خطت خطوات نحو الضعف، وذلك بسبب قيام العصبيات فى المغرب، وشهد عصر ابن الحبحاب بداية الثورات المغربية أو ما يسمى بالفتنة الكبرى، وبدأت بوادر ظهور الدويلات المستقلة، ولقد كان الخوارج من أسباب ظهور تلك الثورات وحنق الشعب على الدولة حيث أنهم رفعوا شعار لاحكم إلا لله ومن هنا كان عام ١٢٢هـ/٧٤٠م بداية ظهور الفتنة الكبرى أو الثورة الأولى فى المغرب وقبل وفاة هشام بن عبد الملك بثلاث سنوات وانتشرت الثورة بين قبائل البربر التى كانت تسكن فى المغرب الأقصى وخاصة فى قبائل براغطة وغمارة وتولى زعامتها رجل يدعى مسيرة الفقير، ولكن هذه

الثورة ليست ثورة بربرية ضد الوجود العربى لكهنا ثورة داخلية ضد النظام الأموى لأنه انحرف عن خط القرآن والسنة، ولم يعد يطبق نصوص القرآن الكريم وقد كانت ثورة إقليمية لكن سرعان ما انضمت إليها بعض الفئات العربية وبدأت تأخذ الطابع العام للفتنة الكبرى واتجه الثوار نحو العاصمة العباسية للمغرب القيروان واستطاعوا الوصول إلى قرب منها ثم قتل مسيرة الفقير وتولى قيادة الثوار (خالد بن يزيد الزناتى)؛ حيث دارت معركة انهزمت فيها قوات الدولة الأموية وقتل عدد كبير من أشراف العرب ومن هنا سميت تلك المعركة معركة الأشراف ولكن أثر ذلك تمردت القوات العربية فى القيروان وتم استدعاء عبد الله بن الحبحاب.

لكن الخلافة الأموية ترسل كلثوم بن عياض القيشرى إلا أن ذلك القائد يقتل فى معركة مع الثوار وتفر بعض قواته من أرض المعركة إلى سبتة حيث دارت تلك المعركة قرب أسوار طنجة؛ إلا أن هشام بن عبد الملك رأى ضرورة القضاء على هذه الفتنة؛ حيث تم إرسال (حنظلة بن صفوان الكلبى) ووصل إلى القيروان ووجد المدينة مهددة بالاستيلاء عليها من قبل الخوارج الأباضية، لكنه استطاع أن يقضى عليهم بمساعدة علماء البلاد ورجال الدين. وهكذا انتصر العرب (الدولة) وانتهى الصراع الدموى فى إقليم طرابلس وتونس والجزائر وإقليم الزاب والسهل الشمالى للمغرب الأقصى.

وهكذا كان هذا الانتصار هو نهاية العصر الذهبى لبنى أمية وقوات جيش الشام الموالى لهم وبموت هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ انتهت الشخصيات القوية فى الدولة الأموية.

وفى هذا الجو الذى بدأت فيه بوادر سقوط الدولة الأموية خلا المغرب العربى للعرب السباتية؛ حيث لم يعد هناك نفوذ لعرب الشام وأصبح عرب المغرب هم الذين يتحركون ليكون حكم المغرب لهم وذلك لأن الذين قضوا على الفتنة الكبرى هم

العرب المولدون المغاربة والذين لولاهم لما استطاع جند الخلافة الحصول على ذلك النصر بل يكاد يكون لهم السلطان الفعلى على أرض المغرب.

ومما يذكر أن كثيراً من كبار القواد الذين اشتركوا فى فتح المغرب تركوا ذرياتهم وأحفادهم يعيشون فى تلك البلاد وقد كان «عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى»، وأولاده وأخواه وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر بن أبى دينار يمثلون تلك القيادة العربية الأصلية ورغم أن كل بيت كان له اتجاهه إلا أن بيت عقبة بن نافع الفهرى كان البيت الوحيد الذى اتخذ السياسة منهجاً له. وبدأ يمارس دوره على مسرح الأحداث ومن هنا قام عبد الرحمن بن حبيب الفهرى عام (١٢٧هـ/١٣٢م) بإنشاء سلطان عربى إسلامى مستقل عن الدولة الأموية، بعد أن تلاشى نفوذها تدريجياً فى بلاد المغرب، وأعلن عبد الرحمن نفسه أميراً على القيروان بعد قيام الدولة العباسية، وكان قد أعلن الولاء والطاعة للدولة العباسية، ومن ثم .. فإن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى الأول بعث إليه يطلب الخراج، فأعلن عبد الرحمن نبذ طاعة الخلافة العباسية ورد رداً قاسياً على الخليفة أبى جعفر المنصور ولقد كان خروج عبد الرحمن عن طاعة الدولة العباسية فى أول الأمر دافعاً لعدم إلتفاف القبائل حوله، لاسيما أنه استخدم أسلوب العنف بالإضافة إلى الدخول فى صراعات مع أخوته وأدت كل هذه الأمور إلى نفور العرب والبربر منه، ولقد واجهت عبد الرحمن حشود الخوارج الأباضية بقيادة «أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى»، ومن ثم انتهى الأمر بالقضاء على حكم آل نافع الفهرى بعد أن دام خمس سنوات تحت احتلال الخوارج الصفارية للقيروان بقيادة «عاصم بن جميل»، لكن الخوارج الأباضية طردوا منها الصفرية وسيطروا على القيروان عاصمة أفريقية.

لكن الخليفة العباسى المنصور أرسل إلى واليه فى مصر محمد بن الأشعث لكى يتحرك لطرد الخوارج الأباضية من القيروان وتم طرد الخوارج منها بعد أن بذل العديد

من الجهود الجبارة لاستقرار الأمن، وكان على الدولة العباسية أن تختار بعد انتهاء فترة حكم محمد بن الأشعث والياً جديداً هو الأغلب بن سالم بن عقال التميمى واستطاع الأغلب أن يسيطر على أفريقية ويتخذ من القيروان عاصمة له، لكن الخوارج الأباضية يهاجمون القيروان ويقتلون الأغلب بن سالم بن عقال.

وإزاء تلك الفوضى فى المغرب التى أصبحت تشكل مشكلة كبيرة للخلافة العباسية يتم اختيار «أبو جعفر عمر بن قبيصة المهلبى» ، الذى كلن عليه أن يواجه الخوارج الذى قتلوا أبى الأغلب، لكن بعد استقرار دام ثلاث سنوات يتم الخوارج قتله بعد أن اثبتوا أنهم قوة فعالة فى المغرب، وهنا يأمر الخليفة أبو جعفر المنصور واليه على مصر يزيد بن حاتم المهلبى بالسير إلى أفريقية حيث تم له إقرار الأمور وحكم يزيد بن حاتم خمسة عشر عاماً (١٥٥-١٧١هـ/٧٧٢-٧٨٧م) استقرت فيها الأمور فى المغرب.

وهكذا .. كانت فترة حكم يزيد بداية ظهور الدويلات العربية والبربرية فى المغرب والتى ينهى بحثنا هنا عند بداية ظهور تلك الدويلات التى كان أولها الدولة الأباضية الخارجية الرستمية ثم دولة الادراسة والأغالبة. وبهذا نكون قد دخلنا فى فترة زمنية أخرى لم تحدد فى دراسة هذا البحث وهو الجزء الثانى من الموسوعة الذى يليه أربعة أجزاء أخرى.

ومن هنا كان لابد من الحديث عن الإسلام والعروبة فى المغرب من جراء الفتوحات العربية واندماج العرب مع البربر واكتمال النمو السياسى وظهور الدويلات المغربية المستقلة، ولقد كانت بداية انتشار الإسلام على نطاق واسع فى عهد حسان بن النعمان الغسانى عندما تم قتل الكاهنة ودخول البربر البتر غالبية سكان المغرب فى الأخوة الإسلامية لاسيما بعد أن أعلن إثنا عشر ألف من الجنود إسلامهم ومشاركتهم فى الفتح وقبلهم كان دخول البربر البرانس فى الإسلام بعد أن قتل كسيلة فى عهد

زهير بن قيس البلوى، كما أن سبق ذلك إنشاء مدينة القيروان التى كانت بداية انتشار الإسلام على نطاق واسع أيضاً وليس معنى ذلك أن الإسلام لم يكن سائداً أو موجوداً فى المغرب لكن الحقيقة التاريخية تثبت أن البربر قد دخلوا فى الإسلام منذ عام ٢٢هـ/٦٤٣م عندما صالح عمرو بن العاص قبائل لواتة وهوارة ونفوسة وزاد انتشارا بعد عام ٢٥هـ عندما وصل المسلمون إلى طرابلس. بعد أن أخذ الدعاة على عاتقهم نشر الإسلام بين البربر بعد زن أخذ عقبة بن نافع ينساح فى بلاد المغرب غرباً وجنوباً، بل أن المغرب العربى قد بدأ مغايراً لغيره من الأقطار الأخرى المفتوحة فى انتشار الإسلام واللغة العربية بشكل لا يوجد فى أى قطر من الأقطار التى فتحت قبله أو بعده.

ذلك لأن أهل المغرب اعتزوا بالإسلام والعروبة وأقبلوا عليه وعلى لغته العربية بسبب تلك السياسة الحكيمة التى سار عليها حسان بن النعمان حيث كتب له النجاح والتوفيق فى الاتحاد بين العرب والبربر وإشراكهم مع العرب فى إدارة دفة البلاد والمشاركة فى الحكم والمساواة فى كل شيئ وفى الحقيقة فإن القرن الثانى الهجرى كان قرن انتشار الإسلام واستقراره فى بلاد المغرب حيث اكتسبت الثقافة العربية الإسلامية طابعها الخالد بين شعب المغرب، وهكذا صحب تحول البربر إلى الإسلام تحولهم إلى العروبة بحيث أصبحت هذه اللغة هى لغة الحياة اليومية، ومن هنا اختفت اللغات القديمة اختفاءً نهائياً ووجد البربر فى اللغة العربية أداة طيعة تمكنهم من التفاهم مع إخوانهم العرب لاسيما أن اللغة البربرية لم تكن لغة مكتوبة.

إضافة إلى أن القبائل رأت فى الإسلام منفذاً لها من سيطرة الروم وإعطائهم حقوق العرب ومن هنا كانوا عدة العرب فى حركة المد الإسلامى وطليعة جندهم وانتشر الإسلام بين البربر يدفعهم فى ذلك حبهم للعرب وعدوانهم للرومان، لاسيما بعد أن رأوا المقاومة البيزنطية تنهار بسرعة مذهلة أمام قوة العرب، كذلك كانت وحدة

النظام الاجتماعى بين العرب والبربر من عوامل التقارب بل من العوامل التى أدت إلى قيام وحدة اندماجية بين العرب القادمين وأهل البلاد وهكذا أدرك البربر أن اندماجهم مع العرب لايفقدهم أدنى شيء من شخصيتهم وممتلكاتهم مما كان له أثر نفسى بعيد فى دفع البربر نحو الإسلام.

كذلك ساعدت حركة الهجرة العربية على تشجيع حركة انتشار الإسلام واللغة العربية؛ حيث كانت بعض الهجرات العربية تؤيد وتعاضد الخلافة، كذلك كانت بعض الهجرات التى لم تستطع أن تؤكد وجودها فى قلب الدولة العربية تأخذ طريقها إلى المغرب لكى تجد متنفساً لها ولمبادئها وهؤلاء بدورهم وإن كانوا أعداء الخلافة إلا أنهم كانوا من عوامل نشر الإسلام والعروبة فى المغرب. وللحقيقة فإن الإسلام كان ينتشر فى المغرب منذ الأيام الأولى لدخول المسلمين وخاصة عندما تم إنشاء القيروان وشاهدوا ورع وزهد وتصوف عقبة بن نافع، ثم ازدادت حركة المد الإسلامى فى عهد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز عندما أرسل عشرة من كبار رجال الدعوة الإسلامية وعلى رأسهم إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر.

وهكذا .. كان إقبال البربر على الإسلام واللغة العربية إقبالاً لم يحدث له نظير فى كل البلاد المفتوحة ويدل على ذلك رحيل العديد من المغاربة إلى الفسطاط فى مصر ودمشق ومكة والمدينة للدراسة والبحث ومعرفة أصول الإسلام واللغة العربية، كما أن المغرب العربى أفرز العديد من العلماء ورجال الدين، وكذلك دخول العديد من الدعاة الذين أرسلتهم الفرق الإسلامية الأخرى كالخوارج والشيعة والمعتزلة كان لهم أثر فى انتشار الإسلام واللغة العربية أيضاً، وكان من عوامل هجرة دعاة الفرق الإسلامية أن انتشر فى وقت مبكر فى المغرب المذهب الأباضى وغيره من مذاهب الخوارج إلا أن كل هذه العوامل من انتشار الإسلام والعروبة فى ارض المغرب كان دافعاً لأن ينتشر مذهب السنة والجماعة رغم حركات الفرق الإسلامية الأخرى، ومن

هنا انتصر المذهب المالكى فى بلاد المغرب ولعبت القيروان دوراً بارزاً فى ذلك المجال وهكذا كان المذهب المالكى الذى كان انتشاره بهذه الصورة الواسعة قد أضحى عاملاً من عوامل تعميق المفاهيم الإسلامية وانتشارها بصورة أشد فعالية بين الأقوام البربر ومن هنا أقبلوا على المذهب المالكى إقبالاً أكثر من ذى قبل، ومن هنا رحلوا إلى مصر طلباً للمزيد عن هذا المذهب ويرجع إلى أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد الدور الأكبر فى دخول الناس فيه جماعات بعد أن كانوا قد تلقوا تعاليمه على شيخ المالكية فى مصر (على بن القاسم) حيث أقاما فترة طويلة فى الفسطاط.

وهكذا أصبح انتاشر المالكية فى المغرب تفهماً جديداً للمفاهيم الإسلامية الصحيحة وبعداً عن كل ما يشوب الإسلام كذلك أصبح انتشار المالكية توطن الثقافة العربية الإسلامية. وهكذا تمكنت التعاليم المالكية فى نفوس المغاربة وهكذا طبعت ثقافة المغرب العربية الإسلامية بذات الطابع العربى واختفت معه كل المدارس التى كانت تدرس غير المذهب المالكى وقد كان ذلك يمثل بداية الثقافة العربية المغربية الإسلامية فى أصل صورها وهى ذات طابع خاص متميز عن الطابع الشرقى وهكذا ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد المغرب ازدهار يصلها مع ازدهار الثقافة العربية الإسلامية فى بلاد الشرق وهكذا أصبحت أرض المغرب العربى الواسعة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسى غرباً أرضاً عربية إسلامية وظهرت كقوة إسلامية عربية ثابتة على أرض القارة الأفريقية والتى لم يكن لها أن تظهر بهذه الصورة لولا وجود مدرسة القيروان العلمية الدينية الفكرية التى مارست دورها فى أصباغ تلك الصبغة على المغرب.

ومن هنا كان الحديث عن الإسلام وانتشاره ودور العروبة فى المغرب فإن ذلك كان له الفضل الأكبر فى ظهور القيروان منذ عام ٥٠هـ/٦٧٠م كعاصمة إسلامية وسياسية وتاريخية للمغرب وكقاعدة كبرى لنشر الإسلام وعلومه واللغة العربية وعلومها

وممارسة أهل المغرب لمشاعرهم الدينية بعد أن أصبحت القيروان مدينة جليلة ومباركة، وأن إنشاءها كان من أهم الأحداث فى تاريخ الفتح الإسلامى لبلاد المغرب وأن إنشاء القيروان بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد ذلك لأن القيروان ستصبح قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومعقل الإسلام وحسن العروبة والإسلام؛ حيث هى كما ذكر ذلك الدباغ رابعة الثلاثة مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس، وقد كانت مركز إشعاع إسلامى بعد إنشاءها بفترة قصيرة وقامت فى مساجدها الدراسات العربية الإسلامية، وبدأ الجو الإسلامى الثقافى بأخذ بعداً جديداً بتأثر تلك المدرسة حتى أصبحت مقراً عربياً إسلامياً ذا تنظيم مدنى واجتماعى جديد، وهكذا .. امتد تأثيرها الروحى والحضارى والثقافى حتى شمل المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى وهكذا كانت شهرة القيروان من الأسباب القوية التى دفعت أبناء المغرب بأقاليمه المختلفة بأن يشدو الرحال إلى تلك المدينة طلباً للعلم واستزادة من مناهله على أيدى العديد من كبار العلماء والفقهاء ورجال الدين الذين زخر بهم مسجد القيروان ودار الحكمة التى ظهرت بصورة فعالة فى عصر الأغالبة، وهكذا قصد أبناء المغرب بأقسامه المختلفة وغيرهم من الأمم المجاورة فى الأندلس وغرب أفريقيا تلك المدينة لأنها كانت أول مدينة بل أعظمها بالمغرب وأكثرها علماً وتجارة ومالاً وأحسنها منازل وأسواقاً وبها ديوان جميع المغرب وبها دار سلطانها، وهكذا نشأت القيروان واتسعت وقامت بها الأسواق والأحياء ونشأ بها مجتمع قيروانى محلى عماده الفقهاء والقضاة ورجال الدين وأهل الزهد والورع ونفر من الأغنياء وأهل الصناعة.

وقد ظهر أثر كل ذلك فى ميدان الحضارة والفكر والثقافة العربية الإسلامية التى كانت عليها القيروان فى القرن الثانى الهجرى بل اشتد عودها وزاد دفعها للحركة الإسلامية والثقافة بحيث أن مساجد القيروان ومسجد عقبة بن نافع قد شهدت حلقات للتدريس ونشأت مدارس جامعة أُطلق عليها دور الحكمة وقدم إليها العلماء والفقهاء

ورجال الدعوة الإسلامية فى الشرق وكانت هذه المدارس عاملاً له شأنه فى رفع شأن لغة القرآن الكريم لغة العرب وثقافتهم.

وكما حافظت القيروان على العروبة والإسلام فإنها أيضاً حافظت على المذهب المالكى حيث انتقل ذلك المذهب من القيروان إلى بقية مدارس وأنحاء المغرب ثم إلى الأندلس وأفريقيا الغربية، حيث كانت دور حكمتها مقراً لتدريس ذلك المذهب وعلى هذا فقد كان الدو الذى لعبته مدرسة القيروان بدورها الحضارى فى بلاد المغرب والسودان الغربى وانتشر علماء المالكية بها فى كل أرجاء الأندلس والسودان الغربى دور الطود الشامخ.

وهكذا توج الفتح الإسلامى لبلاد المغرب فى تلك الحقبة التاريخية (٢٢-١٢٥هـ/٦٤٣-٧٤٣م) بانتشار الإسلام واللغة العربية بصورة قوية وفعالة وتوج ذلك الانتصار الإسلامى بظهور القيروان كمركز حضارى وإسلامى وثقافى بصورة فعالة. وهكذا .. كان بحق إنشاء تلك المدينة بداية حقيقية لما تشهد عليه المغرب اليوم من كتلة عربية إسلامية قوية ثابتة، تقف بجوار الكتلة العربية الإسلامية المصرية التى لولا دورها وجهودها لما قدر للمغرب العربى أن تكتمل فيه الصورة العربية الإسلامية بتلك الصورة؛ حيث كان عطاء مصر ودوماً بلا حدود، وقدراتها تهب لإخوانها الذين ساهمت فى عروبتهم وإسلامهم وتطورهم الحضارى والثقافى والفكرى والعلمى، وهكذا .. كان دور مصر فى بلاد المغرب بلا حدود .

تم بحمد الله



المصادر والمراجع

أولاً – المراجع العربية

المصادر :

١ – ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء، القاهرة، ١٢٧٤هـ.

٢ – البكرى، أبو عبد الله : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية المغرب، الجزائر، ١٨٥٧م.

٣ – البلاذرى، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان، القاهرة ، ١٩٥٩م.

٤ – ابن حوقل ، أبو القاسم : صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٨م.

٥ – الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ليدن، ١٨٩٦م.

٦ – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٧ أجزاء ، القاهرة، ١٢٨٤هـ.

٧ – ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن المصرى : فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، ١٩٦١م.

٨ – ابن عبد ربه : العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٥٨م.

٩ – ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، مؤسس، ١٢٨٦هـ.

١٠ – ابن سعيد، على بن موسى المغربى : المغرب فى حلى المغرب، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٧٠م.

١١ – ابن عذارى المراكشى، محمد بن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٥٠م.

١٢ – الاصطخرى، أبو إسحاق بن محمد الفارسى : المسالك والمسالك، القاهرة، ١٩٦١م.

١٣ – الدباغ، عبد الرحمن بن عبد الله الأنصارى : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، ٤ أجزاء، تونس، ١٣٢٠هـ.

١٤ – السيوطى، عبد الرحمن بن أبى بكر : تاريخ الخلفاء، القاهرة، د.ت.

١٥ – المراكشى، محيى الدين عبد الواحد التميمى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، ١٩٤٢م.

١٦ – القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على : صبح الأعش فى صناعة الأنشا، ٤أجزاء، القاهرة، ١٩٢٢م.

١٧ – المقدسى، محمد بن محمد : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٩م.

١٨ – المالكى : رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس : القاهرة، ١٩٥١م.

١٩ – الطبرى، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك، تحقيق دى جويه، ليدن، ١٨٨٣م.

٢٠ – التيجانى، أبى عبد الله محمد : الرحلة، تحقيق حسن عبد الوهاب، تونس، ١٩٥٨م.

٢١ – مؤلف مجهول، الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، الجزائر، ١٩٢٠م.

٢٢ – ابن طباطبا ، محمد بن على بن السفطى : الفخرى فى الآداب السلطانية، القاهرة، ١٣١٩هـ.

٢٣ – ابن سيعد المغربى : بسط الأرض فى الطول والعرض، تطوان، ١٩٥٨م.

٢٤ – العمرى، ابن فضل الله : مسالك الأبصار فى ممالك لأمصار، مخطوط دار الكتب المصرى، رقم ٥٩٩ مصارف عامة.

٢٥ – الشهرستانى : الملك والنحل، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٢٦ – ابن قتيبية : الأمامة والسياسة، بيروت ١٩٣٨م.

٢٧ – الفتح بن خافان : قلائد العصيان فى محاسن الأعيان، تونس، ١٩٦٦م.
٢٨ – الجيلالى، محمد بن عبد الرحمن : تاريخ الجزائر، بيروت، ١٩٥٦م.
٢٩ – ياقوت الحموى : معجم البلدان، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٦م.
٣٠ – التونسى، محمد بن عمر : تسجيد الأذهان بسيره بلاد العرب والسودان، نشرة عساكر، مصطفى سعد، القاهرة، ١٩٥٦م.
٣١ – القيروانى، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم : طبقات علماء أفريقية وتونس، تحقيق على الشابى ونعيم الباقى، تونس، ١٩٦٨م.

المراجع :

٣٢ – إبراهيم أحمد العدوى : موسى بن نصير، القاهرة، ١٩٥٦م.
٣٣ – إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، ١٩٥٦م.
٣٤ – إبراهيم على طرخان : أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٢م.
٣٥ – إبراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا، بيروت، ١٩٨٠م.
٣٦ – أبو القاسم محمد كرو : عبد الله شريط : عصر القيروان، تونس، ١٩٧٣م.
٣٧ – إحسان حقى : تونس العربية، بيروت، د.ن.
٣٨ – أحمد سويلم العمرى : العرب والأفريقيون، القاهرة، ١٩٦٧م.
٣٩ – أحمد صفر : مدينة المغرب العربى فى التاريخ، تونس، ١٩٥٩م.
٤٠ – أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ٢، القاهرة، ١٩٦٩م.
٤١ – أحمد فكرى : مسجد القيروان، القاهرة، ١٩٣٦م.
٤٢ – أحمد مختار العبادى : دراسات تاريخ المغرب والأندلس، الأسكندرية، ١٩٦٨م.
٤٣ – السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٤٤ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية، القاهرة، ١٩٥٨م.

٤٥ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٦ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، القاهرة، ١٩٤٧م.

٤٧ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، ١٩٥٧م.

٤٨ – حسين مؤنس : فجر الأندلس، القاهرة، دون تاريخ.

٤٩ – جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٥٠ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٤م.

٥١ – سيدة إسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك، القاهرة، ١٩٦٢م.

٥٢ – زاهر رياض : مصر وأفريقيا، القاهرة ١٩٧٦م.

٥٣ – زاهر رياض : شمال أفريقيا فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨١م.

٥٤ – حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٤م.

٥٥ – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الرسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٦٢م.

٥٦ – صلاح الدين الشامى : الوطن العربى ، دراسة جغرافية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٥٧ – صلاح العقاد : المغرب العربى، ٣ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٩م.

٥٨ – حسن سليمان : ليبيا بين الماضى والحاضر، طرابلس، ١٩٥٨م.

٥٩ – سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢م.

٦٠ – الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط، القاهرة، ١٩٧٢م.

٦١ – عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦٢ – عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

٦٣ - عبد الرحمن زكى : مدائن إسلامية، القاهرة، ١٩٧٩م.
٦٤ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والثقافة العربية فى أوربا، القاهرة، ١٩٧٩م.
٦٥ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان، القاهرة، ١٩٨٥.
٦٦ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الإسلامى فى غرب أفريقية، القاهرة ١٩٨٥م.
٦٧ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : دور مصر الحضارى فى أفريقية، القاهرة، د.ت.
٦٨ - عبده بدوى : مدن أفريقية، القاهرة، د.ت.
٦٩ - عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى ، بيروت، ١٩٨٣م.
٧٠ - محمد أمين صالح : العرب والإسلام، القاهرة، ١٩٨٤م.
٧١ - محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٩م.
٧٢ - محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير، القاهرة، ١٩٨٣م.
٧٣ - محمد السيد غلاب وآخرون : جغرافية العالم، القاهرة ١٩٥٩م.
٧٤ - إبراهيم حركات : النظام السياسى والحربى فى عهد المرابطين، الدار البيضاء، د.ت.
٧٥ - محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية : القاهرة ١٩٦٥م.
٧٦ - محمد عوض محمد : الاستعمار، أساليبه ومذاهبه، القاهرة، د.ت.
٧٧ - محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية، (فصل)، القاهرة، ١٩٧٧م.
٧٨ - أرونالد توماس : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وآخرون، القاهرة، ١٩٥٧م.
٧٩ - أرشابليد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة

أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠م.

٨٠ - عبد العزيز كامل : وجه الإسلام فى الحضارة الأفريقية، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، مايو، ١٩٦٦م.

٨١ - حورية عبده سلام : علاقة مصر بالمغرب من الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٤م.

٨٢ - زين العابدين السراح : دولة كانم الإسلامية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٨٣ - عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ١٩٦١م.

٨٤ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الرسلامية، رسالة ماجستير، الدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥م.

٨٥ - ناطف صالح مطلوب : نبل الابتهاج بتطرير الدباج، دراسة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٣م.

٨٦ - نبيلة محمد حسن محمد : انتشار الإسلام فى السودان الغربى، كلية الآداب، جامعة الأسكندرية، الأسكندرية، ١٩٧٢م.

٨٧ - إمارى مخائيل : المكتبة العربية الصقلية، ليدن ١٨٨٧م.

٨٨ - عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية، رسالة دكتوراه، ١٩٨٣م.

ثانياً - المراجع الأجنبية

1 - Baulin, J.: The Arabe rule in Africa, London, 1962.

2 - Bury, J.: History of the Later Roman Empire, London, 1924.

3 - Gaudel E.: Les Premières invasions désarbes dans l'Afrique du Nord, Paris, 1900.

4 - Gautier. F.F.: L'Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1937.

5 - Julien, A.: Histoire de l'Afrique de Nord, Paris, 1953.

6 - Charles, D.: Histoire du Moyen Age, Paris, 1949.

7 - Marcais, G.: Les Arabes en berberie, Paris. 1913.

8 - Marcais, G.: La Berberie Musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1946.

9 - Scott, A.: History of the Moorish Empire in Europe, London.

10 - Lathman, G.: Europe in the Middle Age l,London, 1904.

11 - Pelluguin, A.: Histoire de la Tunisie, Tunis, 1948.

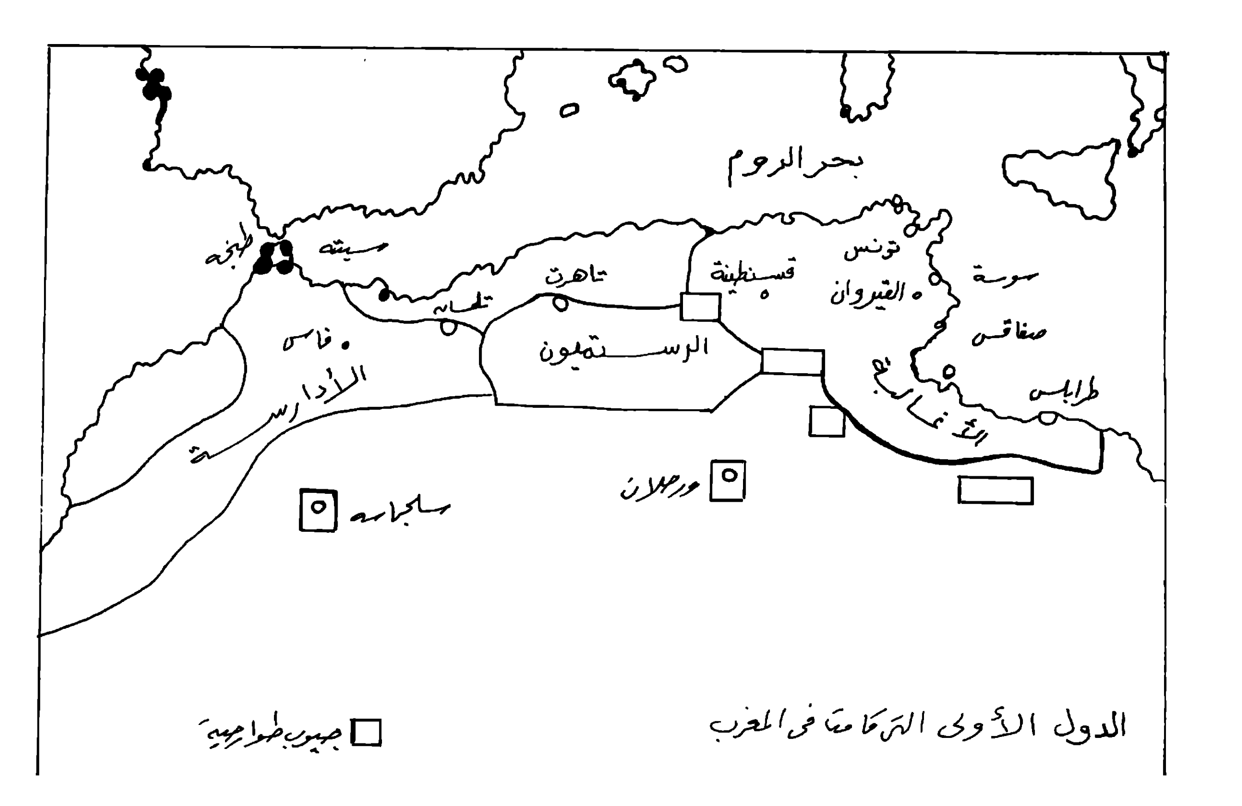
12 - Hullette, R.: Africa to 1975, London.

13 - Triminghem, J.S.: A Story of West Africa, London.

14 - Vasiliev, B.: Bpzantie et les Arabes, Bruelles, 1935.

15 - Terrasse, H.: Histoire du Maroc, 1946.

16 - Newman, B.: Marocco to day, London. 1923.



بحر الروم
طنجة
سبتة
تلمسان
تاهرت
قسنطينة
تونس
القيروان
سوسة
صفاقس
طرابلس
فاس
الأدارسة
الرستميون
الأغالبة
ورجلان
سجلماسة
جيوب خوارجية
الدول الأولى التي قامت في المغرب

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمهـا للقارىء العربي والمسلم ولكـل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسـعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا٠ وعلى هذا تكون هذه الدراسـة عن جزء عـزيز من عـالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم٠



مكتبة مدبولي

6 Talat Harb SQ. Tel.: 756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١